نظرية العالَم الاجتماعي

عند بيار بورديو

تأليف لويس بينتو

ترجمة وتقديم مَحمد أمطوش

أستاذ التعليم العالي - المغرب

عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع

2014

نظرية العالَم الاجتماعي

عند بيار بورديو

تأليف لويس بينتو

ترجمة وتقديم

مَحمد أمطوش

أستاذ التعليم العالي – المغرب

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2014

الكتاب

نظرية العالم الاجتماعي عند بيار بورديو

تأليف

محمد امطوش

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 228

القياس: 17×24

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2013/7/2622)

ISBN 978-9997-70-657-9

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد- شارع الجامعة

تلفون: (27272272- 00962)

خلوي: 0785459343

فاكس: 27269909- 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
www.almalkotob.com

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن- العبدلي- تلفون: 5264363/ 079

مكتب بيروت

روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 471357 1 00961

فاكس: 475905 1 00961

Pierre Bourdieu
et la théorie
du monde social

Albin Michel, 1998

ISBN 2-226-10678-2

محتويات الكتاب

توطئة مبدئية

يحتل بيار بورديو (1930-2002) مكانة خاصة في مدرسة علم الاجتماع الفرنسي، إذ أن أعماله مست أسس ومنطلقات علم الاجتماع نفسه وإن طغى على أبحاثه طابع الميدانية. وقد أثارت كتاباته وتساؤلاته المنهجية والنظرية (بل واستفزازاته حسب البعض) كما هائلا من ردود الفعل من مناوئة ومتعرضة ورافضة ومشككة في نوايا الشخص ومتهجمة ومحتقرة. واستحق عن جدارة صفة المفكر المشاكس أو المشاغب الأكاديمي أو المفكر الاستثنائي (قد يسأل سائل ما المقصود بالاستثناء أمدح أم ذم!). وهو شغب يستحق تفهما ونظرة عميقة منها تتأسس رؤية واضحة منهجا ونظريا، وتُستمد قواعد عمل ومساءلة تحفز البحث وتغوص في خبايا ومنطلقات المسألة غير مكتفية بقشور التحليلات.

بدأ مساره العلمي دارسا للفلسفة، ثم في إطار خدمته العسكرية/ المدنية، استغل وجوده في الجزائر كأستاذ بها، المستعمرة الفرنسية آنذاك، فوجه جهده لدراسات الأناسة وعلم الاجتماع. وكانت حصيلة تلك التجربة كتاب اجتماعيات الجزائر.

تدرج في سلك التعليم الفرنسي من جامعة السوربون إلى مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية ومعهد علم الاجتماع الأوروبي لينتهي به المطاف في كرسي علم الاجتماع في أعلى المنابر الأكاديمية الفرنسية، الكوليج دو فرانس، معوضا الراحل رايمون آرون[1] R. Aron. وعرفت عنه مواقف سياسة مشهودة. وبرحيله فقدت الجامعة الفرنسية آخر عمالقتها الدوليين.

---

(1) منعا للبس سنكتب أسماء الأعلام الأجنبية باللاتينيات مرة واحدة، علما أن أغلب الأسماء الواردة معروفة للقارئ العربي في جلها.

وسواء تعلق الأمر باقتراحات إبستيمولوجية لممارسات المعرفة أو بعلم اجتماع جديد للممارسات العادية، فإن مواقف بورديو النقدية تعبر عن اختيارات نظرية وأنطولوجية حول ما هو مجتمعي، من المهم وصفها وتسليط الضوء عليها، وإبراز منطلقاتها وعلاقتها مع توجهات في فلسفة اللغة والظاهراتية بغية إلمام حسن ببعض مقترحات بورديو في سياقها ومنبعها النظري.

وهو مفكر غير مجهول للقارئ العربي كما يشهد بذلك عدد ما ترجم له من نصوص إلى العربية (انظر أسفله). وقد تعزى شهرته في العالم العربي إلى أبحاثه عن منطقة القبائل الجزائرية[1] وأبحاثه في حقل المدرسة.

ويشكل كتابه مخطط تمهيدي لنظرية الممارسة (1970) بادرة تنظير اجتماعي فيه رسم مخطط معرفة من ثلاثة عناصر:

تجربة أولية أي الظاهراتية وهي وصف وتسجيل لما هو مألوف ويومي؛ منوال أي المعرفة الموضوعية المنظمة للعلاقات الموضوعية وكيفيات بناء الممارسات وتمثيلاتها؛ منتقدا منوال المقاربة الموضوعية للظواهر بانتقاده إهمال المراقب الموضوعي المحايد للممارسة وهو ما يشكك في قدرته على تفسير كل الحالات. طبعا انتقادات بورديو تمس الأعمال البنيوية لكلود ليفي شتراوس C.L. Strauss وكذا منوال دوركهايم Durkheim.

دراسة لحالة الفوارق الطبقية بنيويا مع التحفظ على وهم الموضوعية وتجاوز دكتاتورية المنوال الاجتماعي وعدم الاعتماد على القوالب المسبقة والصور الجاهزة والتصنيفات المعتمدة "علميا"[2].

(1) في هذا الكتاب المقصود دوما بالقبائل هو المنطقة الجزائرية المعروفة بهذا الاسم.

(2) طوال هذا الكتاب استعمال "علمي و"عالم" و"علماء" بين قوسين فيه نوع من السخرية والمساءلة لدكتاتورية القوالب الأكاديمية. ولم يشر أي مترجم لبورديو لذلك من قبل.

وإذا كان بورديو قد أولى في أبحاثه مكانة مهمة للسيطرة الطبقية فإن الأساسي في طرحه قد نلخصه في مقولة أن تلك السيطرة تأخذ شكلا مستبطنا وضمنيا في سلوكيات المهيمن عليهم. وقد برهن على ذلك حتى في الميادين التي لا ينتظر فيها ذلك كالذوق الأدبي الذي كان يعتبر جماليا خالصا فقد برهن على أنه عقائد طبقية مميزة وهو في الحقيقة دفع للمستهلك لكي يتقبل الفوارق الاجتماعية كأمر مشروع معززا بذلك سيطرة المهيمنين على عملية إنتاج العمل الإبداعي وكذا تداوله واستهلاكه من خلال الخطابات التي تتناوله، وإن أي عمل إبداعي لا يمكن أن يأخذ كامل أهميته إذا لم يشيأ داخل سياق اجتماعي يعتبر العمل الإبداعي في نطاق ازدواجية إنتاجه: ماديا ورمزيا. معتبرين المبدع والمستهلك والوسطاء.

هدف بورديو من هذه التحليلات، سواء في ميدان الإبداع أو التعليم مثلا، هو إبراز الوسائل الضمنية التي توطد الفوارق الطبقية من خلال توطيد الهيمنة الثقافية باعتبارها شكلا عاديا وشرعيا. ويلوح في الأفق ما يشير إليه بورديو ألا وهو نوع من الترابط والتناظر ما بين الامتيازات الاقتصادية، الرأسمال الاقتصادي و"الرأسمال الثقافي" ما بين الهرميات الاجتماعية وباقي الهرميات؛ وهكذا فالتعليم لا يقوم إلا بتكريس صفة الطبيعي على ما هو في الحقيقة إلا رغبة المهيمنين في شرعنة امتيازاتهم. أي بتلخيص نوع من إعادة إنتاج الموجود وترسيخه.

"إن الوقائع لا تتكلم عن نفسها ولا وجود لها بذاتها؛ والوعي أهمُّ من الحقيقة الموضوعية": تميز موقف بورديو النظري في علم الاجتماع في ربط الذاتي بالموضوعي فلا وجود لذاتية مستقلة تفسر الحقيقة الاجتماعية ولا لموضوعية قائمة بذاتها ثابتة؛ فالحقيقة تنم عن صراعات دائمة وتناقضات مفهومية لا تنفصل عن تناقضات الواقع الاجتماعي، وكذا عن تغيرات مستمرة، دائمة الحركة منتجة لمفاهيم جديدة. والحقيقة الذاتية تفسر بارتباطاتها

بالحقيقة الاجتماعية كجزء لا يتجزأ منها ولا تُفسَّر ذاتياً. ونرى في هذا الموقف ما يجمع ويفرق بين بورديو وماكس فيبير وماركس وغيرهما.

وإن أحسن طريقة متوافقة لفهم ظواهر وحقيقة العالم الاجتماعي هي فهم الواقع والعلاقات وهذا يعني في نظر بورديو التخلي عن تصورات مثل الثبات والملاءمة الداخلية. زيادة على أن العمل العقلاني يتجاهل الأرضية التاريخية للبنيات الذاتية والموضوعية. فالعالم الاجتماعي ليس حاصل قرارات وتصورات ولا يعكس نفسه وليس ببنيات مستقلة في حد ذاتها وتأثيره على الفرد ليس أحادي الجانب.

ودور عالم الاجتماع في تصور بورديو هو إزاحة الستر عن الظروف (من متلازم وحتمي ومآل) والشروط التاريخية الاجتماعية لإنتاج القوانين، نقيضا لطوعية تكرس حقائق مشكوك فيها وعلموية تدعي اكتشاف قوانين "علمية".

وكمثال لمقاربات بورديو نأخذ مثال الهيمنة الذكرية: هل هذه الهيمنة معطى طبيعي أم نتاج بناء تاريخي؟ من خلال دراسة وتحليل المجتمع القبائلي وهو مجتمع عملي وحساس لكشف اللاشعور التاريخي؛ مستخلصا أن لب المسألة هي حاصل بنى تاريخية ناتجة عن عناصر متشابهة، في كل المجتمعات (الأوروبية أو الشرقية)، سلسلة أضداد وثنائيات تتبع التعارض: مذكر/ مؤنث كتقسيم اعتباطي إذا كان معزولا ويستمد ضرورته الموضوعية والذاتية حين يضمن وسط أضداد متجانسة: أعلى/ أسفل، وفوق/ تحت، وأمام/ وراء، ويمين/ شمال، ومستقيم/ غير مستقيم، وجاف/ رطب وصلب، رخو، .... أضداد تتشابه في اختلافاتها، تتقارب وتتعاضد في لعبة لا تنتهي من التحولات العملية والمجازية، وتتباعد مضيفة على كل عنصر منها سمكا دلاليا يفصل ما هو مذكر عما هو مؤنث كمعطى أناسي يولي الصدارة للمذكر والهامش للمؤنث. وهو معطى يفرض نفسه كمحايد ليس بحاجة لخطابات علنية تزكي شرعيته، زد لذلك أن المنظمة الاجتماعية والمجتمعية تتدخل بكامل آلياتها الرمزية للمصادقة على شرعية التقسيم الجنسي مع ما يتلو ذلك من توزيع دقيق

للأنشطة المميزة جنسيا. ولا يترتب هذا التمايز عن تمايز أحيائي ولكن يمكن فهمه من تمايز اجتماعي، جعل من الاختلاف الجنسي هذا، هرمية لصالح الهيمنة الذكرية.

وكما نرى ينطلق بورديو من موقع أناسي وأجناسي لفهم ما الذي يؤسس لديمومة مفهوم كالذكري، مؤكدا على دور العنف الرمزي الذي يكرس الاعتراف المستبطن بهيمنة المذكر من خلال تجذر الصور العليا الملازمة لأنساق الاستعدادات والتصورات الإداركية لدى كل الأفراد، تجذُّر وتأبيد ناتج عن عمل التاريخ والمؤسسات (كنيسة، دولة، مدرسة..)

طبعا طرح بورديو انتقدت، ورأى البعض أنها لا تقدم جديدا كما أنها تشكل تنقلا من مجتمع قبائلي إلى مجتمع أوروبي وإسقاطات تثير التساؤلات.

وقارئ بورديو يجد نفسه أمام مفاهيم خاصة به، ويلاقي مصطلحات أساسية في كتابات بورديو منها على سبيل المثال:

الحقل: له معنى خاص لفهم الأنشطة الاجتماعية. والحقل هو منظومة علاقات تعبر عن حالة صراعات وميزان قوى، يمتلك صفة جوهرية وصفات ثانوية، ويصنف تبعا لجوهريته، ويقارب بطريقة تجريبية ميدانية لصبر أنشطته مع التأكيد على علاقة الترابط بين مختلف الحقول.

والإنعواد، Habitus، مفهوم الإنعواد هو أحد المصطلحات المشكلة في استعمالات بورديو، ترجمه البعض بالخصائص الاجتماعية النفسية، والخصائص الشخصية، والوسط المعيشى، والطابع، والطابع الاجتماعى الثقافى، والسمت، والسيماء، والسجية وبالعرف وبالتطبع والتعود والعادة واكتفى آخرون بنقرحته أبيتوس وهابيتوس وقد ترجمناها سابقا بالعادة المستبطنة؛ وهو بالطبع لا علاقة له بالعرف لأسباب واضحة ويبتعد مفهوميا عن التعود والفطرة والعادة وقد اخترنا ترجمته هنا بالإنعواد وإن كانت الكلمة ليست بسليمة لغويا. وهي كلمة يونانية مشتقة من habere، وتعني تملك. وقد استعملها أرسطو بمعنى طريقة الوجود الثابتة التي لا يمكن تغييرها. كما أعطاها طوما الاكويني معنى العادة، وقد

استعملها إميل دوركهايم بمعنى الطبع وعند مارسيل ماوس M. Mauss هي العادة المكتسبة. وقد أعاد توظيف المصطلح بورديو على مستويين أولا مكوناته وهيكلته الداخلية وثانيا وظيفته ودوره.. وهو منبع الممارسات المعيدة لإنتاج شروط الموضوعية الملازمة لإنتاج الإنعواد. مثلا، الإنعواد المكتسب في الوسط الأسري هو أساس عملية التجارب التعليمية، والإنعواد الذي تبنيه المدرسة فيما بعد هو أساس كل الخبرات التالية من تقبل وفك لشفرات الرسائل المتعلقة بالثقافة والخبرة كإعادة بناء متتالية في سلسلة لا تتوقف. أي كنسق من الاستعدادات الدائمة والقابلة للتحويل، بنيات مهيكَلة قابلة للعمل كبيات مهيكِلة، أي كمبادئ مولدة ومنظِّمة لممارسات وتمثيلات، وهو نظام من الخطابات التي تدخل في إنتاج ممارسات معينة في العالم الاجتماعي وهو يقابل مفهوم البنية وهو استثمار خاص، غالبا لا واع، في الفضاء الاجتماعي، يميز المهيمن عن المهين عليه؛ ومن مضامينه الميول والتصورات والإدراكات ورؤية العالم أو مبادئ التصنيف لميول المجموعة الاجتماعية واستعداداتها ونزعاتها وفي أساس تولد الأفعال وتحولها إلى تمثيلات. ويمنع وجوده العاملين[1] الاجتماعيين من الحرية في أعمالهم لأنه يحدد طريقة تفكيرهم وذوقهم واتجاه أفعالهم وسلوكياتهم.

الرساميل (الرمزية والثقافية...)؛ مثال رأس المال الرمزي: هو الاعتراف والاعتقاد بقوة أو بسلطة مالك أكبر عدد من المزايا، أو شكلاً من الاعتراف بشرعية الهيمنة. و هذا الرأسمال مرتبط بمبدأ السلطة ومبدأ التميُّز ومبدأ الأشكال المختلفة لرأس المال. وهو موجود في ويدخل في كل الحقول وفي مختلف أشكال السلطة أو العلاقات.

---

(1) يفضل كثير من الزملاء استعمال فاعلين اجتماعيين بل وحتى لاعبين. وحيث أن مصطلح فاعل اجتماعي ولاعب اجتماعي مرتبطان بتوجهات نظرية في علم الاجتماع تختلف بل ويتعارض بعضها مع توجهات بورديو فضلنا استعمال عامل وعاملين. ونؤكد على أن هذه الاختلافات المصطلحية ليست زخرفا لغويا وهي من شروط الدقة العلمية وأمانة النقل والترجمة .

العنف الرمزي: مفهوم العنف الرمزي هو إجبار الأفراد مع تواطؤ أنفسهم في ذلك، وإذا أخذنا مثلا حالة المدرسة نرى بأن المدرسة تكرس مسلمات وبديهيات النظام السياسي أي أنها تكرس علاقات السلطة وتغرس وجهة نظر المهيمنين كعلاقة طبيعية؛ ويتجسد هذا العنف في البنيات الموضوعية عبر القوانين التي تكرس سلطة الهيمنة وكذا البنيات الذاتية التي تدرك وتعترف بهيمنة تلك القوانين. وهي مفاهيم غير مقدسة أو قائمة بذاتها جوهريا بل هي نتاج بعد اجتماعي والاعتقاد بشرعية الهيمنة ليس طوعيا وواعيا بل هو تطابق بنيات مستبطنة لا واعية وبنيات موضوعية.

استراتيجيات إعادة الإنتاج: يشكك بورديو في الرؤية البنيوية / الموضوعية التي تفسر بدَور تأثيرات البنيات والظروف وكل ما هو انسجام ومرجعية وعفوية مسار إعادة الإنتاج الاجتماعي. كما يرفض بورديو أن تكون الذات وإرادتها منبع الإبداع. فكل علاقة هيمنة ليست بأحادية التأثير لأن من شروط الخنوع والاعتقاد أن ذلك يتم باستقلالية عن إرادة الفرد ووعيه وعن البنيات الذاتية للعاملين.

ثم إن الصراعات (فكرية وسياسية...) بين المهيمنين والمهيمن عليهم هي نتيجة اختلاف في المصالح والمواقع، وصراع العقيدة القديمة مع الجديدة تتم من المساءلة أو النقد الذي يسمح بتدمير أشكال ومفاهيم مشيأة اجتماعيا ويفتح الباب لتحديدات اجتماعية جديدة. مثلا إنتاج الفضاء الثقافي وإعادة إنتاجه يؤديان إلى إنتاج الفضاء الاجتماعي وإلى إعادة إنتاج الفضاء الاجتماعي.

إن الحقل كما يشير إلى ذلك بورديو ليس مجرد تمثيل ذاتي للعالم الاجتماعي إنه موضوعي واقعيا وبنية مؤرخة، وتعكسه حقيقة المؤسسات التي تعبر عنه، وكذا الممارسات والمصالح المشتركة، ويتميز بقوانينه وقواعد لعبته وبكونه أنه في مسار تشكله التاريخي يمر

بمراحل ومحل عديدة صراعات من أجل الاستقلال الذاتي[1]. وهو محل صراع داخلي بين المتبارين على امتلاك تمثيلية الحقل والنطق بلسان حال الحقل واحتكار منافعه و محل منافسة بين القدماء المؤسسون والوافدون المحدثون يتميز الحقل بوجود نوعين من الصراع، الأول داخلي بين عملائه، في تنافسهم على الشرعية وعلى امتلاك الحق في تمثيل الحقل والتعبير عنه واحتكار المنافع التي يدرها، وأيضا التنافس بين قدماء الحقل والجدد، كما أنه يعيش صراعا مع باقي الحقول في الفضاء الاجتماعي.

ويتسم الحقل بنوع من الاستقلالية الذاتية وحيث يوظف (بوعي أو لا وعي) ويستثمر العاملون رأس مالهم الرمزي بهدف رفع عائداته. وهو محل صراع من أجل رفع الرأسمال الرمزي وتبوأ مكانة أعلى وحصول على نفوذ واعتراف يعزز الرأسمال الاجتماعي للفرد والجماعة والطبقة. وتضم الحقول إستراتيجيات السلطة والتسلط والإقصاء والتمييز وفي هذا تشابه كل الحقول كانت ثقافية أم اجتماعية.

الانعكاسية على العلم حسب بورديو تسليط وعكس مكتسبات البحث العلمي على شروط عمل الباحث نفسه باعتبار كونه منتجا للمعرفة أي التفكير انعكاسيا على ضوء مستجدات علم الاجتماع ومن ذلك تحليل عملية البحث ذاتها وخطابها وأنشطتها تحليلا ذاتيا ونجد في كتاب الإنسان الأكاديمي تعريفا بتلك الشروط التي وضعها بورديو تؤسس لاشتغال المتخصص العلمي والمثقف. وتعني أن على الباحث تنقية وتنقيح دوره ودور تاريخه الشخصي على ضوء نتائج أبحاثه وتأثيراتها على ممارسته العلمية وما تخلقه من ضبابية وتشويش رؤيته للمواضيع وإن كان غالبا بطريقة غير واعية.

وسيجد القارئ في متن الكتاب مفاهيم أخرى من استعمالات بورديو.

ربما كانت لأبحاث بورديو على اجتماعيات الجزائر دور في شهرة بورديو في العالم العربي، كما أننا نلاحظ أن أعماله حول المدرسة والتوريث كانت من الكتب التي تم تداولها

---

(1) الاستقلال الذاتي أو الاستقلال هما بمعنى الاستقلال النسبي على طول هذا الكتاب.

في أوساط المهتمين بعالم التربية والتدريس يضاف إلى ذلك شهرته في أواخر حياته كأحد كبار المفكرين الفرنسيين ربما كل هذه المعطيات جمعاء تفسر سرعة واتساع حركة الترجمة التي مست أبحاثه إلى العربية. وخلال تقصينا عن كتبه المترجمة لاحظنا أنها تقريبا تمس جميع أبحاثه الأساسية وهو شيء مفرح حقا للمكتبة العربية.

ونعطي لائحة غير تامة لما نشر بورديو سواء وحده أو بالاشتراك مع آخرين:

اجتماعيات الجزائر (1958)

الوَرَثة. الطلبة والثقافة (1964)؛

إعادة الإنتاج. أصول نظرية في نظام التعليم (1970)؛

التمييز-التميز. النقد الاجتماعي لِحُكم الذوق (1979)؛

الْحِس العملي/ التطبيق العملي (1980)؛

في معنى القول. اقتصاد التبادلات اللغوية (1982)؛

درس في الدرس (1982)؛

قضايا في علم الاجتماع (1984)؛

الإنسان الأكاديمي (1984)؛

أشياء قيلت (1987)؛

الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدغر (1988)؛

إجابات. من أجل أناسة انعكاسية (1992)؛

قواعد الفن. تكوُّن وبنية الْحقل الْأدبي (1992)؛

بؤس العالَم (1993)؛

عِلَلٌ عَمَلية. في نظرية الفعل (1994)؛

حول التلفزة (1996)؛

تأملات باسكالية (1997)؛

السيطرة الذكرية (1998)؛

البنيات الاجتماعية للاقتصاد (2000)؛

علم العلم والانعكاسية (2001)؛

تـدخلات. العلـم الاجتمـاعي والعمـل الـسياسي 1961-2001، (2002)؛

توطئة لتحليل - ذاتي

كما أن دروسه في الكوليج دو فرانس نشرت مؤخرا.

وربما وجد القارئ بعض كتبه بعناوين عربية مختلفة شيئا ما.

ومما ترجم من كتب بيار بورديو إلى العربية نذكر:

- إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة د. ماهر تريمش؛

بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية، ترجمة أحمد حسان؛

اللسان والسلطة الرمزية، بورديو، ترجمة محمد أمطوش؛

الفتـى المتعـدد والمـضياف، إعـداد وتوطئـة عبـد الجليـل بـن محمـد الأزدي؛

الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي؛

العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل؛

درس في الدرس، عبد السلام بنعبد العالي؛

حرفة عالم الاجتماع، نظير جاهل؛

العنف الرمزي. بحث في أصول علم الاجتماع التربوي،نظير جاهل؛

أسئلة علم الاجتماع، إبراهيم فتحي؛

أسئلة علم الاجتماع. في علم الاجتماع الانعكاسي، عبد الجليل الكور؛

قواعد الفن،إبراهيم فتحي؛

عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول،درويش الحلوجي؛

العقلانية العملية. حول الأسباب العملية ونظريتها، عادل العوا؛ أسباب عملية،

عادة النظر بالفلسفة، أنور مغيث؛

السيطرة الذكورية، أحمد حسان؛ الهيمنة الذكورية، سلمان قعفراني؛

بؤس العالم، محمد صبح؛

أسباب عملية، أنور مغيث؛

أسئلة علم الاجتماع حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزى، إبراهيم فتحى؛

أسئلة علم الاجتماع فى علم الاجتماع الانعكاسى، عبد الجليل الكور؛

الرمز والسلطة، ت: عبد السلام بنعبد العالى؛

حرفة عالِم الاجتماع، د.نظير جاهل؛

التمثل السياسي، رشيد شقير، فى: رشيد شقير، اجتماعيات الإدلوجيات السياسية.

وهذه لائحة غير كاملة وتوجد نصوص مهمة عديدة مترجمة في ثنايا مجلات عربية. كما أننا نلاحظ أن بعضا من كتبه ترجمت عدة مرات.

وتجدر الإشارة إلى أن بورديو أعاد نشر عدد من نفس النصوص في كتب مختلفة وربما خلق ذلك نوعا من البلبلة في أذهان البعض.

والكتاب الذي نقدمه اليوم هو غني كمفاتيح إلى علم اجتماع بورديو بقلم واحد من زملاء بورديو وأكثرهم التصاقا بفكره وتصوراته، مرجع مهم لا غنى عنه لطالب علم الاجتماع.

مدخل

رحل بيار بورديو في 23 يناير 2002. فجأة ومبكرا عن سن قارب 71 سنة، رحل مع مشاريعه الكثيرة في العديد من المجالات. فلم يتوقف من التدخل والمشاركة بشكل لافت ولامع ومستنير في الفضاء العام ولكن أيضا من خلال الكتب والمقالات والدروس والمحاضرات أو الاستجوابات، وكانت حيويته فياضة. وفي زمن قصير قدم إلينا نصوصا مهمة مثل البنيات الاجتماعية للاقتصاد وعلم العلم والانعكاسية دون ذكر رسائل مثل مضادات نيران 2 وحفلة رقص العزب و مداخلات.

وكتاب عن بورديو لهو حقا مغامرة فريدة: تقديم الأبحاث والطرح النظرية التي يقترحها، مع لزوم الوفاء لما يشكل عمق طرحه، أي أسبقية العمل البحثي على المواقف النظرية كما ينظر إليها عموما ويشاع. لأنه إذا كانت هذه الأبحاث، التي أصبحت مألوفة لي مع الوقت، قد ولدت لدي في زمن شبابي شعورا قويا بالجديد[1]. فلأنها تحفز على القطيعة مع طريقة كينونة ثقافية موسومة بالبرامج وإفرادات نظرية ونقاشات وهي اختبار أولي معقد الأهداف ودقيق المرامي سواء من حيث منطلقاته الفلسفية و كذا غير محددة في نتائجه التجريبية وبل وحتى النظرية. كيف يمكن تفادي مسألة تأويل فكر كاتب كان يبدو لي محرِّرا من هذا السلوك التأويلي؟

على أن لا يؤخذ هذا الاعتراف بالورطة كدلال مألوف في الافتتاح لكونه عبر عنه بصيغة مباشرة، ولكنه في الحقيقة التزام بالبحث عن صيغة واضحة ودقيقة ما أمكن للتعبير

(1) يذكرني هذا بما حصل لتقديمي لأحد كتب بورديو في مجلة عام 1974 حيث ارتأى محرر المجلة لزوم تقديم تعليل وهو نادر فيما يتعلق بتقديم الكتب، وطلب رأي القراء.

عن نظرية بورديو، مع الأخذ في الحسبان ما قاله بورديو عن الحديث عن مؤلف[1]. هذه الصيغة ذات الصعوبات الخاصة والتي حاولت الاقتراب منها تتمثل في شكل "طريقة استعمال". فليست بأية حال صورة حالة كاملة بل هي صحيفة إشارات تسمح بتحديد الخطوات الأساسية الذي أنجزها هذا المفكر في المجال النظري وفي العالم الاجتماعي. يتعلق الأمر إذا بذكر انطلاقا من أفق إشكالي حيث أنتجت واستعملت الوسائل القابلة للتعميم والقابلة للنقل التي أتت بها أعمال بورديو بغية استعمالات جديدة والتي يمكن أن تحوي أيضا تغييرات أو تصويبات. القاعدة هي الدقة والإقناع عوض الشمولية والانتظام على طريقة تعاليق التقليد الجامعي المجسد في مؤرخ الفلسفة الذي يبحث لإظهار تناسق النظرية وأحيانا ترددها ونقصها. بطريقة ما يمكننا القول بأن الخطاب المقترح هنا هو خطاب مستعمل للنظرية أكثر منه خطاب مؤول متخصص في نظرية بورديو (كما يوجد متخصصون في ماركس ودوركهايم وفيبير ...)

الحديث اجتماعيا عن كاتب هو عالِم اجتماع ليس "قول الكل"، بل اعتماد وجهة نظر التي هي وجهة نظر هذا الكاتب بقدر ما أنه يعرف ويحدد نفسه نسبة لحقل العلوم الاجتماعية وأنه يعمل فيه ويؤثر فيه ويغيره. وعكس رؤية مختزلة اقترحت لعمله، لم يشبه بتاتا بورديو حقلا مع لعبة صراع قوى عمياء. يوجد في حقل ما إمكانيات حقيقية للتحول ولكنها جد مختلفة حسب الموقع المتخذ. بعضها ملائمة للابتكارات أو حتى الثورات: وقد حللت الأسباب في إطار نظرية الثورات الثقافية أو الرمزية وهي إحدى الآفاق الأكثر تحفيزا المستوحاة من عمل بورديو هذا. غير أنه اليوم لا يجادل في أن كيفية القيام ببحث اجتماعي قد تأثرت كثيرا بما جاء به بورديو. لنسعد أو لنتأسف فقد فرضت كلمات وعادات ثقافية

---

(1) يرجع في هذا لكتاباته:

"Comment lire un auteur", in *Méditations pascaliennes*, Paris Seuil, ; "Qu'est-ce que faire parler un auteur? A propos de Michel Foucault", *Sociétés et Représentations*, 3 novembre, 1996, 13-18.

نفسها في فرنسا وغيرها في حلقة أوسع من الطلاب والمقربين. ومن بين ما تحقق الأكثر صلة ومعنوية بالتخصص يوجد تمثيل الممارسة الاجتماعية كبناء لازم للموضوع ونقد التصورات الما قبلية الفكرية متمثلة من جهة في تقويض وتدمير وتفكيك الأصناف (العالمة والإدارية...) ومن جهة ثانية في تأريخية المواضيع المنظورة كوسيلة نضال ضد آثار التطبيع. وأخيرا يتقبل بعض علماء الاجتماع بطريقة متفاوتة المستوى بمبدأ تحليل انعكاسي لعلاقاتهم مع الموضوع الذي من ايجابيته منع بعض الأشكال الساذجة للعقائدية والعِلمانية.

وإذا كان من الطبيعي ومن المأمول فيه أن يخلق علم اجتماع بورديو نقاشات وانتقادات يمكننا أيضا الأمل بأن تكون ردود الفعل في مستوى ما تهدف إليه. وبهذا الخصوص يجب الانتظار طويلا، أقول ذلك دون خلفية استفزازية ولكن ببساطة بواقعية مفهومة. عندما يتناول كاتب مثل ذلك العدد من المجالات والمواضيع والمشاكل، من دراسة المنزل في منطقة القبائل الجزائرية إلى منابع الدولة مرورا بنظام التعليم والأدب والخياطة الراقية وفلسفة هايدجير وأنماط الحياة، وعندما يكون من بين زملائه أغلب ما يعتد بهم في فرنسا وخارجها في عالم العلوم الإنسانية من علماء اجتماع وأجناسيين وفلاسفة ومؤرخين ولسانيين ولما تترجم كتبه وتناقش في عدة بلدان وعندما توحي ببحوث أصيلة وصارمة بداية من طلابه وأتباعه، فإنه إذا يستحسن الحذر من العنتريات وغيرها من الجهود التي لا تنفع في شيء، ومن غير قراءة منتبهة وحازمة ودقيقة (وغير متسامحة) يستحسن اقتصاد مثل ذلك الجهد. مثلا قبل التصريح بأن عالم الاجتماع هو عدو الفلسفة إجماعا بين عناصر فئة في وضع دفاعي وكتبة يتباكون على الفضيلة المهددة؛ فقد كان من النافع التعرف على حكم فيلسوف مثل كريستيان شوفيري C. Chauviré: 'بورديو والفلسفة ليست بقصة بسيطة. ولن نحتفظ ونسجل هنا إلا بالجانب الأكثر إيجابية: نحن ملزمون بالاعتراف بأن فكر بورديو لا يتوقف عن توليد محاورين مثل سيرلSearle وهابرماس Habermas وتايلورTaylor وبوفريسBouveresse... يجب الاعتراف بأن بورديو يقرؤه الفلاسفة بشكل متزايد

كفيلسوف[1]. علينا بالابتعاد عن تلك الاعتراضات البدائية كما تلك المبنية على صراعات الحدود: انتقاد بورديو على "حتميته" ليس عموما إلا موقفا عقائديا شيئا ما للتعبير عن ضغينة قديمة للفلسفة تجاه كل العلوم الاجتماعية التي حطمت هرمية المواضيع وتجاهل لحرية المفكر.(وما عسى يكون النقد إذا جاء على لسان عالِم اجتماع؟ هل حقا هو زميل يتكلم أم فيلسوف مكبوت بقناع؟). وتعتمد اعتراضات أخرى على ما سمع وقيل، ولو في وسط "المضطلعين"، تؤدي إلى الاكتفاء بشعارات تقريبية ومصادر حكم قاطعة محاكية صدى الإشاعات "الثقافية" الذي لا يتحكم فيه.

والجهل الذي عبرت عنه كثير من الانتقادات ناتج أولا عن التعامي عن أحد أهم تعاليم أبحاث بورديو. فهذه البحوث كان عليها أن تتأسس وتتوطد على جبهتين تهددان استقلال العمل العلمي: السلطة الأكاديمية المضمون مؤسساتيا وسلطة وسائل الإعلام المتلكتين بالاثنين لوسائل خاصة لفرض تعريف للإشكاليات الشرعية والمشروعة وتنقل لقرائها على الأقل (وأكثر مما يبدو ظاهرا) أخلاقية لقراءة للنصوص الاجتماعية. فقارئ متنبه فطن هو الذي سيكون قادرا على تطبيق عدد من المفاهيم والمبادئ خصوصا في قراءة الكتاب المعاصرين: وعلي أولا التساؤل في أي مقدار لا تفسر ردود الفعل العفوية تلك، الرافضة أو المتفقة، قبل كل شيء بأصناف فكر أستمدها من مسيرتي الاجتماعية والثقافية أو من تخصصي أو أيضا من موقفي ووضعي الجامعي وربما تفسر بكل ذلك في نفس الوقت..... وأتساءل زيادة في أي مدى مثل تلك المواقف الغريبة بخصوص كاتب متفرد لا تغطي ولا تكبت مجموعة أخرى من المواقف الضمنية حول المعارف العلمية ودور المثقفين والنظام الاجتماعي؛ وأتساءل أيضا عما إذا كانت لغة النقد الفكري ليست شكلا ملطفا يسمح بإصباغ تعبير شرعي على عواطف حماسية إنسانية بل وغارقة في إنسانيتها، وكذلك

---

(1) عدد خاص عن بورديو. *Critique*, n° 579-580, 1995, 548.

الحسد والاستياء الأكاديمي الذي يدفع للشك في نجاحات خيالية (إعلامية)[1] خلف تضخيم الاعتراف الفكري وغير لائق وضد الخصال الجامعية من ابتعاد عن الأضواء والسترة واقتصاد في التبادلات بين الزملاء... يكفي حسب ما أعتقد تطبيق هذه المبادئ بوضوح لتقويض جزء كبير من هذه الأسئلة التي هي في جزء كبير عوض أن تغذي النقاش العلمي تغدو عقبة أمامه.

عمق المشكلة التي تطرحها إمكانية نقاش حول عمل علمي هي مشكلة معرفة كيف يمكن النقد. التذكير بالاختلافات بين الحجج المقبولة والمركزية زيادة على القضايا المقبولة ولكنها ثانوية والنقاشات الجدلية التعيسة هو ببساطة العودة إلى أخلاقيات النقاش. وهذه لازمة ولكنه عموما من يطالب بذلك وينادي بذلك يكتفي بمبادئ فلسفية كبيرة التجريد تحت غطاء الديمقراطية والعقل والتبادل. وحول هذه النقطة أيضا فإن أعمال بورديو تمنح بلا شك وسائل جد نافعة لأنها تنجح في توحيد التقاليد الثقافية التي كانت لحد الآن منفصلة: التقليد الإبستيمولوجي التاريخي للعلوم، على الطريقة الفرنسية، وتقليد علم الاجتماع (الماركسي والفيبيري) لعلاقات القوة بين المجموعات التي لها مصالح متعارضة، ومن ذلك يدفعنا عمله إلى الانتباه واعتبار على قدم المساواة الجدل حول العقل العلمي والشروط الاجتماعية للإمكانية وللاستغلال.

وللتعبير أيضا بالإيجاز الممكن، يمكننا القول بأن معايير تقييم عمل علمي تحيل لما يسميه باشلارBachelard رسميا "بالفعل المعرفي". هذا الفعل الذي لا يختزل فحسب إلى النتائج المعروضة في طرق التشكيل والبناء المعياري للعمل العلمي، ويتمثل في مجموع العمليات التصورية أو الوسائلية التي ينجزها الباحث بغية تحرير حيز مدرك ومتصور للمسائل.... طرق كهندسة حركة عند جاليلو أو أفكار مثل الوسط الداخلي عند كلود

---

[1] ربما كان مجديا كتابة لائحة مثل وسائل إعلام وتقليعات وسلطة التي توظف كسلاح لوسم تقريبا أي منافس في غيبة عن أي انشغال بالبرهان والتدليل.

بيرنارد C. Bernard؛ وهي بذاتها مولدة لعديد من الفرضيات والعمليات التجريبية وهي أمثلة تقليدية: وما هو موضوع المسألة هو شيء من قبيل آليات عامة أو مثل علم منظمات.

وبخلاف الهاوي الذي يهتم إما بالنتائج لأنها قابلة للتبديل ماليا وللاستعمال مباشرة وإما بالأفكار لأنها موضوع إعجاب أو دهشة، فإن الحكم المؤهل والعادل سيكون من يستطيع الحكم بعدل على قيمة العمل المنجز. وفعلا يجب التذكير بالفرق بين الأبواب المفتوحة للعلمية، المفعلة أو المحاكية، مع الأفكار المصححة للممارسة العلمية. لا توجد معرفة بلا تشكيك في رصيد سابق الوجود من المعتقدات: وبالتعارض مع الحقائق الثابتة بلا تباين ولا تاريخ، ما يعلمنا نص دقيق هو أولا التشكيك في معتقدنا المسبق[1]. وإننا بعد ذلك في علوم الطبيعيات كما في علوم الإنسان لمدفوعون على الأقل للتساؤل حول طبيعة وكثافة الحواجز التي يتوجب اجتيازها والتي (وهل يجب التذكير بها؟) لا تختلط ضرورة مع ما تنقله الحكايات الأسطورية. إلا أنه إذا لم تكن الحواجز واضحة جلية دائما وقابلة سلفا للترميز وللتشفير فإنه يوجد على الأقل في علم الاجتماع تجربة نسبيا متراكمة للأبحاث بفضلها يعلم ويتعلم الباحث مثلا الحذر من التصنيفات 'الأهلية' المضمونة مؤسساتيا أم لا، والتساؤل حول شروط إنتاج خطاب وحول حالة استجواب. العلمية تكمن في ابتكار موضوع جديد، موضوع مبني، يمنح طريقة جديدة للرؤية وللنظر ومساءلة مجموعة منهجيا محددة من الظواهر. طريقة للقطيعة مع المفاهيم الجارية والمألوفة خصوصا القوية عندما يتعلق الأمر بالعالم الاجتماعي وإبراز كل البعد الموجود بين التصور والإدراك العلمي للأبحاث عند

(1) يمكن أن نقول بأن فضل وجدارة بحث تعاين حسب أهليته للخضوع لفحص مشترك، بواسطة مبادئ تدرك وتفهم على مستوى قانون ممكن أن يصبح شاملا إذا لم يكن شموليا. وهذا لا علاقة له بالمهارات الوراثية للمتخصص والتي لا دور لها إلا الإدعاء بتشريع في حقل متملك ضمنيا بواسطة السلطات الحاكمة ومختلف بيروقراطيات الأبحاث، والتي لا مهارة لها إلا ما يتمثل في تتبع أخطاء (تواريخ وأرقام..)، وهي حصرا النقائص الوحيدة التي يمكن لها رؤيتها. وأمام منافسين أقل أو أكثر قربا الذي قرأت نصوصهم بسرعة وغلطا من السهل حسب الحالات تصنع وجه عبوس أمام نتائج اعتبرت هزيلة أو تافهة أو بالعكس شكر وتمجيد أصالة الأفكار (وعكسيا).

الزملاء والتصور العامي للكتبة والصحافيين المثقفين ومدراء البحث: ففي حين يبحث التصور الأول لفهم في خصوصياتها متن الفرضيات المستعملة والمترتبة عن هذا العمل، يمكن أن لا يرى التصور الثاني في ذلك إلا مجموعة "أفكار جيدة" وهو ما يعرضه بلا مفر للخيبة والسخرية من قشور العلم. وبخلاف "الفكرة الجيدة" التي تفك حروف الحقيقة وتقرؤه أحيانا بطريقة مبتكرة، الفرضية وهي مرحلة في عمل لتعميم نظري تميل لتكثيف جدلية النظرية والتجربة. وما أبعدها عن وجود معزول، هي تحوي مجموعة مقترحات متماسكة قابلة للتجريب ليس على مجال وحيد للحقيقة بل على نفس عائلة مواضيع منجزة وقابلة للتحديد بنفس مجموعة الخصوصيات الهيكلية. وحين يعين العلم المواضيع فهو يتحدث دائما عن أشياء أخرى، يتحدث عن علاقات مع علاوة على ذلك تشجيع صياغة إشكالية الحدود وشروط التنقل بين مجالات الواقع. وتتم المقارنات دائما حسب منهجية وتدفع المنهجية دائما للمقارنة. إن الفرضية هي مرحلة من مسار برهنة: وكما أن لا شيء يضمن تناسق الواجهة النظرية والواجهة التجريبية للخطاب العلمي فإن ملاءمتهما وضبطهما هو مسار شاق دائما وغير مكتمل ويستدعي عملا نقديا حول جمع المعطيات وبناء متغيرات وتطوير مؤشرات وشروط التقصي الميداني...

يمكننا القول بكلمة بأن عملا علميا يختص برهانات نظرية، وربما النظرية ما هي سوى ممارسة منتظمة لمسؤولية فكرية: ويتعلق الأمر بمعرفة ما نفعله فعليا حينما نقول ماذا نحن فاعلونه. وهو ما يترتب عنه ليس تطوير أنظمة أو مناول بقدر ما هو تحكم، من بين أشياء أخرى، "بالعلاقة مع الموضوع" و بالفرضيات المصطلحية وبمنهجية مطبقة في سياق معين وبنتائج طريقة بناء الموضوع في مجالات أخرى أو بالنسبة لعلم الاجتماع عموما. وإذا فهمت النظرية بهذا المعنى فإنها تغدو لا تمتلك شيئا مما نضعه تحت هذا المسمى عموما، يعني مجموعة اعتبارات مجردة أخذت خارج أي سياق وخارج أي استعمال ومواتية لنقاشات رفيعة وقليلة النفع. هذه الرؤية الطاغية للنظرية التي تسعد تقريبا الجميع - لأسباب جلية- ولكنها لا

تشجع أي تقدم في المعارف وتمنع من رؤية بأن النظرية لا يحكم عليها من خلال الفرضيات البدائية ولكن أولوية باختبار في ممارسة البحث نفسه.

وهكذا لكي نكون عادلين مع البحث في العلوم الاجتماعية، لا يتعلق الأمر بمعاينة فقط اتفاقه مع قواعد الفن، يعني في أغلب الحالات مع مجموعة طرق معيارية مطبقة على مواضيع معيارية، بل يجب عوض ذلك اعتبار المعايير الناتجة والمترتبة عن خصوصية أساسا نظرية، لكل المعارف العلمية. معيار جدلي: ما الذي يجعل صعبا علينا تملك وجهة نظر جديدة، قليلة الاحتمال، التي اقترحت علينا؟ معيار اقتصادي: ما الذي يعطي لوجهة النظر هذه مردودية عالية من خلال التوسعات (تعميم ومقارنة) التي تشجعها أو الأسئلة التي تولدها؟ يكفي تعيين معايير (وتوجد بلا شك معايير أخرى) لرؤية أن واقع أخذ موقع على المستوى النظري خاصة، هو ناذر، لأن أغلب التبادلات والمعايير تتم على مستوى آخر (منهجي ونقاشات "عالمة"...).

الظروف أحيانا المؤسفة لتقبل واستقبال أعمال بورديو في فرنسا، تعزز مقاصد نيتي في كتابة هذا الكتاب دون تغيير توجهه العام. ولا يتعلق الأمر بمرافعة دفاع ولا برد (عشيرة أو شلة[1]) ولكنها دعوة لتقييم عطاء عمل مهم، وبالتالي رسم محيط ما يمكن أن يكون نقاشا منيرا حوله. وأعتقد بأنني قد أنجزت هذا المشروع إذا توصلت إلى نقل طريقة الاستعمال أو أحسن طريقة لاستعمال وسائل ومخططات العمل التي يتضمنها عمل بورديو.

---

(1) التف حول بورديو باحثون شاركوه على الأقل في مرحلة من مسيرتهم العلمية. النظرة المخابراتية أو الصحافية التي ترى دوما مؤامرة، تتكلم عنها بعض المقالات التي لا تحب علم الاجتماع وبعض المراسلين الذين ينسون التحري بدقة، لا تعطي صورة أمينة عن منطق العمل العلمي. المبني مبدئيا ورغم العقبات من كل نوع على التبادل والنقد والتقدير المتبادل. إن المصالح والترقيات المهنية شجعت البحث على رهانات ومؤامرات أخرى وعلى أية تفضيل حماية مدراء بحث آخرين. يبقى هذه النقطة المهمة مبدئيا: النتائج العلمية لروابط التقارب الثقافي هذه هي عمومية مشهورة ومنشورة يعني تحت تصرف من يريد الحكم عليها من الجمهور.

وربما فهم أنني، نظرا لمقاصدي، لم تكن المسألة تقديم بطريقة مدرسية أو تعليمية لعرض كامل لأعمال بورديو وتبعاتها وامتداداتها في مختلف المجالات. وعموما فإن الحديث على عمل مثل هذا لهو حقا مغامرة صعبة لأنه زيادة إلى مخاطر التبسيط يضاف خطر متستر لا يرى وهو أن نقدمها على صورة لا زمنية ولا واقعية لفكر عالِم خصص للتأمل. غير أنه، وأقل من أي تخصص آخر، علم الاجتماع لا يمكن أن يبين بنفسه ميلاده ومنبعه وأثاره بكيفية فكروية. إذ لا يمكنه تجاهل انتمائه إلى العالم الاجتماعي ويعرض كمشكلة معرفة غير منفصلة أبدا عن الممارسة والمهمات العملية الناتجة عن هذا الانتماء. ولذلك عوض تناول بعجالة كبيرة بعض القضايا فضلت اختيار عدد من النقاط الحاسمة في نظري: طبيعة المعارف النظرية وشروطها ونتائجها الاجتماعية.

الفصل الأول يحاول وضع بروديو في السياق الثقافي لسنوات الخمسينات والستينات والذي لعب دورا مهما في تكوين مشروعه الاجتماعي: هو تاريخ يجب أن يسمح في هذه الحالة بتجاوز عدد من القضايا غير المفهومة خصوصا تلك التي تخلق مواجهات خيالية مع تقاليد مدرسية أو كتاب يوحي بهم جو المرحلة. وإذا كانت نظرية الممارسة ولدتها أو حضرتها حالة الحقل الفلسفي في فرنسا، يبقى مع ذلك أن العمل الميداني في الأجناسية وعلم الاجتماع أدى ببورديو إلى صياغة المشاكل في حقل جديد. وفي الفصل الثاني نطرح مسألة شجرة الوراثة، ما الذي هيأ الفيلسوف الذي انتقل إلى العلوم الاجتماعية ليعارض من الداخل العقل العالم؟ والفصول 3 و4 تقدم الآليات النظرية الأساسية. وأحد الفصول يتخذ من الأدب كدراسة حالة في كنف تصور وحيد أحادي لعلم الاجتماع محاولا إبراز هذه الوسائل من خلال استعمالها الملموس. والآخر يقترح عودة إلى انعكاسية حول ممارسة المنظر باحثا لوضع بناء في أي مقدار وفي أي اتجاه يمكننا القول بأنه توجد نظرية عند كاتب شديد الحذر علاوة على ذلك حذر من كل تجريد نظري غالط للتجريبية والوضعية. أما الفصل الخامس فهو مخصص للأناسة ولتغير الوضع الذي شهدته مرورا من حالة مضمنة إلى حالة

صريحة: كما يجب الاعتراف دون تجاوز حدود المنطق العلمي بأن نظرية الممارسة تحوي بالتأكيد خطابا أعم وأقوى حول الإنسان من شاكلة الذي يقول به الفلاسفة. وتتبوأ في هذه الأناسة فكرة الرأسمال الرمزي مكانة مركزية. وأخيرا يتناول الفصل السادس مسألة بورديو والسياسة. ولكن لا يتعلق الأمر بتعداد المواقف ولا بتعليل جدارتها حالة بحالة. الموضوع مختلف: هو إبراز على مستوى المبادئ توافق متطلبات الاستقلالية العلمية مع نظرة سياسية عميقة للعالم الاجتماعي. ومن الممكن البحث لانتقاد التمثيلات الطاغية مع توضيح في ظرفية معينة للوسائل الواقعية لتقدم الكوني.

الفصل الأول

الموروث الفكري

لتطبيق على بورديو المبادئ التي اقترحها بنفسه للحديث عن كاتب، يجب، بلا شك، البدء بإعادة بناء فضاء الإمكانيات والتي في كنفه يمكن أن يفهم تكوين "مشروع فكري"، وابتكار موقف خاص في الحقل واتخاذ المواقف النظرية وإذا المواقف الأخلاقية والسياسية التي ترتبط به. ورغم المظاهر فهذه الطريقة تختلف بشكل ملموس عن تلك المتبعة عادة في التاريخ والفلسفة وتاريخ الأفكار لتحديد ميراث كاتب مقارنة مع سابقيه. أولا بالمنهجية: لا يتعلق الأمر بتفضيل فقط مزاعم كاتب ومنحه أنسابا واختيارات أصيلة وتطورات ووعيا يدعيها؛ ونعرف جيدا (ولو أننا لا نفعل شيئا بهذه المعرفة) بأن الخطاب حول الأصول يستحق دائما أن يفهم حسب متطلبات وضرورات الموقع الحالي. ثم بعده في عمقها: إذ يجب أن يتفادى وصف ويتحرر من الأصناف "العلمية" التي يميل إلى استعمالها بعفوية المؤول أو الملاحظ إلى، والتشكيك فيها جذريا. وفي غيبة عن التوقف من خلال تشكيك جذري عن استعمال تلك الأصناف التي يعترف فيها على مهارة "علمية" فإننا سنسجن في تذبذب بين من جهة، مستوى الفكروية المنظرة التي تستوطن أفق الأفكار الخامة الخالصة وطهارتها، ومن جهة ثانية، مستوى ألفة أهلية التي تسمح بالبحث واستعمال العمق المشترك للمسلمات المتقاسمة وتعبئة معالم مؤكدة لا تحتاج إلى توضيح (الماركسية والكانطية والوجودية...). وما أبعد حيز الممكن من أن يكون شفافا إذ أنه يستدعي موضعته وتشييئه: ويجب أن نتحرر من النظرات الأهلية وذلك ليس فحسب لأنها جزئية وغير محايدة بل ولكونها تحول وتبعد عن مساءلة الفرضيات الخا نظرية للمواقف النظرية. وضد هذه المحاولات الفكروية يجب التذكير بأن الفاعلين يستعملون، بفضل حسهم الأهلي في التوجه، مجموعة مفاهيم وقضايا تندرج

تحت في التصنيفات والهرميات غير المعزولة فكريا واجتماعيا. سارتر وماركس ونتيشيه أو كانط بل وأيضا دوركهايم وفيبير أسماء تعني مذاهب محددة باستعمالها ومستعمليها في حلقة دائرة قراءات، وتعليقات وأيضا مسارات علمية مهنية التي يتعرف فيها على فاعلين حسب الخصوصيات الاجتماعية المشروطة والتي هم مالكوها. الموروث لا يعمل إلا على ورثة مستعدين لتملكه، وإذا يقصى الممكن الآخر.

أقطاب الإنتاج الفلسفي

خلال الخمسينات كان الحقل الفلسفي موسوما بسيطرة الوجودية. والرأي المسيطر على الحقل يفرض حاجزا بين الفلسفة الجديدة المبنية على الوجود وأغلب المذاهب الأخرى الموسومة بدرجات متفاوتة بأحكام مسبقة فكروية وبحب التجريد وتشييئ التجربة. غير أن الفلاسفة الشباب من جيل ما بعد الحرب العالمية المغذى بالثقافة الوجودية والظاهراتية بدأ يتزايد شعوره بأنه غير سعيد في هذا الإطار واكتشف بعضهم تقليدا آخر ألا وهو الثقافة العقلانية والتاريخية. هذا التقليد الذي كان طاغيا ومسيطرا على الأقل حتى العشرينات أزاحه صعود أسلوب جديد فلسفي أقل انشغالا بالقضايا المعرفية منه بفهم التجربة. يمكن أن نغرى برؤية في تناوب الأمزجة الفلسفية هذا التشكل الذي تأخذه علاقات القوى بين المواقف الثابتة نسبيا في الحقل الفلسفي. وليس غريبا أن يميل ميشال فوكو لذكر "خط فاصل"، "خط يفصل بين فلسفة التجربة والمعنى والفاعل عن فلسفة معرفة وعقلانية ومفهوم". من جهة مسلك هو فلسفة سارتر وميرلو بونتي Merleau-Ponty ومن جهة أخرى فلسفة كافاييسCavailles وباشلار وكويريKoyré وجونجيومCanguilhem . وبلا شك فإن هذا الفاصل متأصل من قديم وقد تعود آثاره إلى القرن التاسع عشر إلى برجسون Bergson وبوانكاريPoincaré ولاشولييLachelier وكوتيراCouturat ومابن دو بريانMaine de Biran وكونت....ومهما كانت، فيما بعد، الارتباطات والتداخلات

وحتى التقاربات هذان الشكلان من الفكر فقد شكلا في فرنسا قاطرتين بقيتا خلال فترة على الأقل غير متجانستين.

فلسفة المعرفة والعقلانية والمفهوم كان لها ممثلون بين مؤرخي العلوم (والمعرفيين) الذين تبعا goùأوجوست كونت[1] فضلوا عموما طريق التقصي التاريخي والصورية والمنطقية لتركيب صاف وطريق التعالي الذي جسده هيسيرل Husserl . وبالنسبة للكثيرين فقد تم الأمر وكأن الإطار النظري للكانطية خصوصا نظرية الأصناف والمخططات يمكن أن تحقق توافقا مع ضرورات العلم في فعله: أي في الإنتاج الفعلي لفكر علمي محدد بخصوصية انفتاح يتوجب علينا أن نحاول اكتشاف شروط إمكانية المعرفة الموضوعية.

إن الفكرة بأن العقلانية تبنى في التاريخ[2] كانت على الأقل منذ آخر القرن التاسع عشر متفقا عموما عليها: لغة "بنائية" تهم ليس فحسب "النظرية" بل وأيضا المعطيات المعاينة الأكثر بدائية، أو بالضبط المتواجدة فيما بين فترتين، "الموضوع"، و"الموضوع المنجز" كنتاج مسار تشييء يجعل ممكنا أفق مشاكل وفرضيات وتحقق. ومن ليون برونشفيك Brunschvicg إلى كفاليس[3] نظر إلى الرياضيات نفسها دائما كنتاج غير منته للأشياء الخاصة غير المختزلة إلى أساس سواء منطقي أو حدسي. ونحو الخمسينات كانت مصطلحية بناء الموضوع مركزية في النقاشات النظرية منذ مدة والمشروع الفلسفي لمعرفة جذرية بلا مسبقات أصبح مهجورا وبل وغير مؤهل[4]: إن المعطى الذي يريد الفلاسفة الانطلاق منه لم يعد يبدو إلا كوهم ولدته تعميم شكل خاص من التجربة. وهكذا فإن اعتبار التاريخ لم ينتج عنه نظرة تاريخانية بل

---

(1) لمعرفة المزيد عن العلوم عند كونت عد إلى:
J. Heilbron, *The Rise of Social Theory*, Polity Press ,Cambridge, Oxford, 1995

(2) ربما كان ذلك راجعا لقدم الموضوع في فرنسا لتتملك نوعا من الحصافة والهدوء أمام مشكل النسبية وبعض الاستفزازات النسبية التي أخذت مأخذ جد وأحيانا بشكل مأساوي عند الكتاب التابعين لتقاليد مختلفة.

(3) Hourya Sinaceur, Jean Cavaillès , *Philosophe mathématique*, Paris, PUF, 1994, p. 92.

(4) قد يرد على حق بأن هذه الاتجاهات لم تقوض قوة صمود الأفكار المرتبطة بشرف الفلسفة. مع ما يسمها من حب للأقصى والأساسي....

وجد نفسه على العكس مرتبط بضرورة عقلانية: القيام بتأريخ علم هو وصف الحركة المستقلة التي من خلالها تتولد المواضيع الجديدة وبل زيادة وسائل البرهنة التي وإن لم تؤسس هذه الأخيرة بالمعنى الفلسفي التقليدي فهي تقطعها وتفصلها عن العرضية والاعتباطية.

جاستون باشلار (1884-1962) الذي قد يكون قد شجع ودفع إلى سلاح الجدل في ظرفية غير مناسبة، ظرفية يسيطر عليها أسلوب فلسفة وجودية يثير الشفقة، ينتقد بالخصوص الفلاسفة لجهلهم بالوضع الفكري للعمل (باستعمال لفظ مركزي في نصوصه)، وهو ما يؤدي بهم إلى الاكتفاء بصورة فقيرة عن العلم وعن المفاهيم الممتلكة لخصوصية مفرطة في العموميات والتجريد، وأخيرا أمثلة التي لا تستغل إلا للحصول على صور بلاغية لتطويرات هي مدخلا خارجة عن أي تساؤل و"العلم بحسبه لا يمتلك الفلسفة التي يستحقها"[1]. والفلاسفة ولأنهم "يرغبون في تأسيس نهائي"[2] يميلون للاكتفاء بفلسفة تلخيص[3] وفلسفة فلسفة[4]: أفكار بسيطة وبدائية (من شاكلة المادة والجوهر والكتلة والطاقة...) التي ينطلقون منها للوصول إلى مسلمة من رتبة عليا ترتكز على جهل بالعمل الملموس لإنتاج المعارف مع ما يترتب عنه من غلط وإعادة صياغة وتصويب وتعقيد.

وضد التقليد الفلسفي الجامعي، يدعو باشلار إلى معالجة المفاهيم كوسائل تاريخية وليس كجواهر لا زمنية، وبالتالي إعطاءها معنى مؤقت وبالخصوص نسبي مشروط بطرق التشييء بما في ذلك في جانبها الأكثر تقنية. وإذا كان حقا بأن المنهجية تحدد الكائنات[5] فيجيب ضمان تعددية معرفية التي تعترف بخصوصية انفتاح الأفكار ولو التي هي غالية عند

---

(1) جاستون باشلار، المادية العقلانية، باريس 153، ص. 20. (إذا لم يدر اسم المترجم في الهامش فالمعتمد هو النص الفرنسي وترجمتنا له)

(2) ن.من ص.8

(3) باشلار، الفلسفة التطبيقية/ 1949، ص 9. (إذا لم يدر اسم المترجم في الهامش فالمعتمد هو النص الفرنسي وترجمتنا له)

(4) باشلار فلسفة الرفض، رسالة في فلسفة الروح العلمية الجديدة، الطبعة الفرنسية، م1، 1940، ص.55 . (إذا لم يدر اسم المترجم في الهامش فالمعتمد هو النص الفرنسي وترجمتنا له)

(5) ن م.، 35.

الوجوديين والتي عرفت بأكثرها بدائية. ملاحظا تنوع أنماط وكيفيات المعرفة التي تتعلق بالوحدات المفصولة بينها بتاريخ خاص مثل الإليكترون والنواة والذرة والجزئية ... يصرح باشلار مستهدفا صراحة فلاسفة الوجود: "من وجهة نظرنا كل شيء ليس واقعيا حقيقة بنفس الطريقة، والجوهر ليس له في كل المستويات نفس الترابط والاتساق؛ الوجود ليس وظيفة رتيبة: لا يمكنها التحقق أنى كان وبنفس الزخم"[1]. التعارض الفلسفي بين الحقيقة والمظهر ثبت فقره في تفسير مسار التشييء العلمي التي ما انفك يعوض المجرد بالملموس، والمثالية بالعلاقات الرياضية المفهومة لواقعية الجواهر المحسوسة. رفض التنازل للبدائل النظرية للتقليد، عقلانية وتجريبية ومادية ومثالية وواقعية وأسمائية هذه الأزواج المعرفية التي تستعمل كمعالم لازمة ولا جدل فيها بالمعنى الفلسفي للاتجاه، تؤدي إلى موقف نشيط لتوازن يطالب وبالضغط والحركة: فعل المعرفة هو جدلية دوما غير منتهية بين النظرية والتجربة، بين البناء والبرهنة، بين المسبق والمؤخر (الما قبل والما بعد)[2].

وينتج عن ذلك مشروع فلسفي هو مشروع معرفية تاريخية يمتلك بعض السمات المشهودة: التأكيد على العمل "الجدالي" للمعرفة الموضوعية التي تقوم بنقد فعليا للحواجز المعرفية؛ أسبقية تحليلات الخصوصية التاريخية، وربط بعلاقة المبادئ النظرية مع الجهاز التجريبي (عقلانية مطبقة). وإذا كان صحيحا بأن هذا الموقف المعرفي نجده، مع بعض الفروق، عند عدة كتاب فهو بالخصوص حاضر عند جاستون باشلار (مع كافاليس) الذي لم يفتر من التصريح بالخصوصية وأساسا التاريخية لمواضيع العلم والتي مال بقدر ما إلى ممارسة

---

(1) ن.م.، 54. مبدأ إستراتيجيات باشلار ضد الفلاسفة (المتملكين الشرعية الفلسفية في اللحظة) تمثلت في أخذ كلامهم حرفيا وفحص الأبعاد الثقافية المضمنة في مفاهيمهم.

(2) "يجب مراقبة المسبقات العقلانية وإعطائها وزنها الحقيقي المؤخر" فلسفة الرفض، م س.، 42. يستعمل عمدا صيغا مفارقة وهرطقية يظهر باشلار بطريقة كلها تنبؤ بقصور الأصناف الفلسفية على الأقل في استعمالها التقليدي.

تاريخ متقطع إلى حد ما، مفضلا اللحظات الرسمية (ليـون برونـشفيج[1]) للقطيعـة الثوريـة وإعادة تنظيم المعرفة.

موروث المؤول بحرية والذي استعملته الكانطية كان مشتركا إلى حد مـا بـين فلـسفة العلوم و علوم الإنسان التي منذ دوركهايم[2] لم تتوقف في طرح الـسؤال عـن المـسبق: علـم الاجتماع ليس فحسب يضع في المقدمة أهمية بناء الموضوع في النـشاط العلمـي بـل ويتخـذ كبرنامجه تحليلا تجريبيا على أرض الواقـع للبنـاء الاجتمـاعي للحقيقـة والواقـع مـن خـلال الأصناف وأنماط التصنيف. من دوركهايم إلى لفي ستراوش مرورا بمـوس هـو علـم أساسـا إيجابي يلقي على النتاج الغرائبي للأسطورة والطقـوس تـساؤلا نظريـا حـول قـضية شـروط إمكان المعرفة. ولكن من المشهود به بأن هذه النظرية الاجتماعية للمعرفة رغـم أنهـا متولـدة عن الفلـسفة لم يـدركها ويفهمـا الفلاسـفة المعاصـرون إلا غلطـا أو بـالأحرى عـبر منعـرج الأجناسية وهو علم يراكم إيجابية عـدم تعرضـه لـرفض آخـر ممثلـي الدوركهايميـة الجامعيـة وإيجابية ضمان بُعد مـشرِّف للموضـوع. وبـلا شـك بـأنههم في عمقهـم يرفـضون المـشروع الدوركهايمي لعلم الإنسان محاولين إعادة التفكير في المواضيع التقليدية للفلسفة.

في خطوطه العريضة هذه الجهاز الحجاجي للفلاسفة أحـدث مبكـرا زمـن كـان فيـه يتكون علم الاجتماع كعلم جامعي وعلمي. في ظرفية فكرية أكثر ملائمة من اليـوم للتبـادل بين التخصصات وحيث أن عددا من الفلاسـفة العقلانـيين كـانوا يـشكون مثـل دوركهـايم بالنفع الفكري لامتحان مادة الفلـسفة وفـضائل امتحـان التبريـز[3]، ووجـه فلاسـفة بعـض الانتقـادات وجهـت لـدوركهايم مثـل ليـون برونـشفيك وجيـل لاشـوليي وفريـديريك

---

(1) ذكرته سي ناصر م.س.، 21.

(2) حول الكبح الجماعي لدروكهايم، عد إلى بورديو وباسرون في

'Sociology and Philosophy in France since 1945/ Death and Resurrection of a philosophy whithout Subjecté', *Social Research*, vol. 34, n° 1, 1967, 162-212.

(3) اختبار الفلسفة والتبريز، المقصود امتحانات في فرنسا لاختيار بين المرشحين لمناصب التعليم

روثRauth وغيرهم والذين نسجل بسرعة بأنهم لا يصلون حد التشكيك في انتمائه الفلسفي ذاته الذي يبدو أنه مسلم به. ومحل الصراع الأخير كان إمكانية علم للعالَم الاجتماعي نفسه. على مستوى معرفي حصرا. ونقد الفلاسفة كان يستهدف تأكيد التخلف ربما في الوسائل لعلم الاجتماع الذي يتخبط في الحدس مقارنة مع علوم الطبيعة التي وصلت إلى درجة عالية من الريضنة. وفي الواقع فإن أغلب الانتقادات كانت تدور حول خصوصية المعرفة الاجتماعية: ويبدو أن الفلاسفة لا يفهمون جيدا كيف يمكن الوصول إلى الوقائع الاجتماعية دون المرور عبر الوعي الفردي وبالتالي علم النفس ذلك التخصص الذي يمتلك وظيفة جَدوَلَة لعلوم الإنسان؛ وكانوا يرون بإنشاء حيز من جهة للمعنى المعاش وللزمن الموجه نحو المستقبل وللحرية ومن جهة أخرى للخلق وللتغيير. وأخيرا تبعا للفلاسفة فإن حدود علم الاجتماع كانت واضحة بفضل بعض المواضيع سميت برفيعة ونبيلة، افترض أنها نجت من خشونة وسائل علم الاجتماع، أخلاقية الأبطال والعباقرة والديانات العالية. وأمام الفردية الحرة فإن التخصص الجديد كان يهدد بتعويضها بصنم وأقنوم ألا وهو "الجماعي" (المجموعة) "الوعي الجماعي" مع نتيجة حسب بروشفيك العودة بنا إلى مجالات سياسية وتنظيمية المفكرين المحافظين (بونالد Bonald). وكما نرى كان علم الاجتماع موضع رفض عند الفلاسفة وليس بالضرورة عن سوء نية وخبث ولكن بالتأكيد عن فهم أقل ميلا للانعكاسية والحتمية والمادية والوقائع الإحصائية البدائية، والمتوسط[1]. وبلا شك كانوا يدركون بغموض متفاوت بأن هذا التخصص الذي يفرض نظاما من الوقائع لا تختزل إلى التحليل الداخلي للأفكار للا زمنية هو تخصص يخرج عن سيطرة الفلسفة.

---

(1) حول دوركهايم ومحاوريه الفلاسفة راجع:

L. Pinto, "Le détail et la nuance. La sociologie durkheimienne vue par les philosophes dans la Revue métaphysique et de la morale (1893-1899)", *Revue de métaphysique et de morale*, 1-2, 1993, et "Conscience et société. Le Dieu de Jules Lachelier et la sociologie durkheimienne", *Revue Corpus*, 24-25, 1994.

وإن كانت سمعته الفكرية كبيرة فإن القطب العقلاني ظل مسيطرا عليه في الخمسينات. وأكثر الإنتاج الجامعي كان مخصصا إما لتاريخ الفلسفة وإما لما بعد الطبيعة ذات الصبغة الروحانية وكان ممثله الكبير برجسون، وعي قمة كانت بارزة حتى ذلك الوقت. في حقل جامعي الذي قد يبدو ثابتا منذ عقود التغيير الكبير الذي حصل كان استيراد الفلسفة الألمانية. وتحت هذا الشعار اجتمع كتاب مختلفون يشتركون في بعض السمات: أسلوب تقني وفئوي مقصور على نخبة عارفة في قطيعة مع الوضوح الفرنسي والإدعاء بالرجوع إلى ما بعد الحيل العقلانية الأكاديمية نحو حيز أصيل مبدع حيث ترى الأشياء نفسها[1].

بعد الحرب أصبحت أسماء هيجل وهيسيرل ولحد ما نتشيه وكيركجارد وهايدجير جد معروفة بفضل نشاط طليعة جامعية ممثلة في صورة مثل جون وال Wahl. وهكذا تكون قطب ظاهراتي وجودي يتميز سواء عن عقلانية أكاديمية أو ما بعد طبيعة على المنوال الفرنسي. هذا القطب كان أبعد من أن يكون متجانسا، وكان يمكن للكتاب الألمان ملأ وظائف مختلفة. وهكذا فهيجيل قد يستعمل إما بطريقة تقنية مغلقة لمنهجيته الجدلية ممثلة لمنطق فلسفة بالذات وإما بطريقة عامة لمساهمته في النقاشات حول التاريخ الذي أشعلها وغدها حضور ماركسية فلسفية: وفعلا أحد الرهانات البارزة للفلسفة كان إذاك مسألة الإنسانية (الإنسان هل هو أساس نظري أخلاقي ؟ وبأي مقدار يتحقق في التاريخ؟) أرضية نقاش بين الفلاسفة المسيحيين والملحدين. وكذلك هيسيرل يمكن أن يستشهد به في نفس الوقت كتاب يحاولون اعتبار الفلسفة كعلم صارم دقيق، وما بعد طبيعيون ومفكرون وجوديون الذي يتزودون منه بترسانة لازمة من الأفكار والوسائل (اختزال متعال، مقصدية، التخمين والمخمن فيه...). وتأثير هذا الكاتب كان مثلا على الفلاسفة الشباب وأول خطى فوكو وبورديو وديريدا كانت مستوحية منه ومتأثرة به. وعبر عن العلاقة مع الظاهراتية وإن

---

(1) حول استيراد الفلسفة الألمانية في الثلاثينات راجع بنتو في
Les neveux de Zarathoustra. La réception de Nietzsche en France, Paris, Le Seuil.

كان على شكل مغير بلغة مجردة، عند ميشال فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء، حفريات العلوم الإنسانية". سمحت الظاهراتية أولا من وضع حد لجهل فلسفي متعلق بعلوم الإنسان مع محاولة تجاوز مأزق الوضعية: فلا مضاربات بعيدة ولا تكرار للعلم، وطمحت إلى أن تكون خطابا مؤسسا ولكنه يحترم التجربة. وبلا حكم مسبق على المسائل الأنطولوجية النهائية تبدو هذه الفلسفة أنها تنادي بوضع لها كمنهجية مرنة ومفتوحة. وحول هذه النقطة بالضبط أظهر كاتب مثل ميشيل فوكو حيرته، بعد أن شارك بنفسه الاعتقاد في وعود الظاهراتية كما تشهد بذلك كتاباته الأولية. إذ هناك خطر في منهجية الظاهراتية هو عدم تجاوز التكرار الموضوعي للعلم إلا شكليا بواسطة تكرار تجريبية متعالية حيث يعرض نفس الشيء مرتين . وما أعطي في التجربة يوجد في نفس الوقت ببساطة معاد الكتابة في المتسوى الما فوق تجريبي لإعطاء المعنى، بشكل أن تخسر الفلسفة أخيرا على الواجهتين: التجريبية (فهي أقل غنى من العلوم) والتعالي (فهي أقل نقاء مما تدعيه).

وإلى حدود نهاية الخمسينات مثلت الوجودية مقرونة ببعض المفاهيم الظاهراتية قطبا مسيطرا في الحقل الفلسفي. ونقيضا للتقليد العقلاني كانت الوجودية قريبة من الأسلوب المدرسي لفن الجدل الذي تكلم عنه دوركهايم. ويبدو أنه لا يمنح أفقا آخر خصوصا على شكله الساتري الذي لم يعد يتحمله بصعوبة الشباب الجدد المبرزون إلا مقرونا بالذات وللذات والوجود والخوف والموت ... ولكن مهما كانت الانتقادات الموجهة للوجودية سيكون متعسفا اختزال الوجودية إلى بلاغة بحتة. وجنب المسائل الوجودية الاختيار والظرف والالتزام التي تشكل النقاط الأسهل فهما بالنسبة للقراء العاديين يمكننا التعرف بالخصوص عند هيدجير وميرلو بونتي على التساؤلات الأكثر تطلبا بغية تجاوز الصراع بين الموضوعية الفلسفية ومختلف نسخ الفلسفة الروحية الممزقة بين الفاعل والعالم: يتعلق الأمر بتحديد في موقع على مستوى وصفي سابق لمستوى النظرية الفلسفية أو العلمية بتعليق، بطريقة جذرية بالتشييء الفلسفي للفاعل كما للشيء المتولد من الفرضيات الفكرية

السائدة. ومسألة العلاقة السابقة لانعكاس مع عالم التجربة الساذجة، مع عالم الحياة حصلت على مكانة مركزية مثلا عند موريس ميرلو بوني (1908-1962). وبالنسبة لعديد من الفلاسفة الشباب في تلك المرحلة، كان ميرلو بونتي مرجعا مهما يتخذ حسب بورديو مكانة خاصة في كنف الفلسفة الفرنسية المعاصرة. ميرلو بونتي كان يرى الاعتماد على نتائج بعض التخصصات الإيجابية كعلم النفس وعلم الأحياء للبرهنة، ولكن مع تحاشي السقوط في الحيوية، المتاهات المسدودة حيث تؤدي السبل المضادة للفلسفة الفكروية لعلم النفس الطبيعي (خصوصا المستوحاة من السلوكية): وكلا السبيلين كانا يطرحان كمنبع لفظا (الروح والجسد) الذي لا معنى له في الحقيقة إلا مشتقا، لأنه يتتج عن عمل البناء والتجريد. وفيما بعد أصبغ على المشروع الفلسفي مهمة وصف نوعا ما إشكاليا إذا لم يكن مفارقا، إعادة البناء المنهجي للأصلي، أولا في الإدراك ثم في الكلام وكذا في الفن. ولكن ومهما كانت سمعة ميرلو بونتي فمشروع مثل مشروعه لم يكن إلا ليؤكد على متاهات النهج الفلسفي التقليدي. والتصور الذي حسب الفيلسوف كان يرى أنه يمنح وسيلة مفضلة لتجاوز بعض ألغاز الخطاب الفلسفي ظهر أنه مورد بلاغي غير قادر حقا على تقديم برنامج ملموس للبحث. وأخيرا ادعاء منزلة المفهوم الذي كانت تربط به كذبته بشكل جلي الخصوصية المحددة جيدا واللا تاريخية للتجارب المعتبرة[1].

بعد تسجيل التباين بين قطبي الفلسفة الفرنسية، من الجلي أنه وجد تبادل واقتراض بينهما. ليس إلا لأسباب سلبية، فالمواقف تميل للتقارب حول بعض النقاط، ويمكن ذكر ثلاث منها على الأقل. أولا إرث المثالية المتعالية يمكن أن يعاين في الطريقة التي أكدت بها

---

(1) الظاهراتية لا يمكنها ان تذهب لأبعد من وصف ما يسم خاصة التجربة المعاشة للعالَم الاجتماعي يعني مقاربة هذا العالم كمسلمة ومضمون بيار بروديو في الممارسة العملية باريس مينوي، 1980: 44. من هذه النظرة محاولة جاميس أوسترو لاستعمال الإطار النظري لميرلو بونتي كبديل لتحليلات بورديو لا تبدو بتاتا مقنعة، Ostrow, *Social Sensitivity: A Study of Habit and Experience*, New York, State University of New York Press, 1990.

ضد مختلف أشكال إغراء الموضوعية قيمة فكرة المسبق (أو معادله: معيار، قيمة، دلالة) معتبرة كشكل مكون يعطي معنى[1]. وإذا كانت أعمال إرنيست كسيرير Cassirer محل قراءات مؤيدة من الجانبين[2]، وذلك بلا شك لأنه كان ممكنا أن يعثر فيها على أناسة مؤسسة على الخصوصية المهيكلة لمختلف أنظمة المخططات وكذا على برنامج تحليلات تاريخية للثقافة. كاسيرير (1874-1945) هو فيلسوف ألماني من الكانطيين الجدد غزير التأليف وبالخصوص "لفلسفة الأشكال الرمزية" يشير إلى طريق أصيل يسمح بتوسيع إلى مجالات جديدة نوع التقصي الذي يمارسه مؤرخو العلوم في مجالهم. إن فكرة الشكل الرمزي تحتفظ وتخرب الكانطية وتعطي عمومية كبيرة للمسبق وفي نفس الوقت تسمح بمعالجته كموضوع تاريخي. هذا النهج بتوسيط الموروث الكانطي يتلاقى مع جزء من البرنامج الدوركهايمي لتأريخ الأصناف. ولكن هذا مع فرق غير بسيط وهو الإيمان بالملازمة الفلسفية ورفض علم اجتماع المعرفة.

ونقطة أخرى في التقارب بين القطبين: الأسبقية المولاة للممارسة، على أشكال مختلفة -تصرف كفاليس، فعل معرفي لباشلار، وعمل، وسلوك أو سيرة الظاهراتيين- والمولاة لاستعمالات بالطبع جد مختلفة إذا لم تكن متعارضة (فلسفة المفهوم/ فلسفة الفاعل) مقارنة مع محتوى المقولات المعتبرة لقيمتها الاسمية، باستعمال مصطلحية بورديو التالية. على التحليل أن يسير إلى ما هو أبعد من المواضيع الظاهرة الجلية نحو مبدأ بناء أو قانون إنتاج وهي الشرط لفهمها.

---

(1) من المهم العودة إلى نص لم ينشر لجورج كولجيليم "دروس حول المنهجية" الذي اطلع عليه بورديو لأنه أعيد نشره في كتابه مع شومبيرودون وباسرون، 1968، ص 336-339، مهنة عالم الاجتماع. عندنا هنا صورة واضحة للعلاقة الجماعية مع الموضوعية الجديدة التي سيطرت ما بين سنوات 1930 إلى 1970.

(2) كاسيرير من 1930 إلى 1950 كان له محاورون وقراء عدة فرنسيون من كل التخصصات ومن كل التوجهات، لسانيون وعلماء نفس وفلاسفة. ولكن فقط انطلاقا من سنوات الستينات بدأت أبحاثه تترجم بشكل ملموس. النصوص المهمة صدرت في مجموعة المعنى المشترك التي يديرها في دار مينوي بيار بورديو.

وأخيرا يمكن أن نسجل أن الفلاسفة ولو اختلفوا مثل باشلار وميرلو بونتي، يتقاسمون إلى حد ما شكلا حجاجيا يمكن أن نسميه اليوم كلي: ضد تجريبية يميل بالأحرى إلى تجزيئية الدلالة، فهم يميلون إلى اعتبار أن المفاهيم تشكل شبكة متفاوتة الترابط وأن المقولات لا يمكن أن تفهم وأن تجرب فرادى ولكن جمعا من خلال النظام النظري الذي تلفه. دور الفلسفة هو إعادة بناء الأنحاء والمنطق وأساليب التفكير والعمل التي تسمح من رؤية ترابط نظام دلالات.

فليس إذا عجيبا أن بعض الإنتاج حمل إمارة التأثير المزدوج الذي تعرض له، كما يمكن أن نلاحظه حول جورج كونجيليم (1904-1995). وهذا يمكن أن يعتبر كرمز مركزي في الحقل الفلسفي لسنوات الخمسينات والستينات في فرنسا[1]: كان يجمع مختلف الخصائص والسلطة الفكرية في ميدان المعرفية ولكن لم يكن أسير تخصص ضيق، ومسؤوليات مختلفة في المجال التربوي والمؤسساتي ...وأقل هامشية من باشلار أو كويري في كنف تخصص الفلسفي حامل لشواهد امتياز جامعية (المدرسة العليا للأساتذة، التبريز، أطروحة) كونجيليم جسد لعدة أجيال من الطلاب منوال ممارسة فكرية تجمع التفكير الفلسفي حول مسائل كبرى مع قرب من المعارف الإيجابية مثل علم الأحياء. فنحو هذا المجال تحول بعد أن حصل على تكوين في الطب. تاريخ العلوم الذي مارسه مع دعمه في العموم مبادئ المعرفية البنائية[2] التي استعملها آخرون، ولكن لحد تلك الساعة خصوصا في مجال الفيزياء، هادفا زيادة بعد إضافيا إليها: التفكير حول خصوصية الحي. ويلتقي بطريقته متطلبا نظريا ألا وهو التفكير ما اللا معقول الذي حاولت الظاهراتية الهيسيرلية توضيحه.

---

(1) يعاين تأثير كوجيليم في العديد من الكتب والنصوص المهداة التي نشرها طلاب سابقون أصبحوا فلاسفة جامعيين. ومن المهم قراءة نص بورديو الذي يذكر من خلال تصرفات وعبارات أستاذه القديم وقفة ثقافية فكرية تجلب كل عطفه (لم يكن يتخذ وقفة فيلسوف)؛ بورديو *Les Inrockuptibles*, 25-27, septembre, 3 octobre 1955, p. 129

(2) مثلا، كونجيليم، *La Formation du concept de réflexe aux XVII^e et XVIII^e*, Paris, PUF, 1955.

الفيلسوف حسب كونجيليم إذا توجب عليه التعلم على يد عالم لا يمكنه تجاهل الموضوع المعتبر الذي يحدد المعايير والمعيارية وهو كذلك أيضا منبع أخطاء ممكنة، له خصوصية تقريب وتمكين من المسائل التي يطرحها الفيلسوف وكذا العالم. وكل شيء يتم وكأن معارف الحياة يجب أن تأخذ معنى في نفس الوقت موضوعي (الحياة كموضوع) وذاتي (الحياة كمبدأ وشرط معرفة). وفعلا فإن معرفة الحياة يترتب عنها تساؤل حول معنى المعرفة كونها معرفة تأخذ معنى مقارنة بالحياة: من خلال علاقة المعرفة بالحياة الإنسانية تنكشف العلاقة الكونية لمعرفة تنظيم الحي[1]. الحياة هي موضوع المعرفة هذا الذي هو بشكل يلزم المعرفة بالتساؤل حول ذاتها: وتمنع موضوعية مختزلة. كعقلاني صارم كونجيليم كان يرى أنه لم يندفع لرفض باطنية مضطربة غامضة بصبغة برجسونية للوقوع ببساطة في فكروية بلورية خاصة بتقليد فلسفي تسيطر عليه مناول رياضية وفيزياء رياضية. العقلانية المعقولة المنادى بها ضد هذا النوع من البديل يتمثل في معرفة حدوده وإدماج شروط تطبيقه[2]: وإذا كان صحيحا بأنه حسب عبارته "فكرة الحي يجب أن تستمد من الحي فكرة الحي" وبالنسبة لكونجليم يبدو مهما تصوران فكريان وهما تصوري الدلالة والكلية (المعنى والكل)، فكرتان يفترضهما من كورت جولدستاين أحد الكتاب المفضلين لميرلو بونتي. وإطار الفهم في معرفة الحي أعطي بواسطة العلاقة العامة، النقاش الذي يربط الجسم بوسطه. يعني أنه وتحت طائلة نسيان أصالة الحياة والعمل على تجريد مثل العصبوية والإدراك والعادة....على العلم أن يلزم نفسه ليس باختزال (بعلة غير مفهومة جيدا للموضوعية) ولكن بالعكس بإعادة إنتاج كل الدلالات التي ينضوي تحتها السلوك العاطفي.

(1) G. Canguikhem, *La Connaissance de la vie*, Paris, Vrin, 1965, 11.

(2) ن.م: 12-13.

كان ذلك إذا في خطوطه العريضة حيز الممكن الفلسفي في الخمسينات. رفض التاريخ الجامعي للفلسفة والذي انتقد دوركهايم تجاوزاته في زمنه وغيره تبدو ضرورية لأغلب متعلمي الفلاسفة بقدر أن هذا التخصص الذي أصبح مسيطرا في ظل نظام السلطة الدنيوية للمؤسسة يبدو لهم متقشفا وخاليا من كل وظيفة حقيقية نظرية. إلا أنهم شجعوا للثورة ضد الأرثوذوكسية الأكاديمية من عدة جهات: من الباحثين الأكثر تجديدا سواء في مجال تاريخ العلوم والمعرفية أو في مجال علوم الإنسان (إميل بنفينيستE. Benveniste، جورج ديمازيلDumézel ، كلود ليفي ستراوش) بل وحتى من قبل فيلسوف مثل ميرلو بونتي ذاك العقل المتفتح ومحب التعرف الذي يجسد مع كل الحدود مثل ذلك الجهود لإدماج النتائج العلمية الأخيرة في مشروع فلسفي موسوم بالظاهراتية. التجديد الفكري لم يكن ليعدم الاعتماد على الرأسمال العلمي أولا على الشكل الذي كان له في فرنسا مع تقليد تاريخ العلوم ومن جهة ثانية وبتزايد على شكل الفلسفة التحليلية التي مصدرها أنجلو ساكسوني: ففيتجينشتاينWittgenstein الكاتب المفضل لبورديو بدأ يشتهر. ولكن التجديد يمكن أن يستفيد من التبادل الذي يتضاعف بين تخوم حقل الفلسفة وحقل الأدب. ومجلة مثل كرتيك توضح تلك الثنائية في السبل مع من جانب كتّاب مثل ألكسندر كويري وإيريك فيل Weil ومن جهة أخرى جوج باطاي Bataille . وأخيرا وعلى العموم الظرفية الجامعية كانت ملائمة للتشكيك ورفض المناول الأكاديمية. فخلق مناصب لتأطير جمهور متزايد وتطور التعليم في تخصصات علوم الإنسان وتقوية مؤسسات البحث والعلم الهامشية الملائمة للتغيير (الدائرة السادسة في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا) كانت من بين بعض الظروف التي هيأت لظهور شكل جديد من المثقفين والمفكرين. يتوجب بالطبع توضيح هذه الصورة بالتذكير بأنه أبعد من تعترف بها المؤسسة الجامعية فعدة أفراد من هذه الجيل كان عليهم متابعة مشاريع هامشية ثمن إقصاء من المناصب المسيطرة: وقليل منهم

درّسوا في السوربون قبل مايو 1967 وميشال فوكو لم يدخل الكوليج دو فرانس إلا بعد سنوات قضاها في الخارج أو خارج العاصمة ثم في الجامعة التجريبية فانسينس[1].

الفلسفة والعلوم الإنسان

اختلاف مسارات متعلمي الفلسفة في بداية الستينات تتطلب أن تحال وتقارن وترجع نسبة إلى حالة بنية الحقل الفلسفي. وحاولت أن أبرهن في مكان آخر[2] على أن هذا الحقل كان منظما حسب محورين: المحور الأول يسمح بمعارضة قطب عالي العلم حيث نجد بالأحرى متخصصين ينتمون للتعليم العالي وقطب مخملي حيث نجد غير متخصصين يتوجهون إلى جمهور خارج عن عالم الفلاسفة وأوله طلاب الأقسام النهائية في المدارس الثانوية؛ المحور الثاني يسمح بمعارضة قطب إعادة إنتاج بحت للمنتجات والمنتجين وقطب إنتاج ملائم أكثر للابتكار. مصير الفلاسفة الذي نجحوا في امتحانات التعليم وحوصروا لزمن طويل في أفق يسيطر عليه قطب إعادة الإنتاج، هو عالم التعليم الثانوي وفي الأقسام الإعدادية أو التخصصات الجامعية ومنها بالذات تاريخ الفلسفة. إلا أن مجال فضاء الممكن الفلسفي تغير تحت تأثير تحول النظام الجامعي خلال الستينات. وخلقت مناصب وتنوعت أنماط الاختيار والوصول إلى وضع جامعي أصبح أقل ارتباطا من قبل بالقيود الخاصة بنظام التوارث من خلالها تضمن لحد الساعة هوية وخصوصيات المناصب والمرشحين للوراثة[3].

---

(1) جامعة فانسين نسبة إلى منطقة في الضاحية الباريسية كانت جامعة تجريبية وخلقت ضد نهج السوربون القيمة. للعلم لما قبل الثمانيات كانت السوربون كلمة سحرية حتى في أذهان العربن وكانت الجامعة الفرنسية بامتياز وكان التدريس والدراسة بها يعتبر قمة ما يصل إليه باحث، والكوليج دو فرانس لا يدخله إلا نخبة نخب المدرسين ودخوله يعبر عن اعتراف كبير بقيمة الباحث. للعلم إذا كانت مكانة الكوليج دو فرانس لازالت هي فقد تغير الحال بالنسبة للجامعات ولم تعد السوربون هي سوربون القرون الماضية. وما يذكره الكاتب ذي أهمية في سياق صراعات الفترة.

(2) عد إلى L. Pinto, *Les Philosophes entre le lycée et l'avant-garde*, Paris, L'Harmattan, 1987, ص 63 وما يليها.

(3) راجع بيار بورديو *Homo academicus*, Minuit, 1980, ص. 171 وما يليها.

بعبارة أخرى طرق أخرى لتصبح فيلسوفا أكثر ملاءمة لخلق وابتكار أصيل شجعتها هذه الظرفية ويمكن أن توجد مجتمعة، على الأقل بالنسبة لعين خارجية، بأسلوب غير جامعي. كيفيات القطيعة مع التقليد المؤسساتي كانت محددة قبل كل شيء بخصوصيات الرأسمال المتلك وخصوصا بطريقة مكوناته، فدور حاسم كان الثقل النسبي للثقافة العلمية والإنسانيات. واتخذ الابتكار صورا مختلفة: حسب الحالات، وافترض مراجعة جذرية لفلسفة المؤسسة بالمواجهة مع معارف إيجابية أو أنها تشكل تخريبا لتاريخ الفلسفة، وهي طريقة هرطقية لمتابعة التفلسف. وأخيرا من بين ممتلكي رأسمال من نوع علمي بدأت الاختلافات تظهر حسب درجة التحول والقطيعة مع عالم الفلاسفة: فممارسة تاريخ المعارف على طريقة فوكو لم يكن له نفس النتائج كالاهتمام بالأجناسية مثلا.

تفتح الممكن الفلسفي خلق جوا جديدا. وأحس العديد بضرورة القطيعة مع صورة الهواة والتقول التي كانت مرتبطة بالوجودية الآفلة وفهموا بأن العلم لم يعد يمكن الاستمرار في معالجته بطريقة لا مبالية وبعيدة ومترفعة واختزاله إلى تناول بسيط وسائلي. موضتا البنيوية والمعرفية كانتا بشكل ما متوازيتان لأنهما نتجا عن رفض متشابه. ولكن القطيعة مع التقليد الفلسفي كانت تحمل بعضا من الغموض بقدر ما كانت تقرن غالبا الموارد المختلفة كثيرا للفلسفة منذ نيتشيه، من تاريخ العلوم وعلوم الإنسان ومن الأدب. وهكذا فبعض الكتاب يرفضون منوالا فكريا متهما بكونه موضوعيا ويرون الوقوف ضد التقليد مع البقاء في الحدود التي تسمح بها المؤسسة الجامعية: ويحتفظون بعلو الفلسفة في شكل غير مسبوق طليعي يقرن في المواضيع والإشكاليات والأسلوب سمعة "علماء" القطيعة المعرفية والجرأة الأسلوبية "للانتهاك الكلي". ويعبر عن هذا الاتفاق الفكري لائحة الكتاب الرمزية حيث يتجاور فيها أرتو Artaud وباشلار وبطاي وبلانشو Blanchot وبروديل Braudel وكونجيليم ودوميزيل وفرويد ولاكان Lacan ولفي ستراوش وملارمي Mallarmé وماركس ونيتشه وصاد Sade وسوسير... مثلا مشروع لويس ألتوسير Althusser يعطي

للماركسية سموا معرفية بفضل مصطلحية باشلارية دون حاجة لمراجعة النظرة الفلسفية العلوية الموجهة إلى العلوم الإنسان من فوق. وإذا أمكن أن نعتبر بأن ميشيل فوكو قد أخذ موقعا مسيطرا في الحالة الجديدة للحقل الفلسفي فذلك بلا شك لأن مشروعه كان له علاوة ميزة التدرج في نفس الوقت في تعدد عوالم ثقافية كما يشهد بذلك الاعتراف التي حصل عليه كل من كان يمثل موقعا مبتكرا وخلاقا. منها أسماء أخرى كموريس بلانشو وجورج كانجيليم وجورج دوميزيل.

ظرفية الحقل الفلسفي التي وضعت حسب أصناف الإدراك الأهلية، تحت شعار البنيوية تقابل إذا لم يكن تحولا للفلاسفة الجدد فعلى الأقل إعادة تحديد لمهمات النظرية. وتم كل شيء وكأن التخصص تم إعادة صياغته في حدوده مع الحقل العلمي. وكان الأفراد معرضين لضغوطات التي عبر عنها في اختياراتهم وتردداتهم: كيف الوصول إلى دمج المتطلبات المختلفة للانتماءات الفلسفية والعلمية والطلائعية الأدبية؟ الفلاسفة وهم متحررون إلى حد معين من التقليد الجامعي في أشكاله الأكثر بروزا ظلوا خاضعين لواجبات موقفهم المسيطر. ويجب ذكر، لفهم العقوبات المسلطة، تلك الهرمية الدقيقة التي تفرق بين المواضيع النبيلة والمواضيع العادية، التخصصات ذات الصبغة الشكلانية والتخصصات ذات الصبغة التجريبية؛ أما الأجناسية وقد أضيفت إليها الأناسة وعلم الاجتماع فهي تخصصات محتقرة[1] التي تتجسد إلا في قلة ناذرة[2]، في وجوه جامعية مطموسة وباهتة نسبيا لا يمكنها بتاتا الحلم بمنافسة الأفراد أصحاب للامتياز الفكري.

---

(1) بورديو في *Choses dites* يذكر سلوك عدد من متعلمي الفلسفة: 'احتقارنا لعلم الاجتماع كان مضعفا لكون بواقع أن عالم اجتماع يمكنه يترأس لجنة امتحانات التبريز في الفلسفة وأن يفرض علينا دروسه التي لحكم بضعفها وفراغها حول أفلاطون وروسو ... في تلك الفترة لم يكن يوجد إلا علم اجتماع تجريبي هزيل بلا أفكار نظرية ولا تجريبية'.

(2) مثلا ريمون أرون. ولكن هذا كان معروفا أكثر كأستاذ وكاتب ومعلق على الأحداث منه بحامل لهوية مهني متخصص في علم الاجتماع.

ومهما كان شأن هذا الاقتصاد الرمزي للاختيارات الفكرية يجب التأكيد على واقع أن مختلف المشاريع، ولأنها تشكلت في وسط نفس حيز الممكن، يمكن أن تقارن إلى حد ما في منبعها وأصلها وربما في مداها. وهكذا فالمنهج التاريخي الفلسفي لميشيل فوكو وعلم اجتماع الثقافة لبيار بورديو يمكن أن يرى فيهما طريقتين لممارسة التاريخ الاجتماعي للأشكال الرمزية المستوحى من تفكير إرنيست كسيرير. المشروعان المختلفان (بتلخيص شديد) بالثقل النسبي في كل منهما للفلسفة والعلوم الإنسان يشتركان في اقتراح تجذير التوجهات الكانطية الجديدة. وعلى مستوى فلسفي بالذات حصلت قطيعة تامة مع أية محاولة تأسيسية: وحولت مسائل الفلسفة إلى مستوى تقص وتحر إيجابي. وحتى على مستوى هذا التقصي ذاته اقترح تنويع لمواضيع الدراسة التي تحرك حدود الأهم وغير الدال، حدود الشرعي وغير الشرعي[1]. تنوع هو مصدر سوء فهم لصيق بمكانة عالم الاجتماع والتي كان على فوكو كفيلسوف تملكها مع غموض أو سوء فهم آخر[2].

علم اجتماع الأشكال الرمزية (الفن، الدين...) كان مهما لفرض تعريف طموح في الحقل الفكري لعلم الاجتماع في قطيعة سواء مع الجدولية المسيطرة في الخمسينات المبنية على التقريب بين التجريبية المعرفية ذات أهداف تحديث والمكيفة مع التقدمية المتمركسة[3]، وكذا مع الفلسفة النقدية المصبوغة بعلم اجتماع متجسد في بعض الوجوه الهامشية (لوسيان جولدمان L. Goldmann). بورديو فلسفي التكوين والدراسة واستفاد من الموروث

---

(1) حول مشروع فوكو النظري في علاقته مع الحقل الفلسفي اقترحت تماليل في *Les Philosophes entre le lycée et l'avant-garde*, م س.

(2) قد نتابع بالطبع هذه المقارنات بإبراز خصوصا أن التفكيك مورس -دون الاسم- أيضا عند فوكو (حول الأناسة خصوصا في دراسته غير المنشورة حول كانط) وكذا بورديو (حول جمالية كانط وأيضا في تفكيكه عند ديريدا).

(3) حول علم اجتماع في تلك المرحلة عد إلى المقالات في مجلة

La Revue française de sociologie, juillet-septembre, 1991 XXXII-3 J.M. Chapoulie, "La seconde fondation de la sociologie française", & Johan Heilbron, "Pionniers par défaut? *Les débuts de la recherche au entre d'études sociologiques (1946-1960)"*, وهي مقالات تعرض وتقدم نظرة متعارضة. وأحد رهانات الفترة كانت العلاقة مع الدوركهايمية.

المزدوج لتاريخ العلوم (جاستون باشلار، جورج كونجيليم) والظاهراتية في الشكل الذي عرضه هيسيرل وموريس ميرلو بونتي ومعجب بالمنوال المشهور لليفي ستراوش، لم يكن بورديو مستعدا مهيأ ليجد مكانه في حقل علم الاجتماع الجامعي في الخمسينات وبداية الستينات الموسوم خاصة بتجاذب بين قطب مدرسي يسيطر عليه أساتذة شغلهم التعليق على الآباء المؤسسين وقطب أبحاث تجريبي ميداني الذي يجلب أفرادا وشخصيات ذات صور متفردة ونسبيا لا تمتلك شواهد مهمة عالية وقليلة الشرعية ميالة بالأحرى إلى الأبحاث التطبيقية. وكانت الأجناسية تسمح في الأصل لفيلسوف بتغيير شرعي للمجال وذلك من واقع مكانتها البنيوية يمكنها أن تلعب دور كمحل مرحلي وسطي بين الفلسفة وعلم الاجتماع.

وأخيرا يمكننا أيضا تقريب بين بورديو وفوكو في نقطة أخرى مهمة، هي العلاقة النقدية أو الانعكاسية مع المعرفة: وإذا كان من وضع يرفضانه فهو بالذات وضع "العالم" كمالك لسلطة لا تجادل؛ ويتقاسمان إلى حد ما فكرة أن تقدم العقلانية لا ينفصل عن تحليل لأشكال المتفاوتة الطغيان للعقل (العقل في نفس الوقت كطغيان وجبروت وكنور) كما يقول فوكو[1]، وعقل يرى بورديو، وعكس فوكو، أنه متوافق مع تعريف مُتطلّب لتخصص علم الاجتماع.

مسيرة متفردة

وإذا، فمقارنة مع فضاء المسيرات الفلسفية المعاصرة يتوجب محاولة تحديد موقع لمسيرة هذا الفيلسوف بيار بورديو، الذي تحول إلى العلوم الاجتماعية. المزداد في 1930 في قرية من منطقة البيارن الفرنسية، ابن الريف هذا، غير الباريسي ومن وسط شعبي، قضى

(1) فوكو م س، ص.7."La vie: expérience et la science"

جزءا من دراسته خارج باريس قبل متابعتها في ثانوية لويس الأكبر بباريس ودخوله المدرسة العليا للأساتذة[1]. حصل على التبريز في الفلسفة في 1955 ودرس مدة سنة في ثانوية خارج العاصمة. وطموحه الأصلي كان الانتهاء من أطروحة في الفلسفة. لكنه تركها لصالح أعمال ميدانية في الأجناسية وعلم الاجتماع. ومنحت فعلا فترة الخدمة العسكرية والتدريس في كلية الجزائر (1958-1960) فرصة اكتشاف مواضيع أخرى ووجهات نظر غير فلسفية: سمحت له بمعاينة مجتمع تقليدي، مجتمع منطقة القبائل الجزائرية، وآثار التغيير الاقتصادي والسياسي على مثل هذه المجتمعات عموما. وكتاباته الأولى كانت مخصصة لهذه الأرضيات والحقول خصوصا منها: علم اجتماع الجزائر (1958) والعمل والعمال في الجزائر بمشاركة داربيل وريفي وسيبيل و(1963) والاقتلاع وأزمة الفلاحة التقليدية في الجزائر مع صياد (1964).

مقارنة مع التخريب الودي الذي قام به أفراد من نفس الجيل يتقاسمون بعض هذه السمات خصوصا فيما يتعلق بالشواهد المدرسية، فإن مشروع بورديو يبدو أنه متطفل وقليل الاحترام لسمعة ولرفعة الفلسفة: ليس فحسب لأنه تترتب عنه مواجهة مع حقل حين يزعم ويدعي الكتّاب سيطرة الفلسفة ويقترحون نصوصا أخرى للقراءة أو ببساطة نظرة أخرى إلى النصوص القانونية ولكن زيادة على ذلك فمشروع بورديو قد أخر إلى أجل غير مسمى الخطاب الفلسفي للتجاوز الذي من خلاله أي إنتاج وسم كنظري له حظ القبول والتقبل. وهو ما لا نجده عند الشباب المفكرين. وهو ببساطة - ولن أطور هنا هذه النقطة- من أثر الإنعواد الاجتماعي والفكري الذي يشعر برفض وتقزز عفوي نحو الغموض الهايدجيري أو الشعور المقدس نحو بطاي أو بلانشو، وأثر يدفع لترك علو البرج النظري ويميل لرفض فكرة

---

(1) التأكيد على أسماء الأماكن له معنى في فرنسا السبعينات وقبلها، البيارن منطقة هامشية مهمشة لا ينتظر أن تولد عالما كبيرا! أما ثانوية لويس الأكبر والمدرسة العليا للأساتذة بها فهي مدارس نخبة النخب، نخبة اقتصادية واجتماعية وفكرية!.

أن الفكر يجب أن يكون أساسيا نشاط لعب بحت. فلاحو القبائل والبروليتاريا الدونية في الجزائر، أول الأهالي حقل الدراسة لم يكن عندهم كثيرا ما يمنحونه لعين المثقف الكبير والقليل الميل نحو "التغرب الأناسي" لأن تواضع تلك المواضيع لم تكن تبدو أنها ستعوض بطريقة مقاربتها، فهي خالية تماما من أية إمكانية بهجة ومتعة طالما تعود بعض الأجناسيين على تقديمها للقراء الفلاسفة[1]. وكذلك يمكننا التفكير بأن القطيعة المقترحة فيما بعد في حب وتذوق الفن، حول حقل حساس مثل حقل أحكام الذوق وحكم الذائقة كان يمكن أن لا تقابل الخروق والتجاوزات المشروعة التي تلائم الجذرية الجمالية. تراكم المواريث وإذا كان مواتيا ومشجعا على الابتكار الفكري قد ولد أيضا سوء فهم عند طرف قراء لم تهيأهم كل ثقافتهم إلا لفك خطاب حسب النظرات الاختيارات الحكرية والتي هي أيضا أكثرها بروزا. وحسب تصنيفية "عالمة" توجد حظوظ كبيرة أن يخطأ بورديو، وبالتالي فقد يكون ملزما ودوريا بالعودة إلى أضداد التي يرفضها بقوة كالموضوعية والذاتية. بالنسبة لثقافة معاصريه النظرية في الستينات الذي كان يسيطر جذريا عليها إذاك التوجه الموضوعي للبنيوية فإن الاهتمام المتكرر بتجربة الفاعلين يمكن أن تكون موضع شك في كونها "حنينا أنسيا" حين حيث بدا مقبولا تماما بأن وصف الواقع كان قد تحقق بتوفيق من خلال تسليط الضوء على البنيات وحدها المخفية والخفية واللاواعية. لأن رفض وجهات نظر المقبولة عامة والتي تقليديا تحدد وضع الفلسفة يمكن أن يعبر عنه من خلال التوجهات الجديدة المتأثرة بسمعة علوم الإنسان: مفكر يتخذ موقعا فيما فوق مطل ويصرح بحقيقة العالم الاجتماعي والتاريخي بلغة هي في نفس الوقت دقيقة ومعقولة وهادئة ويشجع على مناقشة تجريدات (بنيات وتاريخ ومأسسة وكيفيات إنتاج...). خصوصية البعد وغرائبية المواضيع الفلسفية المعتبرة كانت إحدى شروط

---

[1] للفلسفة الأجناسية ل ميزة واضحة على علم الاجتماع، المرتبط كثيرا بالعالم المألوف ومن بين الأجناسيين سيكون من النافع وضع لائحة من حصل على تشجيع الفلاسفة وذلك بلا شك لأنهم يخلقون بينهم أكثر من غيرهم وآخرين تأملا أوسع حول الإنسانية أو ببساطة لأنهم يستغلون سمعة الغريب الآخر البعيد.

الشرعنة الفلسفية في البنيوية، وبالتالي وإذا من تقاسم سعيد للحدود بين الفلسفة وعلوم الإنسان لأن الأناسة الموضوعية هي مبدئيا غير مضبوطة على مقاس نظرة العفوية إلى العالم الاجتماعي الخاص بالفلاسفة، تحوي تنازلا ضمنيا لمعالجة المواضيع الغير واقعية الحاملة للسعادة[1]. يبدو صعبا على المشاركين في النقاش النظري إلحصول على أجوبة لترقباتهم في نصوص بورديو: وقد كان يتوجب عليهم البحث لتنظير، من خلال الأعمال الميدانية المتعلقة بعوالم هي عموما عادية ومألوفة ما يمكن أن يفترض أنه قابلية لم تشجعها المؤسسة المدرسية كثيرا، تستعمل حقا (وواقعيا) النظرية أو ما يرجع لنفس الشيء موقف القطيعة الاجتماعية مع المواضيع النبيلة التي أدت إلى ربط علاقة بين الوسائل الفلسفية والحقول العادية (الجمالية الكانطية/ الطبقات الاجتماعية، فن التصوير).

تلك هي بتلخيص كما وصفت ظروف وصول إ بيار بورديو إلى الحقل العلمي وإلى العلاقات مع العالم الثقافي والفكري التي تتولد عنه. وكان ضروريا ذكرها لفهم الجوانب الأكثر أهمية جيدا في عمله الاجتماعي والفكري. ويتوجب متابعة هذه الأفكار المختصرة والملاحظات المختصرة لاقتراح تحليل اجتماعي لمساره. ولكن ذلك ليس بقصدي هنا. وسأكتفي للإفلات من اختيار: إما بالكل أو لا شيء، بإعطاء مؤشرات قصيرة سريعة مرجعية كتابية نافعة لفهم الفصول الآتية.

في نهاية حرب الجزائر، كان بورديو إذا متأثرا بالتخصص الجامعي. عين في كلية ليل عام 1961 هو الفيلسوف الشاب الذي غير وجهته نحو البحث في العلوم الاجتماعية والتي

---

(1) إذا كانت اللسانيات البنيوية أحدثت في فرنسا زخما كبيرا فكريا، فذلك يرجع لفضل واقع الاستقلالية المنهجية التي بنيت عليها والتي سمحت لها بالقفز على مسألة الاستعمالات الاجتماعية للسان. ويمكن أن يستعمل سوسير يمكن كشكل من أحصنة طروادة للصمود أمام العلوم الاجتماعية في قلب العلوم الاجتماعية نفسها (راجع بورديو ص 8 وتابعها في Ce que parler veut dire, باريس 1982)

كان تعارض نوعا ما مستقبله الذي كان أصلا قد وجه له[1]. ونعرف أن ميادينه الأولى كانت الممارسات الثقافية والنجاح المدرسي. ونتج عن ذلك سلسلة مقالات وكتب: الورثة الطلاب والثقافة *Les Héritiers. Les étudiants et la culture* باريس 1964 بالاشتراك مع باسرون، وكتاب *فن متوسط* رسالة في الاستعمالات الاجتماعية للصورة بالاشتراك مع بولتانسكي وكاستيل وشامبوريدون *Un art moyen. Essai sur les usages sociaux de la photographie* باريس 1965؛ وحب الفن المتاحف الفن الأوروبية وجمهورها *Les musées d'art européens et leur public* بالاشتراك داربيل وشنابير باريس 1966. وللتذكير فإن تخمينا حول منهج بورديو سبق وأن عرض في كتاب مهنة عالم الاجتماع *Le Métier de sociologue* بالاشتراك مع شامبوريدون وباسرون عام 1968.

ومن حينها تتابعت مسيرته الجامعية في مؤسسات أكاديمية هامشية (مقارنة بالجامعة والمركز القومي للأبحاث العلمية) بيد أنها فكريا ذات سمعة حسنة. والاعتراف والتكريم الذي حصل عليه لاحقا لا يمكنه أن يغطي ويمحو التناقض بين الإبداعية العلمية والتأثير المحدود إذا لم يكن غائبا، على مؤسسات القرار الجامعية والاختيار والترقية (اللجنة الوطنية للجامعات...). وفي 1964 أصبح بورديو مدير أبحاث في "المدرسة التطبيقية للدراسات العليا" في مركز علم الاجتماع الأوروبي الذي كان يديره ريمون أرون. وتابع ندوته عدة باحثين وطلاب. وأجريت تحريات كبيرة شارك فيها عدة أفراد. والأعمال المنشورة المستوحاة من فرضيات بورديو تضاعفت، وحيث أنه رأى ضيق الإطار الموجود للمجلات الاجتماعية فقد

---

(1) يقول بورديو:"بدأت أبحاثا على الظاهراتية الحياة العاطفية ...وكنت أفكر أنني فيلسوف وتطلب مني زمنا طويلا لأفهم بأنني أصبحت أجناسياً" بورديو في "Fieldworks in Philosophy" حوار مع هونيث وكوسيبا وشويبس عام 1985 المنشور بالألمانية وأعاد نشر في كتاب اشياء قيلت *Choses dites* ص 16-17.

أصدر مجلة جديدة[1] *Actes de la recherche en sciences sociales* عام 1975. هذه المجلة التي تعكس وجهة نظره حول حقل العلوم الاجتماعية وترتكز إلى بعض المبادئ: رفض الهرمية الاجتماعية للمواضيع، ورفض العادات الجامعية في التقديم والعرض وشراكة بين مختلف العلوم الاجتماعية...علاوة أنه انطلاقا من 1964 أشرف على تسيير في دور نشر سلسلة المعنى المشترك التي تقترح جنب الدراسات الاجتماعية لكتاب عموما شباب أعمالا كتاب تقليديين وترجمات في مجالات كالفلسفة واللسانيات والأجناسية ...

وفي أواخر الستينات تنوعت الحقول المتناولة. وإذا كان التعليم قد استمر في مركز الاهتمامات فإن جوانب أخرى لإنتاج واستهلاك السلع الثقافية درست. وتواليا صدر إعادة الإنتاج، عناصر لنظرية نظام التعليم *La Reproduction. Eléments pour une théorie du système d'enseignement* بالاشتراك مع باسرون 1970؛ خطوط لنظرية الممارسة *Esquisse d'une théorie de la pratique* 1972؛ التمييز نقد اجتماعي للحكم *La Distinction. Critique sociale du jugement* 1972؛ المعنى العملي *Le Sens pratique* 1980؛ مسائل اجتماعية *Questions de sociologie* 1980، ما يعنيه القول *Ce que parler veut dire* 1982 والأنطولوجيا السياسية مارتن هايدجير *L'Ontologie politique de Martin Heidegger* 1975 /1988. بورديو انتخب أستاذا في الكوليج دو فرانس عام 1981 في كرسي علم الاجتماع. الكتب التالية خصصت مع استعمال ترتيب بسيط للتعليم إنسان العلم *Homo academicus* 1984، نبلاء الدولة، المدارس العليا وعقلية الجماعة *La Noblesse d'Etat. Grandes écoles et esprit de corps* 1989؛ للفن والأدب: قواعد الفن

[1] لا نبتغي التثقيل على الطالب العربي بالمراجع الفرنسية وعلى أية حال هي مراجع متيسرة لمن يرغب فيها من المتخصصين: كما أنه في كامل هذا الكتاب ما نسميه بمجلته أو مجلة بورديو هو هذه المجلة بالذات وقد فعلنا تسهيلا في النص العربي.

ميلاد وبنية الحقل الأدبي *Les Règles de l'art. Genèse et structure du champ littéraire* 1992 وأيضا التبادل الحر جوار مع هانس هاك *Libre-échange. Entretien avec Hans Haacke* 1994؛ وللسياسة: فقر العالم *La Misère du monde* بإشرافه 1998 وأيضا كتيب في التلفزة 1996 وردود واقية1 حديث لخدمة الصمود ضد الهجمة الليبرالية الجديدة 1998 وردود واقية 2 من أجل حركة اجتماعية أوروبية 2001 ومداخلات 1961-2001 علوم اجتماعية وعمل سياسي؛ وللتضاد رجل امرأة: السيطرة الرجالية*La Domination masculine* 1998؛ ولقضايا نظرية أو فلسفية: أجوبة . من أجل أناسة انعكاسية 1992 بالاشتراك مع فاكان؛ وعلل عملية حول نظرية العمل 1994. وتأملات باسكالية 1997؛ وللاقتصاد البنية الاجتماعية للاقتصاد: علم العلم والانعكاسية، هي دروس الكوليج دو فرانس 2000-2001؛ وللفلاحين حفلة رقص العزب. أزمة المجتمع في منطقة البيارن 2002[1].

بالنسبة للقارئ الذي لا يعرف أو يعرف بشكل غير جيد كتابات بورديو يمكن أن ننصحه بقراءة كتب الحوارات والمقالات: مسائل اجتماعية 1980 وأشياء قيلت 1987 وأجوبة من أجل علم اجتماع انعكاسي وأجوبة عملية حول نظرية العمل 1994. ومن بين النصوص حول بيار بورديو باللغة الفرنسية يمكننا النصح مدخل لويك فاكان إلى أجوبة وكتب مدخلية لأعمال بورديو مثل آلان أكاردو مدخل إلى علم اجتماع التضليل واقرأ بورديو لبيار أنصار 1983 علوم اجتماع معاصرة. أما خارج فرنسا فتتعدد ما كتب عن علم اجتماع بورديو.

---

(1) قد يلاحظ القارئ النبيه أننا لم نذكر كتبه بعناوين الترجمة العربية وذلك لحاجة في نفس يعقوب! هو تحفيز للذهن ودرس للمترجين العرب. علما أن القارئ قد يعثر عن الترجمة بسهولة والمرجو العودة إلى لائحة الكتب المترجمة مثلا. والاختلاف أحيانا مرده مصدر الكتاب المترجم فكما قلنا لقد أعاد بورديو نشر نصوصه كثيرا في كتب متنوعة.

ولضرورة العرض كان واجبا علينا إفساح حيز للممكن النظري بشكل منفصل وإذا بشكل ما مجردا. إلا أن العلاقة شخص، فرد بحقل تمر عبر بنيات الإدراك الخاصة به، نتاج تاريخ محدد والذي يرتبط ويخضع في جزء كبير منه لخصائص الفاعل المعتبر التي تعود لوضعه في الحقل. وهكذا نفهم بلا شك أحسن ميلاد مشروع بيار بورديو الفكري إذا أمكننا قياس مقدار التملك الذي يحويه الخطاب المضعف النقد الذي يستهدف معارضة النظرية المسيطرة (الموضوعية / الذاتية) المصاغة متأخرا، في فترة ظهر له بالضبط ضرورة توضيح أصالة موقفه العلمي. هذه النقطة حول الموقع في حقل اتخاذ المواقف النظرية هي نقطة ستدرس في الفصل التالي.

الفصل الثاني

في مسألة الممارسة: فرضيات واستعدادات

هل يمكن الحديث عن ما جد نظريا في عمل بورديو وما ساهم به في التحليل الفلسفي دون التعارض أو التناقض، ومنها بالذات المبادئ التي تحويها أعماله والتي تفترض عدم فصل دلالة نظرية عن استعمالاتها الملموسة في نشاط المعرفة؟ يوجد خطر كامن، وفعلا عندما نستعمل في الفلسفة لغة الأطروحات قد لا نرى فرضيات- وأحيانا المطموسة- الموقف التي ولدها وعللها: والسياق سواء أكان مولدها أو مرجعيتها قد يعتبر نسبيا ثانويا أو زائدا مقارنة مع المهم أي محتوى الخطاب. ولكن المحتوى مصورنا بقدر الممكن ليس شفافا ولا أحادي الاتجاه كما يشهد بذلك كثيرا التجاهل وسوء الفهم اللذان لا يمكن تفاديهما (ولكن ليس ضرورة ثابتان) اللذان يترتبان عن النقل إلى سياق ثقافي آخر لخطاب كان له معنى في سياق ثقافي أولي[1]. وليس هذا دفاعا عن النسبوية القصوى وأقل من ذلك عن لا حصرية الجدوليات منه بالتذكير بمقدار كون الخطاب النظري ومسبقا الفلسفي عرضة لتوليد

(1) الخطاب الاجتماعي هو طبعا ذي طموح في الكونية، ولكن الوصول إلى الكوني ليس مباشرا وآنيا. يكفي للقارئ الأجنبي التساؤل عما إذا كانت العلامات والتصنيفات التي تبدوا له منطقية لفك شفرة المنتجات المستوردة لا تنتج عن وجهة نظره. وفي غياب تحكم في السياق يؤولها العارف -كان مستعجلا من جمهوره لإظهار تعوده على المنتجات المستوردة أو كان معرضا ببساطة لمعايير العلمية الأكاديمية التي تشجع على عروض بانورامية واسعة ومتكاسلة- يكون عرضة لسذاجة القراءة المباشرة مع كل الثقة التي يمنحها الاستعداد لربط كل جديد بأجواء معروفة (عد في هذا الموضوع إلى لويك فاكان: *Bourdieu in America: Notes on the Transtlantic importation of Social Theory*", in Calhoun, E. Li Puma M. Postone (eds.), Bourdieu. Critical Perspectives, Cambridge, Polity Press, 1993, p. 235-262). ولذلك تحت غطاء أسئلة مرفقة وملحقة فإن مسألة تقبل عمل يمكن أن تؤدي وظيفة حاسمة في التحليل الذاتي لأصناف التأويل العالمة. يجب إضافة إذا ظهر هذا ضروريا أنه بالعكس فإن عمل التوضيح للقراء الأجانب يمكن أن يؤدي وظيفة متوازية (عد في هذا إلى مقدمة كتاب علل تطبيقية لبورديو، ص. 9).

سراب وخدع خاصة من حين نصلنه عن شروط عمله الفعلي في الحالات المحددة فقد ينحو إذا للعمل في فراغ، "خارج مفاصله" حسب عبارة فيتجينشتاين. وبتلخيص إن النقاش الفكري سكون أكيدا أجدى كثيرا وضوحا إذا كان أكثر قدرة على فهم الطرح حسب الإنعواد الفكري الذي يعطيها وحدة وتناسقا، وربط هذا الإنعواد بالفضاء المعاصر للإشكاليات وللمشاريع التي يتحدد مقابلها (عن طريق رد الفعل وإعادة الصياغة ...). الحديث بقدر ممكن من التلاؤم عن هذا الإنعواد كمبدأ مولد للممارسات الفكرية فإن هذا يفترض شكلا معرفيا تاريخيا ليس بتحليل ذاتي داخلي للطرح ولا بتحليل خارجي للعوامل ولكنه محاولة استخراج معنوية ممارسة خطاب. ولكن رؤية نظرية كممارسة من بين أخريات هذا يتطلب بلا منازع تحولا في النظرة "العالمة" حول نفسها.

أبعاد واستعمالات فكرة الإنعواد

استغل بورديو زمن أبحاثه في الجزائر رأسمالا نظريا مكونا في جزء كبير منه من الأناسة البنيوية، ونعرف كل ما تدين به نظرية الإنعواد إلى تجاربه الميدانية وإلى العمل النظري الذي خلقه: تطورت هذه الفكرة تدريجيا بفضل تنقل جيئة وذهاب بين مختلف الأماكن، وسمحت بتوضيح علاقات القرب بين ممارسات العاملين والبنيات الموضوعية (سوق العمل سوق الزواج...)، علاقات تبرزها على العكس ظرف أزمة.

يتوجب فهم الإنعواد كنحو يولد ممارسات مسايرة للبنيات الموضوعية التي هو نتاجها: الحلقة الدائرية التي خلف تكونه وعمله توضح، من جهة إنتاج النظاميات الموضوعية للسلوك ومن جهة ثانية كيفيات الممارسات التي ترتكز على الارتجال وليس على تنفيذ القواعد. تجمع وجهين واحد موضوعي (البنية) والآخر ذاتي (الإدراك والفهم والتصنيف والتقييم)، ويمكننا القول بأنها تستبطن الخارجي وعكسيا تبرز وتخرج الداخل. إلا أن هذا النظام من الاستعدادات ولأنه مولد في ظروف محددة هو كلية ملائم وفق ظروف أخرى.

وانعدام الملاءمة هو ما يجعله جليا بارزا. وهو ما حصل عندما كما في الجزائر في الخمسينات والستينات أفراد انتزعوا من عالمهم القروي المتعودين عليه ووجدوا أنفسهم مرميين في عالم اقتصاد حضري ورأسمالي لم يكونوا مجهزين ومسلحين لمواجهته: ليس فحسب لم يكن بمستطاعهم تطوير إستراتيجية متناسقة بل كانوا ميالين لتفسير مصيرهم على نسق المكتوب والقدر والجبر أو الصدفة.

وإذا أخرجت من سياقها البدائي فإن الفكرة تأخذ مدى كونيا وتصبح طريقة عامة لمساءلة المعطيات المختلفة بوضعها تحت السؤال المكرر لمعرفة كيف وفي أية حدود يتم التلاؤم بين البنيات الموضوعية والبنيات المستبطنة والمضمنة عند العاملين على شكل تطبيق عملي مشجعا التوجه في المجالات المعنية للكينونة الاجتماعية. جدلية علاقة إشكالية التلاؤم هذا، بين الداخل والخارج، الموضوعي والذاتي يمكن أن نقول أنها البعد الأول للإنعواد، بعد الاستعداد بالذات الذي يمكن أن يجزأ بنفسه إلى بعد ممارسي (اتجاه الميل الاجتماعي) و بعد عاطفي (طموحات وأذواق...).

بعد هذه الأبحاث الأجناسية المخصصة، أساسا، لساكنة فلاحية وقروية (القبائل والبيارن) التي تتأثر بتبعات استلاب مادي ورمزي، بدأ بورديو مجموعة أعمال حول زيارات المتاحف والمدارس متابعا خطا موجها هو الثقافة الشرعية. وإلى حد ما فإن هذه الأبحاث يمكن أن تبدوا متوافقة مع الصورة العامة للتخصص الاجتماعي لأنها تهدف عن طريق دراسة الفروق بين المجموعات الاجتماعية المهمة (مرتبة حسب الطبقات العالية والمتوسطة والدونية) إلى فهم الآليات العاملة في تملك الأشياء المشروعة وفي نتائجها، أي إعادة الإنتاج الفوارق الثقافية بين المجموعات. رافضا الموضوعية المحافظة للتصوير غير النقدي للفوارق، إذ أن الفوارق تبرهن على أن الفوارق الثقافة تعكس فوارق أمام الثقافة. وفعلا فإن علم اجتماع الثقافة يكشف ما يمكن أن تغطيه "اقتصادوية" عفوية، يعني ضرورة العمل بمواصفات نظام الترتيب والتوزيع: علما بأن الأفراد هم في متباعدون باستعدادهم الموضوعي أمام

الأشياء الثقافية والمدرسية المشروعة وأن تلك الاستعدادات لا يمكن أن يكون لها محتوى ولا تعريفا آخر إلا هذا التباعد نفسه، وينتج عن ذلك أن قلة وندرة هذه الأشياء تميل إلى إعادة الإنتاج (في الاتجاهين) بندرة ووسائل التملك. يمكن أن نتساءل عما إذا كان الإنعواد، وهي أولى الأفكار المهمة التي أبرزت للنور، لا يحوي بعض الإمكانيات التي ستوضح فيما بعد وستنظم في فكرة جد مركزية وهي الحقل: التفكير بعبارات الاستعداد كما تدعونا إلى ذلك نظرية الإنعواد هو سلفا وعلى الأقل جزئيا تفكير بعبارات العلاقات، لأنه في العالم الاجتماعي أن توجد هو أن تتخذ موقعا والتموقع في فضاء مميز بالانضباط والملاءمة مع هذه الممكنات الخاصة ومع هذه لا سواها. ومهما كان في هذه النقطة فهذا الجانب التوزيعي للإنعواد هو بالطبع مركزي لعلم اجتماع الفن أو الأدب، لأن هذه المجالات تحوي أشكالا عالية من التميز التي تضاعف بتأثير خاص الشرعية، عمل العوامل العامة وقد أبرزت فيما يخص النجاح المدرسي والوصول إلى عالم الفن المكرس.

تسمح هذه المرحلة من البناء النظري باستخراج دروس حاسمة وقابلة للنقل مباشرة وتشكك في فرضيات لا تجادل كالإيديولوجية الجذابة حول الموهبة واستقلالية العمل الإبداعي. فأولا لأن غموض أنظمة التفوق الثقافية، وهي تحد لتحليل عقلاني، يمكن أن تربط بعلاقة مع خصوصيات الإنعواد المكتسب وخاصة مع القدرة على أخذ بعد مزدوج قياسا لضرورة الوجود المادي العادي وقياسا أيضا مع المعايير والأذواق المكرسة. هذا التباين في إنعواد المهيمنين والمهيمن عليهم يعتبر كثابت مهم بين الحقول. وثانيا نقد الأزلام المثقفة، ومنها اللسانية التي هي وجه نموذجي لها، يمكن أن يكتمل النقد من خلال وقفة نظرية منشغلة بنقل التحليل من المستوى التقليدي للخصوصيات الداخلية إلى مستوى نظام العلاقات بين الأشياء والعاملين الذين يهدفون إلى تملكها، وليس بالضرورة تبعا لحسابات. وعوض أن يكون علم الاجتماع عديم القدرة أمام عوالم تضع في المقدمة جوانب أشكال

مستقلة جذريا (لغة وقانون وفن وأدب...) يمكن لعم الاجتماع أن يأمل في إظهار، ولو في الحالات التي تبدو غير ملائمة كثيرا، كيف أن منطق الممارسة يحوي مبدأ فهم وتوضيح.

التراكم النظري، لأبحاث أجناسية في منطقة القبائل ولعلم اجتماع الثقافة والتربية، يدفع لتعويض مختلف الأشكال الثقافية "العالمة" بلغة الاقتصاد التي تعلل استعمال أفكار تصورية مثل الفائدة والإستراتيجية أو الرأسمال. تعويض هو خطر بالتأكيد، ولكن مع ذلك فهو مشروع. لا يتعلق الأمر فقط - نقد دائما يكرر- باختزال إلى قانون الاقتصاد وحده لمجالات تتحدد برفضها الاقتصاد، مثل الشرف أو الثقافة، ولكن بأخذ العلم بخصائص عمل هذه المجالات التي تساير صبغتها الرسمية أي اللا مبالاة بالمنفعة الاقتصادية، مع كونها تمنح مكافئات تفاضلية والتي تعيد بنيتها إنتاج، في العموم، التوزيع الاجتماعي لحظوظ تملك الأشياء المميزة المعنية (في هذه الحالة السمعة والألقاب...). إستراتيجية، والتي هي الممارسة، تفترض شيئا ما من مستوى رأسمال ولكنه رأسمال في بعض جوانبه يحرم ويمنع الأشكال الصريحة من الحسابات. علم اجتماع الأدب الذي يرى ممارسات الإنتاج (والاعتراف) من خلال المنتجات والأفعال ذات الصلة (اتخاذ موقف جمالي ولكن أيضا أخلاقي أو سياسي) ليس إلا حالة خاصة لنظرية أعم ألا وهي اقتصاد الأشياء الرمزية. هذا البعد الآخر للإنعواد يمكن إذا أن يكون موصوفا وموسوما باقتصادي.

وأخيرا مكنت عدة أبحاث من توضيح جانب آخر من الإنعواد، الجانب الفئوي الذي يهم بالخصوص منطق ترتيب العالم من خلال عدد قليل من الخطط المعممة والقابلة للنقل.على عالم الاجتماع أن يفكر في الفئات المتلازمة مع الممارسات إذا أراد فهم أشكال التجربة الأهلية للعاملين وتفادي الخطأ الذي يتمثل في منحهم شيئا ما من وضوح الذهن "العلمي" حول أنفسهم: متعارضات العالم الاجتماعي لا تنفك أبدا من هيكلة العقول ولكنها تظهر بتفاوت في الشكل المغير للتصنيفات الإداركية أو العرقية أو الجمالية. في خاتمته على ترجمة كتاب إرفين بانوفسكيPanofsky حول الهندسة المعمارية القوطية والفكر

المدارسي[1]، وهو كتاب جيد لإبراز القرابة البنيوية بين المجالات العلمية، وفي هذه الحالة الهندسة المعمارية واللاهوت العقلاني، أكد بورديو بالخصوص مستيعدا مصطلحات بانوفسكي حول "القوة المكونة للعادات" كونها مبدأ هيكلة محتويات مختلفة ظاهريا (للمعنى العادي) وبالتالي غير مختزلة إلى تلك المحتويات التي تجعلها ممكنة. بعبارة أخرى لتفسير انتظامية الملاحظات في الأعمال التي خلال التحليل يمكن في أحسن الأحوال أن تبرز بنية سطحية، يجب الوصول إلى نحو عميق قادر على تفسير التناظر بين المناطق والفضاء الاجتماعي (احتمالا تناظر ذي درجة استقلالية متباينة) وبالتالي التنقلات والتحولات في هذا الفضاء. زيادة فقد أؤكد على دور المدرسة في التحصل على الإنعواد وبرنامج تحليل كان قد رسم ويقترح الابتعاد عن عقيدة المبتكر الوحيد واعتبار آليات غير شخصية غير مرئية لكثرة ما هي مستبطنة وجماعية في إنتاج المنتجين. هذا الجانب الفئوي كان بالطبع مركزيا لعلم الإبداعات.

فكرة الإنعواد المتأتية من الأبحاث التي تمت على أرضيات جد مختلفة ليست نتاج تعريف افتتاحي. ومختلف الأبعاد - ترتيبية وتوزيعية، واقتصادية وفئوية- التي كانت قد ميزت لحاجيات العرض بغية تفسير الجوانب المحددة لأشياء المعرفة هي بالطبع لصيقة الارتباط في العمل الميداني. نلاحظ مثلا أن التصنيفات التي أنجزها فاعل اجتماعي هي مشروطة بالموقع الذي يتبوؤه في الفضاء الاجتماعي ويستمده من هذا الموقع الذي هو تعريفا نسبي، قيمة محددة.

---

[1] المدرسة هي المدرسة المعروفة وقصدنا تمييزا بالمدارسي والمدارسية التفكير "المدرسي" في القرون الوسطى السكولاستيك.

رفض البدائل النظرية

مفهوم الإنعواد الذي عرضناه بإيجاز يمكن أن يفهم في منطقه العملي كوسيلة فكرية تسمح بالإفلات من البديل النظري الذي يهيكل الحقل الفلسفي ويفرض عليه حدوده. يجب إذا الرجوع إلى الظرفية النظرية التي ابتكر فيها هذا المفهوم. إلا أن نصوص كاتب التي تسمح كلها بتمرين قراءة طموحه الرئيسي هو تحديد قصدا نظريا في حالة عملية وكممارسة. ومن كتب بورديو أمامنا الأقل واحد (ولا يعني ذلك أنه الوحيد)، هو بداية التطبيق العملي (المقدمة وتوطئة الكتاب1)، الذي يلائم أحسن هذا المتطلب. وهو نص مفيد لسببين. فمن جهة لأنه يشير بصراحة إلى تقليدين فكريين كبيرين، ضدهما تشكلت نظرية بورديو وكذا قياسا عليها تشكلت نظريته، وهكذا فالكتاب يسمح بتوضيح خصوصيات العلاقة بالحقل الفلسفي. ومن جهة أخرى فلأنه أبعد من محتواه الحرفي، هذا النص له أهمية إبراز الخطط العامة والقابلة للنقل المستعملة في معالجة لانعكاسية البدائل النظرية التي تفرض نفسها في ممارسة البحث. في التطبيق العملي حيث يتعلق الأمر بمعارضة بين الموضوعية والذاتية كما في عدة نصوص أخرى، بالذات التي تهتم بالتعارض بين التقاليد التي تفضل علاقات المعرفة والدلالة والتقاليد التي تفضل السلطة بين المجموعات، وإن رفض البديل يتبعه موقف تقريبا ليبنيزي لفهم (أكثر منه لتوفيق) المتعارضات الذي يتمثل في كشف مقدار العقلانية التي تتضمنها وجهة نظر وإظهار أن الصراع بين الرؤى المختلفة تستمد انتماءها ليس من المنطق البحث بل من القيود الاجتماعية، التي لا ترى كما هي، لزاوية النظر.

وسلفا ففي مدخل إلى كتاب فن متوسط -وحيث يؤكد عابرا بأن المرامي النظرية الكبرى كانت حاضرة منذ البداية- يقترح بورديو أول مسودات للأفكار التي ستصبح مركزية في كتب مخطط نظرية للممارسة وفي التطبيق العملي: آن الأوان لتترك علوم الإنسان للفلسفة البديل الوهمي بين ذاتية عنيدة في بحثها عن محل الانبعاث البحت لعمل مبدع غير مختزل إلى الحتميات البنيوية، وبنيوية جامعة وشاملة موضوعية تدعي توليد البنيات مباشرة

ولادة عذرية نظرية...أليس سقوطا في سذاجة ذاتية أو شخصنة التذكير بأن الشروط الموضوعية لا توجد ولا تتحقق واقعيا إلا في وبواسطة هذا المنتج واستبطان الشروط الموضوعية التي هي نظام الاستعدادات".

في مقدمة التطبيق العملي (ص: 11) وبلا شك أكثر من أي مكان آخر، يوجد التأكيد على أحد أهم إنجازات المنهجية البنيوية (أو كيفية التفكير العلائقي) الذي ليس إلا إفراغ جوهر النظرة إلى العالَم الاجتماعي. وعلى خطى دوركهايم وموس فقد ساهم كلود ليفي ستراوش في تغيير وجهة نظر المراقب بإبراز كل ما نربح في البحث عن تفسير ليس النواة التي لا تنفصل للوعي الفردي ولكن في أنظمة منظَّمة وحدتها المثالية البحتة هي باستعمال مصطلحية سوسير الاختلاف. وشجع علم الأناسة على العمل ليس فحسب على مرامي مقصدية، وهي أرضية جنة التأويل للفلاسفة، ولكن على تجريد أنظمة تبادل للأبوة الأسطورية حيث تتدخل تناظريا أبعاد متفاوتة الكونية والمتكررة، ذكرا مقابل أنثى، سماوي مقابل أرضي، شمس مقابل قمر، شتاء مقابل صيف، جاف مقابل رطب الخ. استخراج الثوابت البنيوية في العوالم مميزة منطقيا للطبيعة وللمنزل أو للجسد تمثل تقدما كبيرا مقارنة بالحدس العفوي الهاوي والشعبي أو "العلمي". والمنطق الشامل والفكروية مقربان فيما بعد من البنيوية كانا لهما على الأقل في هذه الفضيلة أي تشجيع الاهتمام الدقيق بعمل البناء الرمزي وبأقسام الفهم معتبرة بشكل ما في حالة وحشية أي في حقيقتها الإدراكية الأصلية سابقة لعمليات التشكيل "العلمية".

في نظرية الممارسة يمكننا بالتأكيد أن نرى كما يدعونا بورديو إلى ذلك، ردة فعل ضد الأسلوب البنيوي الذي يدفع إلى حدودها القصوى ببعض نتائج الثقافة النظرية لكتاب أقرب من قطب الثقافة العلمية، ولكن شرط أيضا رؤية مقدار جزء ما استمدته ردة الفعل هذه من مواردها من التقليد المعارض، تقليد الظاهراتية والوجودية. وكزملائه كان بورديو متعودا على هذا العالم الفكري كما تشهد بذلك أولى مشاريعه الفلسفية التي هي مساهمة في

تحليل الانفعالات، وهو موضوع مركزي عند سارتر وكذا ميرلو بونتي. مع كل حدود إنعواد فلسفي متعود على معالجة التجارب المولدة للإنسانية، كان ميرلو بونتي أحد الفلاسفة الـذين ذهبوا بعيدا في إلقاء الضوء على خصوصية التجربة العملية. مصارعا في نفـس الوقـت علـى جبهتين، ضد المذهب الطبيعي الـشيئي وضـد الروحانيـة الفكرويـة[1]، وكـان يقـترح كيفيـة وصف تكون فيها العناصر الأساسية ليست جواهر مغلقة ولكـن أنظمـة حركيـة: مـستعملا تصورات كليانية جامعة مثل الشكل Gestalt للعلاقة مع العالم، وكان يقصد بذلك إبراز أن أغلب المسائل و απορια, διαπορια التناقض التقليـد الفلـسفي تنـتج عـن وجهـة نظـر "علمية" مرتبطة بتفكيك وحل ما يقدم كوحدة غير مفصولة عن الـوعي العفـوي. الإحـساس والفكرة والمحرك هي مجردة يعزلها التحليل ولا معنـى لهـا إلا نـسبة إلى مـا ينظمهـا في وحـدة مدمِجة ذات هدف قصدي. الإدراك وكذا الحركة والعبارة موقعها في أقل من الموضـوعي أو الذاتي، توجِد العالم ليس ككلية أشياء موجودة 'منشورة بشكل ما لفهم إلهـي' ولكـن كـأفق كل ما هو معطى لفعله: "ملعب كرة القدم ليس للاعب الفاعل موضوعا ...فالملعـب لم يعـط له ولكنه حاضر كحد وعبارة ملازمة لهذه المقاصد العملية؛ اللاعب يلـتحم بـه ويحـس مـثلا بوجهة الهدف آنيا مثل عمودية وأفقية جسده"[2]. أن نقول على طريقة ميرلو بونتي بأن الوعي قبل أن يكون كائنا مفكرا هو كان "أنا أقـدر"[3] هـي أن نعـني أسـبقية تجربـة عمليـة الـتي هـي بالتأكيد مركزة على تلك البؤرة ألا وهي الأنا، ولكن فقـط علـى نمـط مباشـر غـير النظـري انطلاقا من الممكنات التي تحدده.

يمكننا التعرف في تحليلات ميرلو بونتي وحتى في أسلوبها على الإحـساس المتعجـب بالوصول إلى منطقة ظاهراتيا غـير محـددة (لا موضـوعية ولا ذاتيـة) الـتي تمتلـك كـل لـبس

---

(1) ميرلو بونتي، *La Structure du comportement*, paris, PUF, 1990, p. 100

(2) ن.م: 182-183.

(3) راجع حول هذه النقطة المركزية عند ميرلو بونتي، ص: 160 في ظاهرية الإدراك. وكذا عد لتحليل فاكان في فصل "تقديم" بالاشتراك مع بورديو في أجوبة ص: 27.

χιασμός التصالب، التقاطع، باستعمال العبارات التي يحبذها. ولذلك عامل هـذه التجربـة العملية يمكنه أن يوصف تناوبا ككلية متأثرا بالعالم في كل معاني الكلمة، يعني مصابا مسكونا ويتغير به وفي نفس الوقت كممتلك للمبادرة قادر على الارتجال[1]. دون أن يوجد تنـاقض: وهو أكثر ما هو غير متعمد، كالعادة والإنعواد[2]، ربما الشاهد الأحسن على سـلطة هيكلـة. تفترض التجربة شيئا ما كمسبق، فكرة يتبناها ميرلو بونتي ولكنه يبحث في فصلها عن العامل المتعالي الذي عادة ما يستعمل لتأسيسها[3]. معرفة الفـرد لـيس تطبيعـه ولكـن الوصـول إلى المبدأ، الذي فوق تنوع الظواهر الظاهرة الممكنة للملاحظة، الذي يؤسس وحـدتها النظاميـة: وذاكرا هذا المبدأ، "الذي ليس إلا ما نسميه سلوك عام نحو العالم"، يـدعم ميرلـو بـونتي يـدعم فكرة وجود بنية عامة للسلوك لكل فـرد الـتي تعـبر عـن بعـض ثوابـت سـلوكيات، حـدود درجات محسوسة ومحركة، وعاطفية وحرارة، وتـنفس، ونـبض وضـغط دمـوي..."[4] يمكننـا الـتفكير بـأن تـصريحات وتحلـيلات ومفـاهيم مـن هـذا النـوع (الرسـيم، تعـارض الفهـم الفكري/ الفهم المحـرك أو العملـي....)-لم تعـدم مـن التـأثير في المـشاريع الفلـسفية الأوليـة للشاب بورديو بقدر أنها توحي وتلمـح إلى إمكانيـات طريـق نظـري يـسمح بـالخروج مـن الإدعاءات السلطوية للفلسفة دون السقوط في إنكار تجريبي بأشكاله المختلفة.

تحديد ذاتي للعلم العالِم

عدم الفصل بين العمـل العامـل وكيفيـة العمـل، وبـين الموضـوع والمخطـط، وبـين المخطط والسياق: ما قاله بورديو بخصوص ممارسة العاملين يمكن أن يطبق بالطبع أسـبقية في

(1) "بنية السلوك"، ص: 131: "العامل الذي يعرف النقر أو العزف على الأرغن قادر على الارتجال، يعني تنفيذ ألحان حركية التي تقابل كلمات لم يسبق أن رئيت أو لم تسمع قط".

(2) "الوعي ينعكس في عالم طبيعي وله جسد، وكما أنه ينعكس في عالم ثقافي وله إنعوادات" ظاهرية الإدراك، ص: 160.

(3) بنية السلوك، ص: 185.

(4) بنية السلوك، ص: 160-161.

هذا الموضوع من النظرية التي يقترح، الممارسة كما هي. وفعلا سيكون مفارقا ونحن نحاول التعرف على الإضافة الكبيرة للفكرة أن نختزلها إلى وضع فكرة مفهومة معزولة عن ظرف إنتاجها. وحقا إنها شجرة وراثية مفهومية تخلط الحدود التقليدية للمقاربة الداخلية للتعليق "العلمي" والمقاربة الخارجية للتاريخ الاجتماعي، وهو ما يتوجب مثاليا القيام به لفهم أي نوع من الاستعدادات الفكرية الناتجة عن علاقة محددة مع العالَم الاجتماعي يفترضه رفض الطرح (بل المواقف) الفكروية. ويتعلق الأمر باعتبار تشكيل الحقل الفكري وكذا خصوصيات المسار. وبغية إبراز تصورات بورديو، سيكون بالخصوص نافعا مقارنتها مع كتاب مثل ماركس (ماركس أطروحات حول فيورباخ) وفيتجينشتاين وميرلو بونتي - باعتبار الأسماء الأكثر معنوية- لكونه لم يتوقف عن برهنة أن التعميم هو وسيلة لفهم التفرد. إلا أنه يكفي ذكر تلك الطموحات لرؤية ما لها من ضخامة أو استحالة تحقيقها (قابلية للوصول، حجم المعطيات...). ولذلك سنكتفي فيما يلي ببعض الاقتراحات حول نقطتين أساسيتين للنظرية والممارسة -نقد العقل الأناسي والتصور الانعكاسي أو الكوبيرنيكي لعلم الاجتماع-، آملين أن تفهم على المستوى المزدوج حيث تفهم ممارسة فكرية أي مستوى المعرفة النظرية ومستوى العمل على وفي العالَم الفكري[1].

الأبوة العملية لنظرية الممارسة ترتكز بقدر ما إلى تنسيق تجربة نتردد في تسميته نظري. اكتشاف الممارسة هو أولا افتقاد الثقة التي تمنحها النظرية أو بالأحرى فقدان الاعتقاد في القدرة الكبيرة للرأسمال الإدراكي التي يحددها "العالِم". ما هو المعتقد؟ المؤسسة المدرسية

---

(1) لا حاجة للتأكيد على صعوبات مثل ذلك النهج. لقد فقدنا السذاجة التقليدية لكتاب السير الذاتية، وبفضل هذه الرؤية التي أصبحت ممكنة بفضل علم الاجتماع وخصوصا علم بورديو أعرف بأن مسيرة اجتماعية وفكرية لا تحكى ولكنها تبنى. ويجب بالخصوص الاحتماء من الأوهام البعدية التي تتمثل في عكس في البدايات ما حصل عليه أو استملك فيما بعد. وهكذا وبشكل ملموس يمكننا بالذات أن نرغب في تفضيل النصوص الأولى. ولكن بهذا الا نتنازل لما يمكن أن نسميه أسطورة المنابع؟ دون تجاهل الاعتراضات، إنني أخذت الحرية وذكرت جنب الكتابات الأولى نصوصا أحدث ولكن فقط مع بعض الاحتراس: عندما تعطي معلومة لا تجادل حول الماضي وعندما تعطي صياغة أكثر وضوحا على فكرة سابقة وعموما عندما تشهد بوضوح بثبات المصالح والموقف الاجتماعي.

والتي 'العالِم' أحد منتجاتها لا تمنح فحسب المعارف المشروعة بل تضمن شرعية الذين هم مخولون لتملكها وهم باستطاعتهم اقتراح تمثيلات شرعية للعالَم: تضمن على الأقل مثاليا قرينة الصحة التي ترتكز على التقابل مع الأشياء "مثلما هي". السلطة المعترف بها للأفراد المؤهلين تقصي كغير معقول إمكانية الشك نفسها في نشاطها بمقارنتها مع الخصوصيات المتفردة لوجهة نظرهم: بمعنى واضح يبدو أنها لا وجهة نظر عندها:(باستثناء ما يدينون به للحدود الأناسية التي يسهل ذكرها، عواطف وأحكام مسبقة) لأنه تعريفا لا نرى انطلاقا من أي مكان آخر يمكن أن يحدد هذا. وجهة النظر المدارسية، الرؤية المدارسية التي يستعير بورديو من أوستين عبارة، تحدث عنها لاحقا[1]، وتتمثل في الاتفاق العفوي مع مسلمة غياب وجهة نظر[2].

والفيلسوف وقد أصبح أجناسيا في أواخر الستينات كان يمكنه أن يتابع مساره في وهم الكونية 'العالمة' وهذا بقدر ما أنه راكم عدة علامات تفوق أكاديمية. والعمل حول المجتمع القبائلي يسمح له بشكل معقول بالأمل في اعتراف علمي خصوصا من الجهات التي كانت تمتلك السلطة في ميدان الأناسة. ومن هذه الزاوية فإن الدراسة التي أنجزت حول حالة 'الدار'، تناظر بين مناطق الفضاء، فضاء عائلي والجسد، يمكن أن تبدو نموذجية: فهي تستغل عطاءات البنيوية وتعلن برنامجا متناسقا في الأبحاث[3]. وما كان يمكن أن يزحزح يقين الموضوعية كان اكتشاف محدودية المقاربة البنيوية وخصوصا التي هي ناتجة عن روابطها

---

(1) علل عملية ص: 221 وبالطبع تأملات باسكالية.

(2) الكتاب مخصص للحقل الجامعي يعني بطريقة ما لمتشييع من هم عادة يُشيئون، الإنسان الأكاديمي هو في العمق تنسيق نظامي لموقف فكري التي كان حاضرا منذ زمن بعيد في أبحاث بورديو.

(3) 'الدار القبائلية أو العالم المقلوب'. النص نشر أولا في 1969 إهداء في تكريم كلود ليفي ستراوش وأعيد نشره كدراسة لأجناسية القبائل في خطط نظرية للممارسة ثم في ملحق في التطبيق العملي، مسبوقا بملاحظة قصيرة التي تذكر'حدود كيفية التفكير البنيوي' ص: 441.

المفضلة مع الحقول ومجتمعات معينة ملائمة جيدا لضمان وهم ممارسات مسايرة لقواعد[1].

ولعب بلا شك دورا حاسما التنقل بين التخصصات (أجناسية، علم الاجتماع)، حقول ومواضيع ليس في مستطاع فرد واحد أن يتحكم فيها في ذات الوقت. وكان بورديو دائما، مدفوعا وقريبا في ذلك من دوركهايم منه بليفي ستراوش، بطموح علم اجتماعي موحد واحد وبالتالي برفض التنازل على أحد أقطاب هذا العلم. التنقل بين الأجناسية وعلم الاجتماع والتبديلات بين الفلاح القبائلي المنظور إليه في إطار قرية تقليدية وضحايا أزمة "نمط الإنتاج وإعادة الإنتاج الفلاحي" وهم كل على طريقته كادح دوني القبائلي والفلاح البيارني، كل هذه التنقلات خلقت انطباعا بأن الرأسمال النظري للبنيوية لا يمكنه أن يستعمل كما هو ويتطلب مراجعة. وطريقة للحفاظ على هذا الرأسمال بنقله خارج مجاله البدائي كانت إنزال البنيات من برجها الفكري النموذجي حيث تستوطن لحد ذلك الزمن بصبغها على "الأهلي" ولكن على شكل ناقص وتقريبي لتطبيق عملي. وتخلف الإستراتيجية القاعدة. العالَم الاجتماعي منظورا إليه كحكم قوانين مضبوطة ولكنها خفية لشكل من فيزياء رياضية يعوضه تصور مختلف هو بالأحرى من مجال الاقتصاد العائلي: يلاءم عامل مع الحالات بموارد تعلم تسمح باقتصاد عمل ثابت من الحسابات والتفكير. وإذا كنا في هذا التصور دائما أمام عبارات متعارضة أو متعادلة وتناقضات وليدة التقائها (عالي/ أسفل، يمين/ يسار، مقدس/ دنيوي، مذكر/ مؤنث...) فمع ذلك فإن ضعها يبدو كما قد فقد قدسيته: عبارة عن خطط بسيطة، بنيات تعمل بشكل بسيط، ومحدود، ومشروطة؛ ومكانها ليس التفكير الخالص واللعبة الصورية لتآليفها التي لا يمكن لمجتمع حسب ليفي ستراوش إلا يكون تعبيرا تجريبيا عنها ولكنها جسد كشرط نهائي للممكن التلقائي ولتنظيمه؛ ممكن مرتبط بخصائص العاملين وإذا بمصالحهم، ويملأ وظائف اجتماعية؛ وأخيرا البنيات الإدراكية هي أبعد من أن تكون

---

[1] ليس هدفي الحديث هنا عن الانتقادات التي وجهت لفكرة القاعدة التي هي من ثلاثة مستويات: غير ملاءمة الفكرة لوصف الواقع الملاحظ واللبس الداخلي والنتائج في موضوع الأهداف العامة لعلم المجتمع.

مطلقة على شكل متعاليات يجب أن تربط بالبنيات الموضوعية أو إذا فضلنا بالمتعارضات المكونة لمجموعة اجتماعية بقدر ما أنها تنتج عن قيود غير مبنية فقط في "التفاهم البشري".

في هذا الصراع ضد الموضوعية والفكروية البنيويتين، تبدو الثقافة الفلسفية أنها تمنح وسائل وشرعية ما فكرية. وهكذا يمكننا التعرف في نظرية الممارسة على شيء من فكرة التواجد في الكون الخاص بالفلاسفة الظاهراتيين والوجوديين. وبورديو الذي اقترح العديد من الوصفات النموذجية للتجربة المعاشة لم يتوقف عن التأكيد على تصور لعلم الاجتماع كإعادة تملك العامل لدفة هذه التجربة التي هي أصلا (اجتماعيا) وضعت تحت خانة الاستلاب. العامل هو أبعد من أن يكون هذا التعالي الجذري الذي يتحدث عنه بعض الفلاسفة، فهو وسط ومحاط بعالم لا يمكن إبقاؤه على بعد ويفرض عليه أفقا ممكنا من الأعمال (تحمل والقيام وتأجيل وإلغاء...)؛ يتشكل عبر وبواسطة الانشغال المسبق. ولذلك فإن تجربة العالَم الاجتماعي لها أنماط وكيفيات أساسية - وكيفيات هنا بالمعنى المزدوج لطرق الكينونة ومنطق الكيف- التي تشكل تدرجا: ثقة، كسيطرة سعيدة على المحتمل، التوتر كبحث عن ممكن غير مؤكد، التخلي وترك الحبل على الغارب والارتباك كخلط للاستباق. ولوصف بعض هذه الكيفيات، بكيت أو كافكا، اللذان ذكرهما بورديو، ويمنحان تمثيلا أسلوبية أو مكثفة للوجود، يمكن أن يكونا معينا مهما. حقيقة التجارب التي يرغب علم الاجتماع في معرفتها تتجلى أولا على منظورا لها من الداخل في اختبار الوهم والخيبة، معادل عملي للاختزال الظاهراتي: بعد حين نستدرك أننا أسرى اللعبة؛ وعجالة اللعبة نفسها تحدد ممكن التحقيق، حتمية أو بغطرسة، تخفي الانضواء والاعتقاد والالتزام. اللعبة هي مجاز بالتأكيد نابع من التقليد الأخلاقي أو الفلسفي، ولكنها في علم الاجتماع تأخذ معنى خاصا لأنها تظهر على كيفية لكل وشأنه هذا التداخل نفسه للترقبات والاحتمالات والاستعدادات والبنيات التي كان التحليل "العلمي" يكد لبنائها "في حد ذاتها" نظريا. والتفكير في اللعبة يفترض الانفصال عن اللعبة والخروج من اللعبة ليس فحسب حين يتعلق الأمر

بألعاب الآخرين التي قد تضحك المثقفين ولكن أيضا من تلك الألعاب التي هي ألعابهم. ولكن للذي يبحث في التفكير في كل الألعاب تبقى هذه اللعبة الذي يلعبها حيث انهمك في اللعب، لعبة فريدة لأنها الاعتقاد الذي تفترضه يتحقق في علم كل العقائد.

طبعا 'العامل' الاجتماعي الكائن في هذا العالم الاجتماعي ليس مشغولا بهذه المهمات التي هي إلى حد ما غير محددة والتي يتكلم عنها فلاسفة الموضوعية، الأمل والحب والكراهية والصراع... فهو خص بممكن بواسطة خصائص ليست من مستوى نظام مشروع أصيل بحت ولكن التي هي بالأحرى تترتب من الآليات التوزيعية الموضوعية (مداخيل، شواهد مدرسية ...). ولأن كل أفراد مجموعة محددة (طبقة، جنس..) يمكن أن يحدد موقعهم في فضاء محدد من الخصائص التي يقابلها جيدا حيز احتمالات موضوعية، العلاقة مع العالم الاجتماعي موسومة بلا مفر بالكيفيات الأساسية التي لا تقوم إلا بعكس البعد بين امتلاك مجموع الصفات التي تضمن الوصول إلى الممكن الغالي القيمة اجتماعيا والافتقاد التام لملكية هذه الصفات نفسها. الثقة مرتبطة بالمسيطرين الذين يتمثل تفوقهم في قران الكينونة مع لزوم الكينونة، وأن يكونوا مبدئيا أهلا ليكونوا ما يجب أن يكونوا وما لا يستطيع الآخرون على الوصول إليه لأن الجهد نفسه يقوض أكثر مما يستجيب لإدعاءات التفوق (التميز: 286). إلا أن مبدأ الحقيقة الاجتماعية هذا الذي يجعل كل واحد يفهم حدود إمكانياته ليس إلا الإنعواد كاستبطان لحتميات خارجية. استبطان بمعنى أنها تصبح شيئا ما ذهنيا وأيضا شيئا ما عميقا يؤثر في العلاقة مع الذات؛ وأخيرا استبطان بمعنى أننا نتحمل ونقبل بما كتب علينا من مصير.

بتقريب الممكن والمحتمل، الأمل الذاتي والاحتمال الموضوعي، من خلال فكرة الإنعواد، فإن الطريق العلمي الذي يقترحه بورديو ينجز على الثقافة الظاهراتية الوجودية انقلابا شبيها بانقلاب ماركس الشاب على هيجيل: وفي الحالتين تقف الفلسفة شامخة بهامتها، وقد رجعت إلى الواقع ولم تطلق. وحسب وجهة النظر هذه يمكن بالطبع تفضيل إما

المحافظة وإما التجاوز. تجاوز نحو مواضيع جدد ونحو إطار تفسيري لم يكن الفيلسوف قادرا على الحصول عليه أو بل وحتى اقتراحه. الاحتفاظ بوقفة نظرية تتمثل في ربط فهم التجربة المعاشة مع تسليط الضوء على وحدة عامة في الموضوع، ليس رؤية مقصدية بل مصفوفة استعدادات أساسها مسار الفرد: وبوجود هذا المبدأ الموحد يصبح ممكنا تصور في نفس الوقت موحد وليس موضوعي لعلم المجتمع، الإنعواد الذي يعبر ليس عن رتابة توحد ولكن عبر تقسيم إلى مجالات ممارسة، في عوالم تبدوا منفصلة (خاص/ عام، عائلة، مهنة، ثقافة، إرث اقتصادي...)، عن ضرورة إبراز القرابة بين ممارسات نفس العامل في مختلف المجالات والعوالم المعنية وفهم الثقل النسبي الذي يمتلك كل واحد أو ما هو بنفس الشيء ما تضيفه مساهمة ممارسة (ثقافية واقتصادية وعائلية...) إلى الإنتاج وإعادة إنتاج الهوية الاجتماعية للعامل. استلاب الفاعل بنفسه، هو في جزء كبير منه أثر لتجزؤ تجربة العالم الاجتماعي هذه، المعاد المكرر سواء في العلم الموضوعي أو في الظاهراتية. الانقلاب التي أنجزه في علم الاجتماع بورديو تمثل في التخلي عن وهم الفاعل دون رفض فكرة الجمع التي كانت مضمنة فيه مع منحها بالعكس شكلا أكثر قوة (الهوية ليست جوهرا ولكنها قانون تحولاتها)[1].

---

[1] تحديد الهوية بالثابت، دفع بورديو إلى اقتراح تحليل لإعادة الإنتاج (فردي بقدر ما هو جماعي) يحوي دراسة نظام استراتيجيات إعادة الإنتاج إلى ما أبعد من القطيعة الظاهراتية وكذا دراسة شكل حدود إعادة الإنتاج التي هي التحويل (مفهوما كتغير للخصائص بغية ضمان البقاء النسبي في فضاء اجتماعي). هذا التقدم في التجريد (الذي يشجبه كل معارضيه) يشكل مفارقة إضافة في فهم المعنى العام لتجربة العاملين لأنه يخرج من إطار اللعبة الحدود الاعتباطية لخطاب علمي لا يؤدي في غالب الأحيان إلا إلى مضاعفة متعارضات الفطرة العامة. مثلا: حين عالج تملك السكن الفردي، وهو مجال بجدارة مما نسميه تقليديا علم الاجتماع الحضري، اقترح ورديو تحاليل دقيقة حول رهانات هذا الملك وخصوصا دلالة الدار في العلاقة مع صورة الذات ومع مستقبل الأولاد وفي علاقة التبادل بين البائع والزبون الذي من خلال السؤال التقني عن القروض العقارية وهو امتحان شخصي حقا لتعديل تفاوضي، وإذا قبول وتنازل لاحتمالات موضوعية ومصيره الاجتماعي (مجلته أعداد 1990/ 81-82).

"ازدواجية الأنا"

لم يكن ممكنا أن تلهم الضرورات الفكرية الخالصة لتجاوز البنيوية إستراتيجية نظرية تعويضية إذا، كما يعترف به بورديو نفسه، لم تكن زيادة قادرة على أن تعمل وتؤثر بجاذبية مع النبضات المرتبطة بشكل فريد لتجربة العالم الفكري:"على هذه النقطة أيضا ولأكون صادقا تماما أظن أنني كنت موجها بشكل من الحس النظري ولكن أيضا ربما قبل كل شيء بالرفض الجذري للموقف الأخلاقي الذي يترتب عن الأناسة البنيوية للعلاقة العالية الفوقية والبعيدة التي تقام بين العالِم وموضوعه، يعني البسيطة والعادية..." (أجوبة: 176-177). البعد "العلمي" بين العالم الاجتماعي الذي ترفعه إلى قمته الأجناسية البنيوية يبدو مقبولا بقدر ما أن المسافة الاجتماعية بين "العالم" والأهلي كبيرة. معاملة الأجانب كأشياء خاضعة لانتظام لا يدركونها ليس في العمق غير عادي فكريا، لأنه أيضا ولمدة طويلة كانت ناجعة فلما الاعتراض عليها؟ أخلاقيا، التشييء لا يبدو مرفوضا بمقدار كون النظرة "العلمية" للعالَم هي نظرة تقبل على الأقل نظريا التطبيق على الذات (إلا أننا لا نفعل ذلك). بالعكس المسافة الاجتماعية مع الأجنبي هي قصيرة على الأقل من بعض الزوايا، وقد يظهر توتر شديد بين الهويات التي لا يمكن أن توجد إلا محتفظا بها منفصلة، هوية العالم وهوية الأهلي والذي العالم هو أيضا أهلي. ازدواجية الأنا (التطبيق العملي: 30) قد تكون عرضة خطر تشتت. لأنه إذا ابتغينا الوفاء لأزواج عالم فذلك بثمن تنازل ورفض لمن هم في عالم آخر. وهكذا للاحتفاظ بجبة شرف علمي يجب تفضيل مهما كان الثمن اللغة العلمية للقواعد وإن كنا نعرف في النهاية أن تمثيلات المجموعة من خلال القواعد المعترف بها تختلف عن الممارسات الحقيقية؛ وإذا مفارقة يتوجب نسيان كل ما نعرف كمتأصل يعني كمالك مثلا لفكرة "أقل

تجريدا مما عند الآخرين عما هو الفلاح الجبلي" (التطبيـق العملـي: 30) [1]. يجـب خـصوصا تحمل تبعات هذا الشكل من الغطرسة الفكرية التي تعطي للأهلي وضع الموضـوع/ موضـع الفكر غير قادر على عدة أشياء وارتجال تصرفات جديدة والتلاعب بقواعد اللعبة تـأويلا أو بل بالانتقاد وتملك فهم على الأقل جزئي لما يفعل. غطرسة تؤدي إلى السذاجة لأنهـا تعطـي "لعالم" احتكار التأويل الشرعي وتمنع من رؤية أن وجهة النظر التي يتخيل "العالِم" بأنـه نجـح في الحصول عليها على الأهلي قد يكون هذا الأخير سلفا استبق "العالم" وأدمج وجهة النظر تلك في وجهة نظره. الحديث عن العالَم الاجتمـاعي يفـترض قبـول شـكل مـزدوج م التواضـع: تواضع أمام الشكل التقليدي الذي يتمثل في التـصريح بـأن المعـارف العلميـة يترتـب عنهـا تشييىء معقد ودقيق، يجب منح حيز لهذا الشكل الأكثر خـصوصية الـذي يفـرض الاعـتراف بحدود المعارف النظرية نفسها وكذا ثنائية كيفيات الكينونة أي علاقـة النظـري والعملـي مـع العالم الاجتماعي.

وإذا كان العالَم ليس فحسب تمثيلا لمفكر غير مهتم بنفع مادي يمكننـا جيـدا تـصور علم تكون فيه هذه الحدود مكونة من مواضيع علم. يتعلق الأمر بتناول مشروع تنظير "ما هو أن تكون أهليا، يعني في علاقة "جهل المذهب السائد" هـذه، فهمـا آنيـا ولكنـه لا يبـصر نفـسه الذي يحدد العلاقة العملية مع العالم" (ن م: 37). الوفاء مع الأهليين الذي يمتلـك كمـا رأينـا بعدا أخلاقيا يمكن أن ينجو مـن فخـاخ البـديل التعيـسة: ومـا أبعـد أن يترتـب عـن رفـض الموضوعية تحول إلى رؤية تتقمص علاقة المعرفة والذي لإقـصاء نـأي المعرفـة يجـب أن يلـوذ

---

(1) وأيضا اجوبة138 وفي أشياء قيلت 32 . في الترجمة الألمانية لأشياء قيلت (Rede und Antwort) سوهركامب، فرانكفورت، 1992، يذكر بورديور بتفصيل أكثر الدور الذي لعبته تجربته في الجزائر التي جرت خلال حرب التحرير. وإن كان يتقاسم عفويا المبادئ العامة للمثقفين الفرنسيين التقدميين (سارتر..) ومدفوع نفسه بنية الشهادة، فقد وجد نفسه في ذات الوقت غارقا في حقل ملائم لإدراك الهاوية التي تفصل القوالب الصورية السائدة المثقفين بخصوص المتصارعين (الجزائري الثوري، المستوطن العنصري ...) وانطباعاته الخاصة القريبة من التجربة المعاشة، المتصارعون وفئاتهم ومشاعرهم.

بالصمت الصوفي. إن رفض الفكروية الذي يرافق غالبا النية المعلنة للحصول على التجربة الأصلية "لغير العلماء" وهي منبت مختلف أشكال الشعبوية ليست إلا إغراء مفكر مسيطر عليه، الذي يتخيل أنه ينجو من مصيره غير أنه لا يقوم إلا بإدامته بمنطق الاستياء لأنه يرفض ما مُنع عنه أي الوصول إلى النظرية. ومن زاوية النظر هذه، يمكن أن ترى نظرية الممارسة كتعبير مُنظِّر لمحاولة تجاوز تناقض الأنا المزدوجة المسجونة بين النظرية والممارسة، بين العالَم النبيل ومقصي الواقعَ للمدرسة والعالم الدنيْوي الأصلي: يتعلق الأمر بابتكار شكل نظري وتعبيري يخرج عن تأثيرات سيطرة النظرية، بالنظرية، يحيل خطاب حول الممارسة أو بالأحسن ممارسة محتفظ بها في النظرية، وهي الطريقة الوحيدة لمنح الوسائل المحصل عليها من المدرسة استعمالات جديدة وغير متصورة للتقليد المدارسي. بتلخيص: الرهان مع اعتباره حرفيا على علم ممكن لا يستمد سلطته من إقصاء الواقع. أو أيضا تحويل العلم عن استعمالاته السائدة: "ما فعلته في الأجناسية وعلم الاجتماع، قال بورديو فيما بعد، فعلته على الأقل بنفس المقدار ضد تكويني وبفضل تكويني" (أجوبة: 176). وهكذا فرفض اختيار بين الأضداد الموضوعية والذاتية، الظاهراتية والبنيوية، الغائية والتلقائية وغيرها من الأزواج ليس تمرينا فكريا بحتا: هو رفض من يحس بانزعاج شبه وجودي لكونه ملزما بالدخول كلية في واحد من العديد من هذه الألعاب الاجتماعية والفكرية ذات المكانين المتعاكسين والمتوازيين، للوصول إلى المكان المعين اجتماعيا وتقاسم وهم كل المنافسين المتوطئين الذي يطيلون ويؤبدون اللعبة بخلافهم وبهويتهم وبتميزهم.

وإذا نقلت إلى الحقل النظري البحت فإن مقاومة الفكروية تأخذ شكلا في نفس الوقت اجتماعيا شرعيا وفكريا معطاء: ضد الفهم "العلمي" النزيه المحايد ولكن بسلاح العلم، وكان علم الاجتماع مدعوا للدفاع عن الحقوق "الأهلية"، للعمل، للمصلحة، للجسد، للسعادة ....؛ مكذبا التمثيل "العلمي" المسيطر للتجربة الأولى، وأكد على القدرة وواجب خدمة التخمين في التجربة، واقترح بحكم الواقع عدة أمثلة لهذا التوجه هي ما بعد ظاهراتية

بشكل ما، مع وصف أقرب للملموس واقعية (بروليتاريا دونية، فلاحون، طلاب بورجوازيون...). وبطريقة ما هي الموارد الشرعية للثقافة الفلسفية التي استعملت لنقض تأثيرات الإقصاء "العلمي" لواقع التجربة. ثقافة حاضرة فقط "على شكل عملي" يعني ليس فحسب بطريقة وسائلية حرة وفي نفس الوقت لا مبالية في نظر المثقفين ولكن أيضا بطريقة صامتة، مجتهدة وصامتة إذا أردنا، الطريقة الوحيدة الفعالة للالتفاف على تلاعب اللافتات النظرية التي تؤثر بقدر كبير عادة على الصراع من أجل السيطرة الفكرية والثقافية. وحين ظهر البيانات النظرية لألتوسير (1965) وفوكو (1966) فإن هذا التحفظ المتعمد على النقاشات التي سيطرة على المشهد الثقافي كان بالتأكيد ممكنا أن يفهم غلطا وعلى كل حال أن يعتبر كتأكيد لعدم أهلية الفلسفية لعلم الاجتماع: كل شيء جرى بالنسبة للمسيطرين في المرحلة وكأن هذا التخصص كان محكوما عليه بالتجريبية الباهتة عديمة النكهة وأن مواضيع "قارة التاريخ" (باستعمال عبارات ألتوسير) تنتظر الوسائل الأكثر تدقيقا التي تقدمها المرجعيات النبيلة من "حفريات" و"ماركسية" و"أناسة" (التي تحس كثيرا "بإنسانها"). كان لا بد من وقت ليرى في الرفض الذي يحوي أيضا نظرة لما يمكن أن تكون "ممارسة نظرية" (بعبارات ذلك الوقت) ليس نقصا ولكن بالأحرى شرطا للابتكار الفكري[1].

علم اجتماع كوبرنيكي: تشييئ فاعل التشييئ.

إن قراءة داخلية تقصي السياق كما هي أغلب القراءات "العالمة" يمكن دائما أن تأمل اكتشاف في الماضي سوابق فلسفية للنظرية الاجتماعية للممارسة. وقد نجهد أنفسنا لنتدبر(إذا

---

(1) النظريات هي برامج أبحاث ا تستدعي ليس النقاش النظري ولكن الاستعمال العملي القادر على نفيها أو تعميمها أو أحسن تخصيص وتميز إدعاءاتها بالعمومية. أجوبة: 56-57. في مؤلف مهنة عالم الاجتماع وهو تعليمي منشور، بلا شك متأخرا، في 1968 جاء ليذكر على طريقته برفض موقف تجريبي في علم الاجتماع بتقديمه، في التقليد المعرفي الفرنسي، لأسبقية النظرية.

لم نتسل) لتحديد مكان بورديو في تقليد ثقافي. ولكن قد نخاطر كثيرا ولو بكل الشواهد الممكنة بنسيان الأساسي: تسليط الضوء على كون فرق علاقة النظرية وعلاقة الممارسة مع العالم ليس لها معنى إلا حسب النتائج التي نعينها للبحث. والفيلسوف الذي ينطلق مثل ميرلو بونتي في اكتشاف عالم الحياة ينشغل كثيرا بالبحث عن الصيغة التي تسمح له بالالتصاق، بتجاوز مصطنعات المعرفة، مع الأشياء نفسها، والتي مفارقة هو غير قادر على التشكيك في المنتجات "العلمية" ويتركها إذا في حير اللا معقول. وبعد أن لاحظ ثنائية غير مختزلة يختار ببساطة الوقوف في جانب التجربة الأصلية التي لا يمكنه حقا تفكيرها كما هي، لغيبة استعماله وسائل العلم: ويدور الفيلسوف في دوامة بين النظرة الموضوعية المرفوضة والتجربة التي تتوارى مثل أرض موعودة، وبما أنه لا يرى نفسه بنفسه، رؤية نظرته إلى نظرة الآخرين، فإن تجربته الأولية تتقاسم مع عكسها الموضوعي وضع المصنع "العلمي". وبالنسبة لبوردبو عالم اجتماع فإن نظرية الممارسة لا يمكن أن تكون متينة إلا إذا كانت أولا نظرية لممارستها الفاعل العارف. التعرف على الأهلي في هويتهم الأخرى، كآخر، غير كاف طالما نقصت الحركة الإضافية المكلمة وهي العودة للذات.

رجوع إلى الذات الذي له عدة جوانب لصيقة. أولها يتعلق بمقاربة الحد الذي يفرضه على وجهة النظر "العلمية" واقع أن الأهليين ليسوا محددين بوضعهم كموضوع فكر، مواضيع وجدت ليخمن فيها وأنهم محددون، بالعكس فبالعلاقة مع ممكن يهمهم والذي لهم نفع فيه حسب درجات مختلفة؛ وحسب تجربة فريدة اجتماعيا قليلة الاحتمال، وعلى عالم الاجتماع أن يترك قضاياه كملاحظ مكون مثقف ومستنير إذا أراد معرفة علل منطق، وبالتالي الضرورة[1] عند الآخرين، أو ببساطة الوصول إلى فهمهم العملي الذي يستوطن أفعالهم

---

(1) التقليد الفلسفي الذي يعارض العلة والطبيعة، التخيير واللزوم ... يميل إلى جعل مفهوما المنطق العملي لأن هذه لا تموط بعلة غير مجسدة مواجهة لإمكانيات مجردة، ولكن تلاقي بين سلسلتين مسببتين: سلسلة موضوعية ومشروطة=

وكلامهم. وكما برهن على ذلك فيتجينشتاين ما يجري لأسطورة الأهلي يمكن أن لا يكون إلا مصطنعا "علميا" يخفي الأساطير المسجلة فعلا في اللغة ونظرة الملاحظ[1]: ممارسة الآخرين ليست لا تعبيرا عن جهل كما يؤكد فرازرFrazer ولا لعبة متفاوتة الشفافية لقواعد متعالية كما تقول البنيوية الفكروية ولكنه ببساطة ارتجال محكم ومشروط ذي حدود موضوعية وذاتية وله ثوابته (استباق، تحد، تفاهم، تنازل....). يصل الفهم "العلمي" إلى فهم الآخر ليس رغم المعرفة الموضوعية بالقضايا ولكن من خلالها، لأن هذه المعرفة التي تعطي مبدأ علل القضايا الأهلية هي الوسيلة الوحيدة الواقعية لإقصاء الإغراءات الوهمية للتكبر والتنازل والغرائبية ولو المتعاطفة. شرط لظهور الأخر، تَشْيِيء التَّشْيِيء هو التَّشَيُّؤ ومن ذلك تجاوز العواطف بما فيها العواطف الفكرية التي يعرفها العارف ويستمدها من وضعه الخاص. لوصف هذا الموقف المفارق وهو موقف التشييء الشمولي تبنى بورديو مؤخرا، وكأنه تحرر من الرقابة على المفكر الحر، عبارات "الحب الفكري" وبل "التمرين الروحاني"[2] التي تأتت من أفاق فكرية مختلفة عن الأجواء اللا دينية لعلم الاجتماع. وبعد محو المسافات المزورة لتشييء الآخر قد يعترف عليه كأنا آخر: وكأنا لأنه يظهر لحد ما سمات عامة مولدة وتجارب متقاسمة، الشرف والكرم والحشمة والارتباك...؛ وكآخر لأنه أيضا مؤسس بسبب و/أو لضرورة أنها ممارسة الآخر، تنتمي لعالم غالبا ما هو غريب، يتعلق الأمر بتملكه بواسطة الفكر فقط. إلى الفعل النهائي للكتابة يجب على عالم الاجتماع التفكير في الواجبات التي يولدها له وضع هذا الأنا الآخر المشيأ. ولكن هذا المشكل الجوهري وهو مشكل علم الاجتماع لا يقبل بوصفات معيارية علما بتنوع المواضيع والحالات: كل حالة تظهر تفردها

=(الدخول إلى متحف، التخرج طبيبا...) وسلسلة الاستعدادات الذاتية التي أنتجت بنفس الشروط مثل الأولى وتساعد على التغيير مع مآل يمتلك أكثر حظوظ التحقق، فقدان الملاءمة المحتملة هو طبعا نفسه قابل للحكم عليه بتحليل علمي.

(1) فيما يخص علم الاجتماع عد إلى مقالة بورديو بالاشتراك مع باسرون ذات العنوان الموحي: علماء اجتماع الأساطير وأساطير علم الاجتماع في العدد 211 من مجلة الأزمنة الحديثة، 1963.

(2)

على مستويات ثلاثة المعرفة، وعلاقة عالم الاجتماع مع الموضوع المعتبر وأخيرا اللغة المخصصة لرواية تجربة المعرفة هذه.

وثانيا يفترض علم اجتماع إنعكاسي إمكانية تشييئ وجهة نظر "العلمي" ومن خلال هذه الوسيلة الأساسية التي هي علم المنتجات الرمزية: اقتراح القيام "بعلم اجتماع ثقافة" لا يتمثل ببساطة في الاهتمام بفئة اجتماعية خاصة من الأشياء، إذ أنه أولا فهم شروط إمكانية، غير معزولة عن تعالية وتاريخية، للتمثيل "العلمي" للعالم الاجتماعي (ولمعرفة العالم الاجتماعي). لم يتصادم في بدايته بيار بورديو مع حقول مشكلة كنبيلة في التقليد الفلسفي (وبهذا الصدد فإن المقارنة مع الأشياء التاريخية لميشيل فوكو نافعة)، ولكنه اهتم من خلال التقصي الميداني والمتواضع حول الطلاب والثقافة بالشروط المسبقة لعلم اجتماع الفاعل العارف. ووصف الطلاب كان تحت غطاء الكلام فقط عن المتعلمين وتحديد شروط وكيفيات التفوق المدرسي والثقافي التامين عند المعلمين والزملاء، وإذا اقتراح على الأقل على شكل مسودة مخطط وسائل لتحليل اجتماعي؛ وكان السماح بتشكيل كموضوع عادي تحت حكم عمليات عادية للمعرفة أفرادا بارزين الذي وتحت طائلة المس بقدسيتهم لا يسمحون بتناولهم والتفكير فيهم إلا على شكل استثناء وأعلام. القطيعة مع الأجناسية المتقوقعة "العليمة" بدأت في الأعمال حول الجزائر، حول أميي العالم الثالث ووجدت توسعها، وهو منطقي، في أعمال تالية حول ممتلكي الثقافة والمتعلمين[1].

---

(1) كتاب الإنسان الأكاديمي هو القمة على الأقل بمعنى السيرة الذاتية، لشكل "تجريب معرفي" بدأته بشكل واع في بداية الستينات عندما طبقت على عالم مألوف طرق التقصي التي استعملتها سابقا لاكتشاف منطق علاقات القرابة في عالم غريب، عالم الفلاحين والعمال الجزائريين" أجوبة: 47. التطور المقصود في أعمال النضج موسومة بتزايد المنافع العلمية المرتبطة بالاعتراف الثقافي. في حين أن الأبحاث الأولية في علم الاجتماع المبنية بشكل كبير على تحليل (بالإحصائيات والحوارات) مجموعة مجهولة تتماشى ظاهريا مع التعريف السائد في التخصص، والأعمال التالية حاولت تدمير الحدود بين التخصصات بتشكيل كمواضيع معرفة علمية أفرادا لهم اسم علم وإذا مزية التفرد (فلوبير، هايدجير وماني...).

توجد بين مختلف الأبحاث قرابة منطلقها ما هو إلا مسألة الإرث وتكونـه ونقلـه[1].

في مكان ما من العالم الاجتماعي ومهما كان فإن الوارث لـيس فحـسب صـاحب منفعـة أو ميزة ولكنه العامل وكما هو بحد ذاته فله قيمة معبرة أو منتقِدة للتلاؤم الأقصى بين نظـامين، أحدهما خارجي وهو توزيع حظوظ التملك والآخر داخلي وهو الطموح إلى المـصير الـذي اختير له أو خصص له؛ فهو المستعد والمهيأ للحصول على ما يدعيه وما جعل لـه. وفعـلا لا تتشكل الأشياء كما هي إلا في علاقـة التملـك الـتي تفـترض ملاكـا محتملين معـترف بهـم ويتعرفون في ذواتهم أنهم أهلا لتملكها. وفيما يخص علـم الاجتمـاع الثقافـة فـإذا اكتـشف أيضا وارثيه فببساطة لأنه لا يقوم إلا بتوسيع على مجال خاص تحليل البنيات الثابتـة لتجربـة العالَم الاجتماعي بأشكاله القصوى، ألفة الأهلي ومحنة الأهلي والمنبـوذ. يتعـارض الـوارث سواء مع المنبوذ ومع كل آت جديد ووصولي. ولهؤلاء المختارين غير المحتملين، الوارثين مـن أصول شعبية، تقترح والمدرسة آباء جدد، آباءها، يعني تمنح لهم أبوة ومصيرا منذور الخدمة لا يمكنهم تفاديه حقيقة إلا في تحد علم أخرج عن مجراه وإذا فغير محتمل والذي هو ببساطة علم هذه السطو الرمزي نفسه الملطف والشرعي.

لم يتوقف بيار بورديو عن التنقل في فضاء الممكن في مجال الوراثة، من محرومي العالم الاستعماري إلى الوارثين المتخمين، مدراء أعمال كبار أو عينة من الإنسان الأكاديمي، مـرورا بالوارثين بلا مستقبل في الأراضي المهجورة، وبهؤلاء الـوارثين التعـساء الـذي جلبـوا علـى الشجاعة والإقدام الشرعي تحدث أحيانا "ثورات رمزية". لم ينطلق من فكرة مجردة حول بنيات أو مؤسسات الاجتماعي وترابطها ولكن من مجموعة تحليلات ملموسة على كيفيـة التملـك التي تحدد سواء الوارثين أو الإرث. إن دراسة النظام الجامعي سمـح لـه لـيس فحـسب مـن اتخاذ كموضوع العلاقات بين الهرمية المدرسية للقيم والهرمية الاجتماعيـة للإنعـوادات، وإذا

---

(1) علم الاجتماع الذي يقترحه بورديو يمكن أن يزعج بعض المثقفين لأنه يتوجب عليه صراع دائم ضد ادعاءاتهم في التفكير "بلا ارتباط" (موضة الشخصيات "الثائرة" أو "الهامشية" أو "الغريب" و"الاستثناء").

تسليط الضوء على آليات الانتقاء المدرسي، ولكن أيضا استخراج بغية تفسيره، هـذا البعـد الذي يورث ويتكاثر ويتناقض ويندثر، شيئا مثل رأسمال ولكن في شكله، لحد الآن، لم يشك في كونه رأسمالا ثقافيا، بُعد لم يُشَيّأ أبدا تماما (عكس الرأسمال الإنساني) يحمل علامة الذين يتملكونه بطريقة شرعية وطبيعيـة وعلامـة الـذي يثبطـون إذا لم يردعـوا ادعـاءات الـدخلاء المحكوم عليهم بالتحول التام. طريقة الكينونة التي تحدد الإنعواد هي طريقـة للحـصول علـى الملك (علل عملية: 170) واستغلاله، طريقة للتملك حيث يندرج ويشار إلى الزمن، القـدم، أو زمن الجهد والتعلم وحيث أيضا يعلن الزمن، مستقل مـضمون ومؤكـد... وبطريقتـه وفي مجاله يعيد عالم الاجتماع اكتشاف مبـادئ النقـد الليبنيزيـة للآليـات الديكارتيـة، وخـصوصا رفض قبول خارجية البحتة للحركة، لأنه خلف المواقف الآنية والحقائق المرحليـة المعروضـة للملاحظـة التجريبيـة يبحـث لتمييـز القـوة الـتي هـي نوعـا مـا خفيـة للحركـات الـسابقة والإحساس بالحالات المقبلة، بتلخيص وحدة حركية لطاقة أو جهـد؛ الحقيقـة ذات صـلة لا يمكن أن تكون حقيقة المسارات[1] لأن الأفراد المعنيين لا يكشفون تماما هويتهم إلا إذا أمكننا عرض توزيع مع الزمن لقانون تبدلهم، صيغتهم. الرأسمال هو هذه القيمة الموزعـة والمتاحـة بشكل غير متساو والتي لا تمتلك آنيا وتفـترض وسـائل تملـك. ولا أحـد يمكنـه الحيـاد عـن قانونهـا[2]: ولا أحـد هـو فاعـل خـالص منبـع الاختيـار والعقلانيـة. وبمعنـى آخـر العـالَم الاجتماعي مليء بالوارثين إذا صح غياب الإرث فهو على الأقل ما نرث.

وإذا كان كتاب الوارثون (1964) مبتكرا فلأنـه أولا ابتكـر طريقـة للحـديث عـن الثقافة تبرز الفرضيات المسبقة للممارسات المزروعة وسط مجموعة الطلاب وبـالطبع الهـدف أبعد من ذلك: في حين أن الخطابات المـسيطرة حـول الثقافـة تـرتبط بالاعتبـارات الداخليـة للمحتويات فإن وجهة نظر العلم تفترض بالعكس تحليل العلاقة مع الثقافة في أنماط تفوقهـا

---

(1) لذلك فتحليل ظروف النقل للرأسمال الثقافي يسمح بفهم أحسن لتكوين الإنعواد وظرف الوارث.

(2) هذا التعبير العام لا يجب أن ينسينا وجود عديد من أشكال الرأسمال، تقابل تعدد العوالم المميزة اجتماعيا.

وفي مختلف الكيفيات. ومن حينه ينفتح للتقصي مجال شبه رسمي خفي لتصنيفية ممارسات، تصنيفية اللباقة المتعلمة مع الهرميات (الشرعية/غير الشرعية، الحرة/المدرسية...)، تعارضها وتعادلها (الجاز والسينما القريبين بوضعهما من الحقول غير المدرسية إلى طلاب الأدب البورجوازيين). في حين أن الفكر الهمجي الذي حلله ليفي ستراوش يكن بجزء من نجاحه الثقافي خصوصا بين الفلاسفة إلى تأثير المسافة التي يسمح بأخذها، ودراسة لما ليس معقولا الثقافي تفرض عملا حول الذات يتمثل في القطيعة مع الأفلاطونية العفوية للمثقفين. وتتغير بذلك المبادئ المعنوية كثيرا. فلم تعد محمية باللياقة الأهلية، والأشياء الثقافية وحتى النابعة من عوالم جد مختلفة بتعريفها الاجتماعي غذت مقربة بمساواة مبدأ منظّم ألا وهو الإنعواد العامل سواء في العقل أو في الجسد الذي يؤثر في حركاته، المحافظة ولكن أيضا الأذواق (سلبا أو إيجابا): بين الحديث وسط جمهور حول سارتر والحديث في السياسة في مقهى، تتبع كعارف مهرجانا سينما ثقافية ولباس مريح ومدروس، توجد علاقة قرب اجتماعية مؤكدة التي تزعزع التمثيل الرسمي للهرميات الثقافية والمعتقدات المرتبطة بها.

وأبرز في هذا الكتاب لحد ما، ثابت أساسي سوف يحدد ويطور لاحقا وهو إنعواد المسيطَر: من خلال تغيرات المجال والظرف، يميل التفوق دائما ليكون موسوما بسمات مثل الراحة والطبيعي والفطري واللباقة والسمو وهي علامات تعود مرسخة قدما مع القيم العليا، في ثقة تسمح بالانحياز عن القاعدة والقيود والضرورة. هذه الرؤية تشكك في بعض الفرضيات المسبقة المضمنة في وجهة النظر التي يميل المثقفون لتبنيها حول البورجوازي والتي غالبا ما وجدت في الماضي عضدا ودعما في متعارضات الخطاب التقدمي: مكان صورة معادية، قمعية و ضيقة الملائمة، للبورجوازي الصغير حسب التقليد القديم، إذ أنها تكشف شيئا من التواطؤ، هذا الإحساس بالقرابة الذي يجمع المسيطرين، البورجوازيين والمثقفين، فوق اختلافاتهم الأكثر ظهورا. خلافا للشجب السياسي التي يتميز بوضع مبدأ انشقاق الذي خاصيته وضع مبدأ فرق بين المستغِلين والمستغَلين، علم الاجتماع السيطرة والمسيطرين هذا

يبدع أيضا باتخاذه موضوعا تأثير الشرعية والاعتراف الذي يستفيد منه المسيطر ومحاولة فهم كيف اعتباطية موقف تاريخي مشروط يستتر ويختفي ويعتبر طبيعيا وعاديا (ما ذا سيكون مسيطر بلا عادي؟) وإذا كونيا متحملا.

الأسبقية المولاة للتطبيق العملي على شكل علاقة مع الثقافة تحوي بل وأحسن توضح ثورة في التمثيل العلمي للعالم الاجتماعي، ويمكننا وصفها بكوبيرنيكية: المعرفة الموضوعية تتضمن معرفة شروط التشييء. التفكير في ظرف الوارث لم تكن تناولا لموضوع من بين أخر، بل كانت منح إمكانيات حرية فكرية نحو كل إرث: إبراز الشكل اللا معقول ليس فحسب بطريقة المنظرين، في أطروحات سرية لما يسمى "بأكسيدون/ غرب" ولكن في خطط مضمنة (عادية وفعالة) تحدد وتحيط بحدود الفكر الشرعي. والخطر كان كبيرا في خلق خيبة أمل عند كل الذين جعل منهم رأسمالهم الخاص منظرين الذين كانوا ينتظرون من العلم اتخاذ موقف نظري في النقاشات باختيارات معروفة ومعترف بها يكتشفون أن نظرية الممارسة خلقت للتطبيق أيضا على المسائل النظرية وحتى على الفلسفة.

النظرية كمعرفة وكسلطة

سيكون مفارقة بلا شك اقتراح رؤية نظرية خالصة للممارسة عند بيار بورديو، وحين نقول بأن أحد إضافات هذه النظرية هو الدعوة لتناول التطبيق العملي العامل حتى داخل أنشطة التنظير. وإذا أمكن إبراز منفعتها العلمية ألا يكون ذلك ربما بفضل وهم رجعي يدفع لصبغ وضع مشروع فكري على ما بداية كان موقفا ينتظر التفسير والتوضيح والوعي على منوال وعي آني عفوي لنتائجها؟ وهم آخر ربما أكثر دقة: ألا نخاطر بوضع على مستوى نظري خالص نظرية تم تبنيها بالذات ضدا على أسبقية وجهة النظر النظرية؟ لتفادي الاستغلال الفكري الذي يشكله واقع إقصاء النظرية من ذات انعكاساتها يجب اعتبار حالة حقل الإنتاج النظري (في تلاقي الحقل الفلسفي وحقل العلوم الاجتماعية)

ومحاولة رسم شجرة وراثية عملية لنظرية الممارسة ومن ذلك فهم كيف التنازلات الكوبرنيكية، فإذا كانت تمحي اليقين السعيد للإرث، يمكن أن تعويضه بطريقة أخرى. وسيكون من السذاجة تجاهل صعوبة مثل تلك الطريقة ولكن على الأقل يمكننا اقتراح بعض الفرضيات حول النفع الفكري الذي منحته لنظرية المنافسة للبنيوية التي طورها تدريجيا بورديو.

يمكننا بداية ملاحظة علما بأن التمثيل المسيطر للنظرية تأثر بقوة وبشكل مستديم بالثقافة الفلسفية، وعلم الاجتماع خاصة التجريبي كان قد حكم عليه بالإقصاء إلى خارج حدود حقل النظرية. مثلا تساؤل حول الطلبة لم يكن ليقبل إلا شرط أن يؤول وفق الفئات العادية للأجناسية المتقوقعة ثقافيا مع صباغتها العرقية والسياسية: بأي معنى هم بورجوازيون، يمكنهم أن يتحرروا من حتمياتهم....؟ [1]. في حين أن البنيوية الموقف السائد أمام علم اجتماع يحتقره الفلاسفة، تبدو أنها تجسد الفكروية في أشكالها الناضجة بكشفها المنطق الصارم والمعقد العامل في القرابة، التبادل أو الأسطورة، رفض هذه السيطرة يفترض نظرية قوية يعني قادرة على دمج الإجازات مع إبراز محدوديتها. التعبير عن الفارق بين القواعد الرسمية (مثلا في ميدان التحالف والقرابة) والممارسات الملاحظة قد يظهر أنه غير كافي طالما أن هذا الفارق الملاحظ لم يكن مشكّلا في موضوع معرفة. غير أنه ذلك كان بالذات مقصود نظرية الممارسة: يتعلق الأمر بالحصول على نظرية تسير أبعد من سابقاتها المتهمة حسب بورديو بتفريط كبير (فن متوسط: 17)، بل نظرية تصل حتى إلى فهم ما كان يبدو الأكثر استعصاء على الفهم "العلمي"، التجربة المعاشة للأهليين. وهذه لا يجب أن تعتبر كبقايا ولكن كجزء مدمج من الحقيقة: الحقيقة الموضوعية وقد كشفت عنها النظرة "العلمية"

---

(1) حول هذا النقاش النظري السياسي كما ينعكس بين منظري الوسط الطلابي عد لتحاليل بولتانسكي *Les Cadres. La formation d'un groupe social.* الأطر تكون مجموعة اجتماعية، باريس، مينوي، 1982 بالخصوص الفقرة المتعلقة بجامعة السوربون في الستينات.،ص: 358.

تستوطن دائما الوعي أو اللاوعي العاملين أو إذا فضلنا تكيفهما ولكن فقط على شكل تورية أو نكران ورفض، حالة الإنسان صاحب الشرف في مجتمع تقليدي الذي يبدو أنه يعطي بلا حساب (مخطط: 43) وكذلك الأمر في حالة الطالب المعاصر الذي يريد تمديد بلا حد ولا تحديد لحياة بلا قيود. (الوارثون: 83). إن معرفة الظروف الاجتماعية للجهل تشكل أحد الجوانب الأساسية في العلم إذا كان حقا بأن العالم الاجتماعي يوجد أيضا في موضوعية التمثيلات ووجهات النظر.

وأخيرا كيف لا يمكن رؤية وهي متصورة كبديل للبنيوية، بأن النظرية التي اقترحها بروديو تسمح بتجاوز حدود الحقل وطرح السؤال عن أناسة عامة تحوي الأجناسية وعلم الاجتماع؟ الفرضيات الفكروية للبنيوية يمكن أن تقاس أولا على خصوصيات العوالم القليلة التميز التي يدرسها الأجناسيون، والذين دون إدراك ذلك دائما بوضوح يعملون على حالة قصوى لمجتمع تكون فيها علاقات القوة ضعيفة ما أمكن: ومن ذلك مبدأ معالجة البنيات الأساسية من زاوية إدراكية أساسا للمعنى[1]. وبالعكس فإن نظرية الممارسة ولأنها تجعل في المقدمة الإستراتيجية والمنفعة والرأسمال يمكن أن تبدو كأكثر ملاءمة لوصف العوالم المميزة كما هي حالة المجتمعات المعاصرة. والربح العلمي يمكن أن يحصل عليه دون حل تتابع لأنه في كنف المجتمعات الما قبل الرأسمالية نفسها نتعرف على شكل للرأسمال الرمزي له مقابلات في مجتمعاتنا نفسها. هذه الأناسة العامة التي اقترحها في نص نظري ستغير وضع النظرية البنيوية السائدة لحد ذلك الوقت بمنحها وظيفة محدودة وجزئية عمياء كقطب على طول محور: في فضاء اختيارات أساسية فهذه النظرية التي ترتبط بأسماء مثل دوركهايم وكاسيرير وسوسير هي مؤهلة لوصف التصنيفات المنطقية ولكن يظهر أنها فاشلة في التفكير في النضال والصراع والسياسية وهي مهمة أحيلت على القطب الآخر المجسد في أسماء فيبير

---

(1) وجدت محاولات لتكييف البنيوية مع الحقول في المجتمعات المتطورة ولكن يبدو أنه حكم عليها بالانغلاق في شكلانية ومثالية المقاربات العلامية التي تجهد لاستخراج الأنظمة فيما يتعلق بالموضة والنصوص الأدبية.....

وخاصة ماركس، قطب طرح مع حدوده وعماها الخاص. وصف مثل ذلك الموقع كنقطة هندسية كان صريحا:"للخروج من إحدى الحلقتين السحريتين دون السقوط ببساطة في الأخرى... يجب العمل على أخذ موقع في نقطة هندسية لمختلف زوايا النظر، يعني في نقطة حيث يمكن رؤية في نفس الوقت ما يمكن وما لا يمكن رؤيته انطلاقا من كل من زوايا النظر". (ميلاد وبنية الحقل الديني: 295).

ولكن أحد أهم منافع تجاوز الفرضيات المتقوقعة والفكروية كان ربما تحويل قواعد اللعبة وإلزام المتنافسين المجهزين بموارد نظرية لترك ميزتهم الخارجية نسبة للعالَم الاجتماعي. عالم الاجتماع الذي لا يمكنه تناسي أنه يوجد بنفسه "كعلمي" يذكرنا بضرورة اتخاذ كموضوع وجهات النظر التي انطلاقا منها العالم الاجتماعي يرى ويشكل. وضد الهرميات السائدة التي تعيد إنتاج وجهة نظر المسيطرين يقترح ضد ذلك سلاح التدمير وحده الموجود وهو سلاح التشييء التام الذي يمس ليس فحسب مجموع مواضيع الممكن دون أسبقية ولا رقابة ولكن أيضا تشييء هذه المواضيع وإذا في آخر المطاف منتجو هذا التشييء.

إلا أنه لا يكفي كما يقال أحيانا بطريقة متسرعة بجعل الآخرين موضوعا اجتماعيا وجعل أنفسنا موضعا اجتماعيا. إذ يجب أيضا تفسير خصوصية الصراع والمراهنات. ولهذا تجاوز أيضا بديل ألا وهو الخصوصي والكوني، التاريخ والعقلانية العلمية؛ رفض الاختيار بين نظرة متكالبة للمقاصد التي شهرت بأنها خالصة نقية (كقصد "العلمي") والضمير الحسن للمثالية. العلم هو هذه اللعبة الذي لن يكون شيئا دون العواطف، ولكن حيث يولد التنافس أثارا لا يختزل إليها: يمكننا إذا اعتباره إما كمعرفي، في أعماله، وإما كعالم اجتماع. وستكون إحدى وظائف الفكرة التصورية للحقل المطورة لاحقا لفكرة الإنعواد، أن تجعل ممكنا وتؤسس التحليل الموضوعي للمواقف المتنافسة بالخصوص ولكن ليس فحسب في محيط فكري ثقافي. وعوض معايشة الاختيارات والصراعات بكيفية عملية (وأحيانا مؤلمة وعنيفة..) للقبول الآني، فإن التفكير بعبارات الحقل سيكون هذا الفتح الفكري الذي يسمح

من التخمين في وجهات النظر في حقيقتها النسبية: مشككة في ما لا يجادل فيه نظريا والـذي يشكله العلم كمحطة نهائية ويترتب عن هذا ليس بيان عقيدة نسبية ولكـن التأكيـد بـتلازم يعني تاريخية حقيقية مؤكدة لكل المنتجات الثقافية حتى النهائية أي منتجـات العقـل العلمـي (أشياء قيلت:43؛ أجوبة:162). لا جزم ولا إرهاب في هذه الـنهج الـذي يـشييع بالتأكيـد ولكن مـع مـنح الكـل المعرفـة التوسـطية، وإذا مبـدئيا غـير مأسـاوية، للأسـس الموضـوعية للخلافات والاختلافات: وتتمثل في إبراز بالملموس بأن كل موقـف في حـد ذاتـه ينـدرج في حقل، قابل ليحكم عليه بوصف إيجابي خالص لا يحكم مـسبقا معرفيـا ولـو أنـه يـساهم في التوضيح كثيرا وبطريقة أحيانا حاسمة. معارضو هذا النظرة الانعكاسية لعلم الاجتماع ليس لهم ما يردون به إلا تقديم عرائض مبادئ. ولكن العقلانية الجذرية أليست هي الذي تـشجع على التعرف ما أمكن على أثر الحتميات التاريخية بما فيها ميلاد الكوني؟

اقتراح "نظرية ممارسة" هو إذا أولا طريقة للعمل على تحديد وتعريف النظرية نفـسها، والتدخل في حقل الإنتاج النظري. عالِم الاجتماع يتقيد بتحد نظري لأنه وعلمـا بمـا يقـول، فإن نظريته لا يمكنها أن تكون مختلفة مما نعنيه بهذا كما سنرى فيمـا بعـد. لا جـزم وجـودي حول الجوهر النهائي للحقيقة أو حول القوانين المتلازمة أو المتعالية. ولا بناء مضاربة معزولة عما هو قد استعمل في ممارسة بحث. النظرية إذا كانت الكلمة صالحة هي أولا طريقـة عمـل مبنية على الانعكاسية: وهي، مبدأ إذا كان هناك مبدأ، "المنتوج الأساسي لأي مشروع" (تطبيق عملي: 30). علم الاجتماع ملزم بتفكيك البناء بوسائله ما يبنيه العالَم الاجتماعي في الواقع باللغة؛ التفكيك بالعلم للبنايات الفعالة اجتماعيا وغالبا ما تعتبر شرعية ومشروعة. وتـشمل إذا إسمائية منهجية منجية وتسمح بالصمود أمام الأهرام الكلامية وأصنام الخطاب النظـري ذوات التأثير الجماعي (المدرسة والصف والدولة...). ولكن هذا الموقف النقـدي إذا كانـت له انعكاسات فلسفية واضحة يختلف عما هو تقليديا سـائد في الفلـسفة في كونـه أنـه ينطلـق دائما من العالم الاجتماعي للـتفكير سـواء في ظـروف المعرفـة الموضـوعية وشـروطها وكـذا

الحواجز التي تعترض المعرفة. في حين أن المشاكل المطروحة عند الفلاسفة تعكس غالبا سمات ممارسة فكرية يطغى عليها التجريد المدارسي كما يبين ذلك فقر الأمثلة المعتمدة على الظاهراتية وغالبا البسيطة، علم اجتماع بيار بورديو له ميزة البحث دائما عن مناسبة الأهداف النظرية مع الإمكانيات التجريبية الميدانية المختبرة والداخلة في ممارسة اجتماعية. هي منهجية تؤدي لحل وفك[1] بعض الأسئلة بالبرهنة بأنها تعتمد في جزء على وتضاد افتراضي ووهمي كما هو الحال بالنسبة للأضداد التي ذكرت عاليه بين الموضوعية والذاتية / القضية والعلة / التفسير والفهم / الاقتصاد والثقافة...ولكنها مع ذلك لا تعدم أسسا اجتماعية يتجاهلها الفلاسفة بذريعة التصور الذي يكونونه عما هو في اختصاصهم سيكون حقا داخليا. ربما فيها هذا تكمن آخر سذاجتهم.

(1) تفكيك القضايا الكبرى بطرحها حول المواضيع الاجتماعية الصغيرة وربما بلا قيمة وعلى كل حال محصورة ومحدودة وإذا يمكن مقاربتها تجريبيا كممارسة تصويرية(أشياء قيلت: 30).

الفصل الثالث

نظرية الحقول دراسة حالات

علما بأنه بالنسبة لأغلب علماء الاجتماع فإن علم اجتماع الأدب، ليس من المسلمات يميل بالأحرى أن يعتبر كنشاط هامشي، ومن حقنا التساؤل ما هي مكانة مثل هذا التخصص في نظرية بورديو. مكانة كبيرة من البداية إذا نظرنا في أعمال الكاتب المخصصة لهذا المجال وكذا مقالات الكتاب الآخرين المنشورة في مجلته، وهي من المجلات الناذرة (إذا لم تكن الوحيدة) التي تمنح مثل ذلك الحيز لهذه المسائل.

ما هو موضوع نقاش هو بالذات يتجاوز مسألة ذوق شخص للأشياء الجانية، هو تصور لعلم الاجتماع ومهنته عالم الاجتماع، والتي حسبها وحدة المنهجية ووحدة الموقف الفكري سابقة على كل التقسيمات الاجتماعية للمواضيع والتخصصات. كيف أن علم اجتماع انعكاسي منشغل مثل اجتماع بورديو بالتفكير اجتماعيا في هذه التقسيمات يمكنه التأقلم بتبنيها كما هي لحسابه واعتبارها غير ملموسة مع تحمل تبعات التمييز التقليدي بين المركز والهامش؟ لتصور موحد لعلم مثل هذا فإن اكتشاف قوانين أو انتظام في منطقة من العالم الاجتماعي قد يكون حاملا لانعكاسات وصدى في منطقة أخرى وسيكون من غير الحذر وغير المنطقي اقتراح تحديد نهائي وأحادي الاتجاه لمواضيع المعرفة هذه: علما بأن مناطق العالم الاجتماعي لا تتميز حسب طبيعتها الذاتية الداخلية أو تعريفها الرسمي التي هي في مستوى الحقائق المبنية مسبقا للمعنى العام، بناء موضوع ليس إذا استعملنا هذه العبارة المعمارية العمل بالاسمنت ولكن بالعكس استهداف شكل شفاف يسمح برؤية التناظر بين العوالم المختلفة. وهكذا فإن البنيات المسلط عليها الضوء في أحد العوالم هي قابلة

أن يتغير بلا حد شكلها لتصبح المقارنة ممكنة ولكن دائما حسب الكيفيات المضبوطة لمجموعة من التحولات.

وإذا أمكننا تخصيص مجال من علم الاجتماع بالأحرى حسب طبيعة الحواجز التي يطرحها أمام المعرفة الموضوعية، علم اجتماع الأدب هو جزء أساسي من علم اجتماع المثقفين ويأخذ من هذه الزاوية موقعا ليس بتاتا هامشيا. ودون استباق أفكار تستدعي التطوير وبعضها هي موضوع اعتبارات مقترحة لاحقا سيكون ممكنا القول بأن علم اجتماع الأدب له رهان: مسألة حدود علم المجتمعي، حدود ما يمكن أن يصبح موضوع علم اجتماع. رهان حيوي: يتعلق الأمر بمعرفة في أي مقدار مجموعة تمتهن التصريح بحقيقة كل واحد أو توزيع معنى يمكن أن تجرد من موقعها النهائي معتبرة كموضوع معرفة. وفعلا يتنازل المثقفون بسعة صدر بأنه يمكن اقتراح موضعة بعض المجموعات التي ابتعدوا عنها (الكادحون) أو التي يبحثون البقاء بعيدا عنها (البورجوازية الصغيرة، البورجوازية) ولكنهم يودون البقاء خارج مثل تلك المنهجية لا يكلون من مشاهدة ما يرونه فيها كنقص لا يمكن تجاوزه، خرق للذوق العام وتبسيط وتفاهة (أو تجديف). الإنتاج الثقافي الفكري العالي هو أحد أشكال المقدس الذي يتحدى النظرة العلمية. ومن ذلك بلا شك لعالم الاجتماع واجب التوليف في المحتوى كما في الشكل بين الصرامة ودقة المقاربة الخارجية للعاملين وقراءة داخلية للأعمال وخاصة ضرورة البرهنة إلى أي حد يتجاوز البحث مثل تلك الاقتراحات المرتبطة بالأشكال المحددة لتقسيم العمل الثقافي: يجب رفض ادعاءات الأدبيين باحتكار الفهم النهائي دون التنازل أمام إغراءات الاختزال الاجتماعي إلى العوامل الخارجية والمرتبطة غالبا في الماضي بالماركسية. وإذا كان لنا الحق في اعتبار علم الاجتماع الأدب هذا يتحدد في نفس الوقت ضد النظريات الأهلية (الأدبية) والأدب في مختلف أنواعه وضد المادية المختزلة، القضية لا تتمثل في سؤال بسيط حول الظرف الثقافي لأن الانتحال المزدوج يتمسك بإمكانيته نفسها.

إن رهانا مثل ذلك العلم الاجتماعي يوجد ملخصا في فكرة الحقـل، أحـد الوسـائل النظرية لبيار بورديو. وهذا بحث في تحليل ما أسماه بالحقل الأدبي إمكانية فهم عموما عمـل هذه العوالم المفارقة جدا والـتي خـصوصياتها ليـست أو غـير مختزلـة دائمـا تمامـا إلى العـوالم الأخرى. وهكذا فتعارض الفنان مع البورجوازي التي سلط الضوء عليه كثيرا في عدة أبحاث ليس موضوعا من بين موضوعات أخرى فهو تعبير ثابـت يتعلـق علـى الأقـل بطريقـة غـير مباشرة بإمكانية الموقف العلمي نفسها: بعبارة أخرى هذا التعارض يوجد نوعا ما بين علماء الاجتماع المنقسمين بين من جهة المساعدة في القرار للمقررين، والمساعدة في تـدبير المـدبرين ومن جهة أخرى الفن من أجل فن العلم وفي العلم.

المكانة الممنوحة لعلم اجتماع الأدب ولأنه يلخـص الاختيـارات النظريـة الأساسـية يمكن إذا أن يكون مؤشرا جيدا على مواقف عـالم اجتمـاعي في فـضاء تخصـصه. وإذا لـيس صدفة حول بعض المواضيع المشهورة بالمجانية وغير المهتمـة لـيس للـبعض مـا يقولونـه، هـم منشغلون بالمهمات المستعجلة والأسبقيات التي تعلل الوجود، وأن يضع الآخرون في المقدمـة في هذه الفرصة تصورهم للعلم: حسب موقعهم في التخصص أو بالذات حسب المسافة مـع المنافع المادية والرمزية للمسيطرين، الذين يمـسكون بالـسلطة الاجتماعيـة، لفـرض تعـريفهم للواقع والأحداث، فإن الأدب (أو الفن عموما) قد يرى إليه ككمالي أو أساسـي. الطمـوح إلى القطيعة مع الأفكار السابقة يمكن أن تجد أحد وسـائلها المفـضلة في مجـال انتمـاء ترفيهـي يعطي فرصة شكل من التمرين الروحاني يلزم بجعل نـسبية وجهـة النظـر الـتي ينـبني العلـم ضدها، وجهة نظر يقين المعنى الشعبي، واتخاذه كموضوع باستغلال الحريات المحصلة بفـضل وجهة النظر الأخرى، الأكثر بعدا عن السلطة وقوانينها الأخلاقية والثقافية المرتبطة بالفعـل. من هذه الملاحظات يمكننا أن نخلص أيضا إلى أن نظرية علم الاجتماع هـي رهـن الامتحـان ويشكل تام كلي، في كل من المواضيع التي تنوي تناولها وعكسيا وبأن النظرية حقل كما حقل الأدب له انعكاسات نظرية عامة حول نقاط حاسمة مثل مفاهيم الحقل والإنعواد.

سيتعلق الأمر فيما يلي بعلم اجتماع الأدب. أو فضلنا، دراسة حالات. ولكننا نود أن يبقى حاضرا في الذهن المنظور النظري الموحد الذي توضع فيه. العلاقات المنتظمة بين العمومي والخاص التي ليست من مستوى تصنيفي، وضع الحالة تحت المفهوم يعود بالأحرى إلى نظام التغير المضبوط: وهو الذي يجعل من التعليل النظري الأساسي لنظرية الحقل هذه. وفي غياب فهم لهذه النقطة يمكننا انتقاد بورديو لكونه تنقل بين مجالات ميدانية جد مختلفة جاهلا واجب الاكتفاء التي يربط ويرتبط به كل متخصص. إلا أن النتيجة ضخمة: بعض هذه الحقول كانت موضوع تحليل معمق ومفصل وأخرى موضوع مخطط نظري وبرامج عمل. خصوصية البحث هو بلا شك هذا التنقل المؤكد الذي يتم سواء بين المجالات أو بين المتحقق والاستكشاف.

وحيث أن نظرية الحقول وجدت صيغها الأولية في مجال الأدب والفن[1]، يمكننا افتراض أن الحقل الأدبي كان له خصوصيات تؤهله للحصول على قيمة جدولية في عملية ابتكار الوسائل الجديدة.

---

(1) بورديو في مقالة الحقل الثقافي والمشروع المبدع، الأزمنة الحديثة، 246، 1966: 865-906 مفهوم الحقل يقول عنه بورديو أنه أحدث عهدا من الإنعواد وانجلى يقول بورديو بالتقاء بين الأبحاث في علم الاجتماع والفن التي بدأتها في ندوتي في المدرسة العليا نحو 1960 والتعليق على الفصل المخصص لعلم الاجتماع الديني في Wirschaft und Gesllschaff, ("Fieldwork in Philosophy", in *Choses dites*: 33)

وفكرة الحقل تناولها بورديو بشكل نظامي ومفصل في المجالات التالية، والمعطيات توجيهية ولم نذكر من شاركه الكتابة أحيانا:

الديانة:

"Genèse et structure du champ religieux", *Revue française de sociologie*, 1971, n° 3; "La Sainte Famille. L'épiscopat français dans le champs du pouvoir", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1982/44-45: 2-53.

أرباب العمل:

"Le patronat", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1978/20-21: 3-82; *La Noblesse d'Etat. Grandes écoles et esprit de corps*, Paris, Minuit, 1989;

الخياطة الراقية:

"Le couturier et sa griffe. Contribution à une théorie de la magie", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1975/1: 7-36; =

الأعمال الأولى (حول الجزائر، وعزوبية الإخوة الصغار في البيارن، والطلبة...) توحي بنظرية ممارسة سوف تظهر وسائلها أنها قابلة للنقل مباشرة إلى دراسة المنتجات العلمية، كما رأينا في المقالة الأولى حول مسألة "الحقل الثقافي ومشروع المبدع" (1966 في الأزمنة الحديثة *Les Temps modernes*، كما يجب إضافة تكملتين في "حقل السلطة، الحقل الثقافي والإنعواد الطبقي" Scolies, n°1, 1971M 7-26 وسوق الممتلكات الرمزية" (*Année sociologique*, n°22, 1971M 49-126. حيث أعطى النقاط

= الإنتاج الثقافي:

"La marché des biens symboliques", *L'année sociologique*, 22, 1971: 49-126; "La production de la croyance: contribution à une économie des biens symboliques", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1977/12: 3-43; *Les Règles de l'art. Genèse et structure du champ littéraire*, Paris, Seuil, 1992;

الإنتاج العلمي:

"La champ scientifique", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1976/2-3: 88-104;

أساتذة التعليم العالي:

Homo academicus, Paris, Minuit, 1986: *Les usages sociaux de la science. Pour une sociologie du champ scientifique*, Paris, INRA, 1997;

الطلبة ومدارس التعليم العالي:

La Noblesse d'Etat. Grandes écoles et esprit de corps

المقاولات:

"Le Champ économique", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1997/119: 48-66; "Un placement de père de famille. La maison individuelle: spécificité du produit et logique du champ de production", *Actes de la recherches en sciences sociales*, 1990/81-82: 6-35;

بيروقراطية الدولة والحقل السياسي:

"La construction du marché. Le champ administratif et la production de la "politique du logement", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1990/81-8265-85; "De la maison du roi à la raison d'Etat. Un modèle de la genèse du champ bureaucratique", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1997/118: 55-68.

القانون:

"La force du droit. Eléments pour une sociologie du champ juridique", *Actes de la recherche en sciences sociales*, 1986/64: 5-19;

الفضاء الاجتماعي:

La Distinction.

الأولى لخط عام واقترح برنامج تحليل أولي. إلا إذا انتقصت من التفسير العقلاني كما يفعل الذين يرون فيها عبارة عن مشروع بحث أو عبارة جدلية داخلية في تاريخ الأدب، العمل الإبداعي لا يمكن أن يعتبر سوى نتيجة إستراتيجية: المبدع حكم عليه كأي فرد آخر بارتجال منظم أمام عالم إمكانيات موضوعية مفروضة عليه. غير أن إستراتيجية أدبية تمتلك خصوصية: ومن ذلك الرجوع إلى فكرة الحقل. الحقل الأدبي والذي كانت قد ذكرت مراحل مسار استقلاله التاريخي في خطوطها العريضة، يظهر أولا كضمانة لفرضية الاستقلالية الذاتية لمنهجية مطلوبة لكل علم اجتماعي للأدب، فكرة الاستقلال الذاتي تسمح بضمان خصوصية الموضوع مثلا ضد المقاربات المختزلة وإعطائه موضوعية تحبط محاولات المقاربات الذاتية. في سياق ثقافي تسيطر عليه البنيوية وتبعاتها الشكلانية في موضوع التحليل الأدبي يذكر عالم الاجتماع بأن الإبداع هو التوجه إلى جمهور ولكن فقط بطريقة توسطية، وأن يتحدد بنفسه نسبة إلى فاعلين آخرين، أنداد يختار أو يرفض تقليدهم، ونقاد وقراء ومن بينهم ناشرون يمتلكون هذه السلطة الكبيرة للمساهمة في الصورة العامة للعمل الإبداعي[1].

الصعوبة الأولية التي نعاني منها لتحرير فكرة الحقل من فرضياتها الواقعية وحدود نظرة ظاهراتية يعبر عنها في التعريف المقترح حينه، تعريف "نظام العلاقات الاجتماعية": الكاتب يحدد نفسه نسبة إلى أفراد آخرين في مسار ضبط وملاءمة لا يتوقف معلوم بسلسلة أفعال وردود فعل تولدت عن فك لما لا يحصى من علامات صغيرة وكبيرة (نجاح أو فشل، تطور الجمهور...). بعد أن وضع خارجية الحقل كمؤسسة مستقلة ذاتيا، يظهر بورديو بأية طريقة يكون الحقل ممتلكا مستبطنا عند العاملين ويصل حد تبني فكرة الوعي الثقافي الذي اعتبر كجانب من الإنعواد ومن إيجابياته أنه يقرن الأضداد، الخارجي والداخلي، الجماعي

---

(1) قد يحصل أن كاتبا قد يعتبره النقد في فترة كاتبا موضوعيا ثم لاحقا كاتبا ذاتيا.
وقد تساهم دار نشر بسمعة اسمها في تحديد نوع أدبي جديد.ذ

والفردي. علاوة على أنه كان قد بدا تحليلات وسيتوسع فيها لاحقا حول بنية وعمل الحقل الأدبي: من خلال هرمية الأعمال الإبداعية والأجناس الأدبية، فإن إحدى القيود التي تلقى على عاتق أي فرد منشغل ومهتم بتطوير وبإنجاز مشروع، يعبر عن خصوصية أساسية للحقل ألا وهي وضع المبدعين في رهان خاص، تملك نوع من الشرعية مرتبطة بالحقل بطريقة يمكننا تصور برنامج عمل له هدف وضع كل فرد في موقع تبعا للاعتراف المحصل عليه مع الأخذ بعين الاعتبار بتطور مبادئ الترتيب الذي هو أثر مشهود لبدع بعض المبتكرين. وفعلا فإذا كان صحيحا بأن الحقل الأدبي مهيكل كباقي العوالم الرمزية بالتعارض بين المسيطرين الحاملين للتفوق والمسيطر عليهم الذي رمي بهم في الهوامش السفلى مع كل المواقع البينية، فإن السيطرة تميل لتكون مؤقتة بقدر أنه يمكن رفضها بنجاح ليس فحسب عند من هو أقل شرعية بل وأيضا من قبل الداخلين الجدد المتملكين لأسلحة شرعية[1].

أشار بورديو فيما بعد إلى كل غموض هذا النص الأول حول الحقل: وفي نظره كانت الخطوط الكبرى مضمنة ولكن بشكل ناقض. وتلخيصا يمكننا القول بأن الأمر يتعلق ا بإعادة باسترجاع التطبيق العملي للكتاب المدروسين بوضعهم في فضاء مميز للإمكانيات مقارنة به يتخذ موقع. الطموح النظري الحاضر منذ مدة طويلة، لتجاوز الاختيار بين الموضوعية (الظاهراتية) والذاتية (بنيوية ليفي ستراوش) وجد أحد وسائله إنجازه المفضلة في الزوج الإنعواد والحقل، ولكن دون التمكن من اختزال التوتر بين الحدين الأساسيين. ورغم هذا التأكيد على مستوى البنيات الموضوعية يظهر خلل لصالح مستوى التحليل المتمركز على ما اسماه بورديو فيما بعد ولكن بقصد مختلف قليلا ما، "وجهة نظر الكاتب".

---

(1) وفي هامش في كتاب قواعد الفن (1992) حكم بورديو بأن هذا المقال هو أساسي ولكنه متجاوز "الذي يقدم مقترحات مركزية تتعلق بميلاد وهيكلة الحقل ولكن من جانب آخر يحوي خطأين ويميل إلى اختزال العلاقات الموضوعية بين المواقع إلى التفاعلات بين العاملين متجاهلا تحديد موقع حقل الإنتاج الثقافي في حقل السلطة تاركا هكذا خارجا المبدأ الحقيقي لبعض مقترحاته" (260).

كانت كذلك نحو 1966 حالة المشروع النظري الذي يجب وضعه في إطار أوسع، سنراه فيما بعد، لعلم الرمزي. وكل الأبحاث التي تمت لحد ذلك الوقت سواء على الشرف أو الأساطير أو الفن أو التعليم تصب في هذا الاتجاه: بين مختلف المجالات، وسائل العمل مثل أفكار الحقل والرأسمال والتميز ...لم تتوقف عن التنقل والاغتناء. المسلمة الأولية لعلم اجتماع الأدب هي استقلالية الذاتية للممارسات الأدبية التي يستمد على أساسها من فكرة الحقل. الحقل الأدبي مفهوما كنظام مواقع خاصة ووحدة التحليل هذه التي تسمح بتفسير الممارسات المعتبرة بتجاوز استعمال العوامل الخارجية كمبدأ حصري للوضوح. ويعني هذا بشكل ملموس مثلا أنه يمكننا اعتبار عمل إبداعي دون اعتبار أين يحوي مضمنا الرفض: المعنى الذي يمتلك هو في هذا الفرق نفسه، تحد موضوعيا في وجه الأعمال الأخرى يعني المبدعين الآخرين. في هذا التحدي لا يتعلق الأمر برؤية فحسب رسالة مختزلة لفحواه المعلن لأن العارفين الذي يتوجه إليهم يمكنهم فهم الجوهر، موقف يتخذ موقعه في جزء كبير قابل للتحديد حسب حالة الحقل الذي تجري فيه المنافسة. من خلال العمل الإبداعي فإن وضعا أو على الأقل صورة عن الذات معلنة التي تجعل متقابلة استعدادات ثقافية واجتماعية مشروطة مع منطقة من عالم المنتجات الرمزية. تقابل سيكون محض وهم اعتباره من خلال مضمون جوهر ثابت علما بالأثر النسبي المتصل والمؤقت لنظام علاقات التناظر بين البنيتين: بنية الفضاء الاستعدادات وبنية فضاء الأعمال الإبداعية (التقليدية والمعاصرة والنبيلة والهامشية...). تعارض خارجي مثل ما هو موجود بين البورجوازي الكبير والبورجوازي الصغير يمكن أن يبقى موجودا في الحقل ولكن على شكل معاد الترجمة، يعني من خلال سلسلة معارضات بين الخصائص الإنسانية والأدبية (نبيل/ متواضع...) بين المدارس، بين الأساليب... وكذلك دراسة الجمهور لا يجب أن يفكر في تحديده بعبارات واقعية أو مادية

مباشرة بعبارات الطلب ولكن بعبارات تجميع وتعادل بنيوية[1]: عامل يختار عملا أقل توافقا مع خصائصه الذاتية والموضوعية منه بفضاء ممكن العمل الإبداعي الذي يساهم في تأكيد هويته واختلافه في فضاء مهيكل للمستهلكين. عالم الاجتماع يجب أن يستعمل فكرة الحقل خاصة كتعليمات عمل التي تلزمه بالذهاب ما أمكن بعدا في معرفة كل من السلاسل المستقلة (استعدادات، أفعال، مؤسسات...) قبل المغامرة بالخروج منها لاستعمال عوامل غير متجانسة منطقيا. فكرة نقدية، الحقل هو أقل كطرح منه كمنهجية تسمح بالتحكم في قيود وحدود استعمال التعليل السببي.

ممارسة متفردة يمكن أن تعتبر كإستراتيجية تأخذ كامل معناها مقارنة بنظام المناصب المحتلة في لحظة معينة كل منها ذات قيمة محددة ومقدرة خصوصا من خلال الممكنات المرخصة أو الممنوعة. ومبدأ حقيقة الحقل هذا الذي يسكن لحد ما العاملين ليس متعارضا مع ما يبدو ما يعارضه، الإقدام الشجاعة والتجارب والحيل والزلات. ويمكننا علاوة زيادة تمييز مختلف مراحل مسيرة أدبية حسب المسافة التي تشجع مع أحكام الحقل: إذا كانت مرحلة التعلم ببحوثها وترددها يمكن أن تعطي انطباعا تفتح لا نهائي للممكن، الشيخوخة يترتب عنها تقييم أكثر واقعية لمنصبه وموقعه، ويمكننا التعرف على الجهد للبقاء تحت الخضوع المتفاوت التقبل لقوانين الضرورة التي تفرض أحيانا التخلي والخيبة كما يحدث لهؤلاء الأدباء الشعبيين إذا لم يكونوا شعبويين الذين ينتهون بالتغني بالحكمة والبادية والريف

---

[1] يجب إذا تقريب محور أعمال علم اجتماع الأدب بمحور بحث آخر مخصص في الذوق ونمط الحياة والذي يشكل كتاب التمييز (1979) علامة فارقة. مشكلة القرابة البنيوية بين فضاء الأشياء الثقافية الشرعية والفضاء العادي الدنيوي للاستعدادات كان موضوع تحليلات تتخذ موقعا وسط الطريق بين علم اجتماع الحقل الأدبي والفني وعلم اجتماع الطبقات (بالخصوص الطبقات السائدة)، مثلا "استعداد جمالي ومهارة فنية" في مجلة الأزمنة المعاصرة، 295، 1971؛ "شرائح الطبقة السائدة وأنماط التملك العمل الفني" في *Informations sur les sciences sociales*, vol. 13, n°3, 1974.

بعد أن تخلوا على حبهم الأول كبورجوازيين صغار يتخيلون أنفسهم شعراء مرهفين ومنغلقين.

ومن الجلي صعوبة الحكم بدقة على نسبة النظري والتجريبي في التطور اللاحق الذي أدى إلى تحليلات على شكل نظامي معروضة في قواعد الفن المنشور في 1992. ما يظهر على أية حال لا يجادل فيه هو خصوبة إيحاء متجل في الصياغات العامة التي تشهد بمتطلبات الانعكاسية وكذا في سلسلة أعمال أنجزها سواء بورديو أو آخرين انطلاقا من متن هذه الفرضيات.

من بين المراحل المهمة التي أثرت في افتتاح هذا المشروع الجديد في إطار مركز الدراسات الاجتماعية الأوروبية يمكن ذكر خلق في أواخر الستينات لندوة في المدرسة العليا للأساتذة والتي بمكانها وموضوعها علم اجتماع الأعمال الإبداعية وعلم اجتماع الثقافة فتح مجال إمكانية اهتمام بالتخصص الاجتماعي أمام بعض الشباب من تكوين أدبي حاملين لاستعدادات ورأسمال يشجعهم على المغامرة في هذا المجال الإشكالي جدا لتخصص هو نفسه إشكالي في فضاء التخصصات. ومن هذا الواقع، أمكن للبعض منهم جمع المواد المهمة حول الحقل الأدبي في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في مجلة بورديو *Actes de la recherche en sciences sociales* في عام 1975. وبفضل المجلة التي كانت تهدف إلى فرض رؤية جديدة لعلم الاجتماع، رافضة الهرميات الأكاديمية للمواضيع والمنهجيات، توقف ظهور الأعمال المنجزة مشتته. زيادة الشهرة المكتسبة هكذا يمكن أن تشجع في تغيير التعريف العمومي إذا لم يكن العلمي للعمل الاجتماعي. وظهر بعض من التطور في اختيار المواضيع: وإذا كان في الماضي من خلال سلسلة دراسات ميدانية كبيرة تعتمد على الإحصائيات والاستبيانات وحوارات منظمة اقترحت تحليلات تهدف إلى تسليط الضوء على الآليات الأساسية لإعادة انتاج الوضع المدرسي والثقافي فمن الآن فصاعدا أصبح علم الاجتماع يطالب في واضحة النهار بالسلطة الفكرية الثقافية التي تسمح

له بتناول، ولكن بنظرة جذريا جديدة، الحقول الطموحة للتقليد العالم[1]. وواقعة ذات معنى: عدة مقالات تدور حول أسماء الأعلام وصور مشهورة وليس حول أفراد مجهولين. علم اجتماع الأدب والفن والمثقفين يمتلك بطريقة ما أهمية إستراتيجية لأنه يشهد بالإمكانيات الواسعة الغير مستغلة لتخصص علم الاجتماع ويحوي برنامجا تحليل صحيح لكل المنتجات الثقافية. وتقريبا في نفس الوقت يقترح بورديو حول القصاص جوستاف فلوبير وحول الفيلسوف هايدجير تحاليل مبدؤها المشترك هو تشييئ خطاب هؤلاء المبدعين ووصف من خلال حالتهم النموذجية قوانين التشكل الشرعي المخصص لكل الحقول المعتبرة.

يكفي لمقالنا هنا ذكر مقصد العمل المخصص لفلوبير. هذا الكاتب كان يعتبر كصورة أساسية في "ابتكار حياة فنان"، يعني في إنجاز لصيغة تميل لتكريس مسار الاستقلالية الذاتية للحقل الأدبي. وكبقية النظريات الأخرى المنظرة في استقلالية حقل معين، نظرية الفن للفن تحوي تحد لمقاربة لا يمكن أن تأخذها حرفيا دون أن تتنكر لنفسها. وسابقا سمحت سلسلة تحاليل أكيدا بوضع الشروط الاجتماعية لممكن الفنان البحت والبنيات العامة للحقل حيث يندرج هذا الموقع. وهذه المسألة القديمة والأساسية لم تهجر بعد سلسلة المقالات التي خصصت لها، وستعود من جديد إلى صدارة المواضيع المتناولة في قواعد الفن بمواد أغنى وتطويرات معقدة ونظامية. غير أن نظرية الحقل هذه لا يمكنها الوصول إلى تفكيك مزايا علم اجتماع الأدب إلا شرط معالجة بمجابهة الاعتراض الأساسي للمشككين (والمعارضين)، وهو استعصاء وانغلاق عمل إبداعي أمام عين خارجية. ويتعلق الأمر بإبراز أن وجهة نظر الكاتب الذي يعطيه شكلا أكثر تصريحا في العمل الإبداعي، بعبارة أخرى إبراز أن علم الاجتماع ليس دخيلا على العمل ولكن حاضر فيه، بعد تجاوز المقاومات الثقافية المرتبطة

---

[1] عد للعدد الخاص من مجلة بورديو نوفمبر 1975/ 5-6.

بالموقف الشكلاني للفك والفهم. ولذلك يخصص بورديو مقالا طويلا لقصة "التربية العاطفية" وهو عمل يمنح فرصة اختبار فهم اجتماعي للمادة الأدبية وربما بالذات فرضية قرابة بين البناء الروائي للعالَم الاجتماعي ونشاط عالِم الاجتماع (مجلة بورديو، 1975/ 2، ابتكار حياة فنان). وفعلا تقدم القصة شخصيات يبدو أنها تختزل في نسبة كبيرة منها إلى مواقع مشهودة من الفضاء الاجتماعي وخصوصا إلى مواقع في حقل السلطة: التعارض بين قطبي الفن والمال (الفنان والبورجوازي) ممثل بطريقة وبأسلوب معين ومكثف من خلال السمات ذات الصلة (حكم وذوق ومحل سكن...). معنى سلوك فريديرك مورو الشخصية الأساسية لا يمكن أن يدرك إلا إذا رأينا فيه مجموعة مواقف في فضاء مهيكل حيث يمكننا قراءة ممكنه الخاص، إمكانيات ذاته كوريث مدعو ليحدد موقفه ويتحمل الاختيار بين الطريقين المتطرفين. وإذا كان القصاص يمنح كل شخصية عبارة عامة منبعية، يبقى أن هذه لا يمكنها أن تظهر إلا في الزمن، زمن الشيخوخة والتقادم الاجتماعي، وسيلة تجريب خيالي جيد لإظهار الآمال والميول المخبأة طويلا أو على الأقل أفضليات الخنوع المفروضة بتدمير الآمال الأولية. وإذا كان فريديريك يتميز عن الشخصيات الأخرى فذلك بالخصوص برفضه اتخاذ موقف وموقع والاختيار من بين الممكن المحدود الذي يمنحه العالم الاجتماعي لأنه يكرس نفسه بنفسه للعيش كمشاهد مبتعد متوهم في لحظة استقر فيها الآخرون في مواقع تتفاوت الرغبة فيها ويستقرون فيها على أية حال بجدية. والكاتب فلوبير لا يصف فقط وسطا كما يقول من يظن أنه يقدم عاطفة تنازلا في البحث عن الوثائق الاجتماعية: من خلال فريديريك "إمكانية متجاوزة واحتفظ بها كوستاف"، يشييع علاقة مع العالم الاجتماعي خاصة، "مثالية العالم الاجتماعي" الذي هو من خصوصيات الفنان المكرس للفن من أجل الفن، أو بالأحرى من خصوصيات الموقع المحتل في الحقل الأدبي، و فوق ذلك في حقل السلطة، موقع يحتله كل الذين يتعرفون على أنفسهم في هذا المنوال. وكتابته هي طريقة لرفض التفاهة المزدوجة، أي الكاتب البورجوازي كما الكاتب في خدمة الفن الاجتماعي

وكذلك فإن تردد فريديريك هو رفض مزدوج للالتزامات الكلية الممنوحة إلى شاب بورجوازي. يكفي لعالم الاجتماع الاستماع إلى ما يقوله الفنان بطريقته لفهم الفن، كما أن الدين حسب فيبير متأثر ومصبوغ بالدنيوية Diesitigkeit أي بعلاقة لا مفر منها لهذا العالم.

الحقل. رهان نظري لمفهوم.

قبل أن نقدم بتفصيل خطوات علم اجتماع الأدب يتوجب علينا محاولة فهم فيما المشاكل التي يطرحها هي من رتبة أكثر عمومية. يكفي للتأكد من ذلك قراءة فصل وجهة نظر الكاتب من كتاب قواعد الفن والذي عنوانه الفرعي هو بالذات: "بعض الخصائص العامة لحقول الإنتاج الثقافي" (298). كل مرة في هذا المقطع يكون الموضوع متعلقا بالأدب فإن طرقا مختلفة، خصوصا بين القوسين، تذكرنا بأن ما قيل صحيح لبقية حقول الإنتاج الثقافي بما فيها الحقل الديني والسياسي (وهو ما لا يعني بالطبع حكما مسبقا بعدم وجود اختلافات مهمة بين الحقوق).

فكرة الحقل التي لم تنزل من سماء أفكار خالصة كانت وسيلة لوضع حد لمعضلة نظرية . فلفهم المنتجات الثقافية، الفن والأدب والأسطورة والدين والإيديولوجية، كان يبدو لحد ذاك الوقت بأننا كنا ملزمين باختيار بين طريقين حصرا. وفعلا ففي ظرف ثقافي تسيطر عليه في فرنسا المواجهة بين تقليدين شعارهما البنيوية والماركسية يبدو أننا كنا مدفوعين إما لتفضيل المنتجات ذات ترابط داخلي يسمح لها بالإفلات من حتميات خارجية وإما تخصيص هذه المنتجات بوظائف اجتماعية تؤديها، مثلا الوظائف الإيديولوجية لتعليل مصالح الطبقات المسيطرة. إلا أن الربح النظري المتحقق من جهة توازيه كلفة من جهة أخرى: والتأكيد كثيرا على وضوح المنتجات بمنحها استقلالية تجعل من العاملين إذا لم يكن شيئا زائدا فعلى الأقل ثانويا: وعكسيا فبالتأكيد الشديد على المصالح الاجتماعية إننا نخاطر

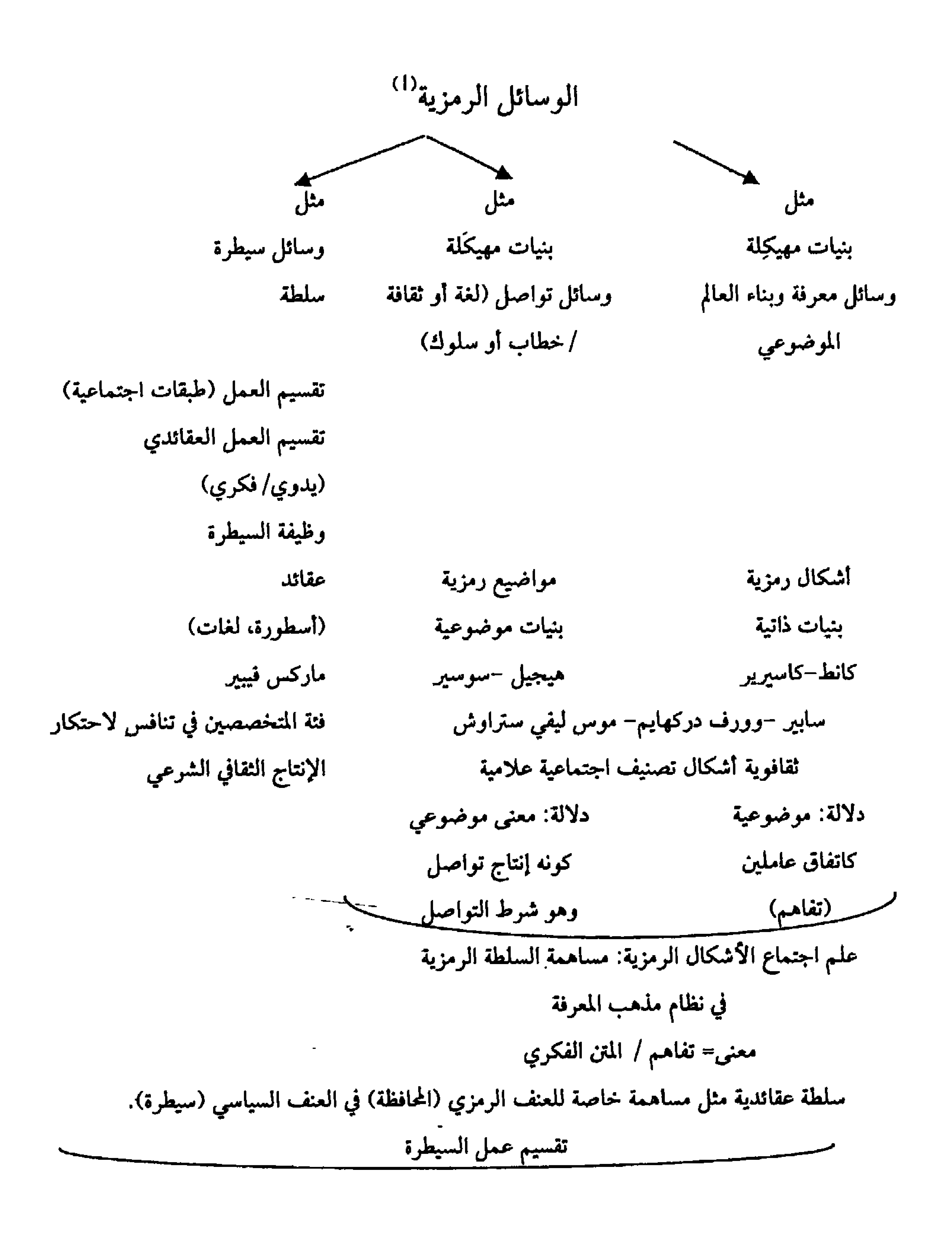
بفقدان كل فهم للمنتجات. بعبارة أخرى، إذا أولينا اهتماما للمنطق المضمن في المنتجات الثقافية لا يمكننا الإفلات من نظرة مثالية لم يتمالك من الإشارة إليها المعارضون الماديون الذين هم أكثر ميلا لقراءة سياسية للمنتجات الثقافية ومع ذلك فهم أكل تسلحا نسبيا في هذه المهمة. وأخيرا أي نصر أو أية هزيمة نفضل؟

من مهمات بديل نظري يمكن أن تكون تحقيق تفاهم المتعارضين حول صيغة التعارض نفسها. وكل شيء يجري فعلا وكأن المتنافسين المثاليين والماديين يتقاسمون إلى حد ما نفس البنية الإدراكية الموسومة بالإقصاء المتبادل للبنية الفوقية والبنية التحتية للثقافي والاجتماعي والرمزي والاقتصادي. ومع ضرورة الاختيار، يبدو أن كل واحد يختار خاصة حسب موارده: البعض يساعدهم تواطؤ الإنعواد "العلمي" يرغبون بالوقوف جانب المعنى والمعرفة والرسالة أو النص في حين أن الآخرين لهم على الأقل رؤية واقعية للعالم يرون الوقوف جانب أفكار السلطة والطبقة والعلاقات بين الطبقات. الأولون يمكنهم التفوق في التحليل والتفكيك الداخلي للمنتجات التي غالبا ما هي نبيلة وذات سمعة والثانيون يتفوقون في إزالة الغموض عن هذه المنتجات. وإذا كنا نريد وضع أسماء سنضع من جهة الأناسة البنيوية لليفي ستراوش ولكن أيضا حفريات ميشيل فوكو متخذين كموضوع المعرفية التي تخصص مختلف مراحل المعرفة؛ من جهة أخرى تقليد لوكاش Lukacsومدرسة فرانكفورت وتاريخ الفن الماركسي (فريديريك أنتالAntal وأرنولد هوسيرHausser).

لجمع دقة وخصوبة النظرة المثالية المجسدة في البنيوية مع متطلبات نظرة واقعية للاختلافات الاجتماعية يجب إذا الخروج من قبضة الاختيارات المفهومية. الرهان على أنه لا يمكننا الفصل في التحليل بين المعنى والعنف بين المعرفة والسياسة: ذلك هو المبدأ نفسه لعلم الرمز هذا الذي يقترحه بورديو. وتعبر المصطلحات عن تحد: الرمزي يعبر عنه بضده الظاهر، السلطة والعنف ... ما نفهم من هذا؟

فضاء المواقع النظرية قدم على شكل رسم رمزي (لغة، أسطورة فن وديانة...) (*Annales,*ع3، 1977، بورديو، حول السلطة الرمزية). وتقليد أول دعي بكانطية جديدة (هامبولدت كاسيرير أو وورف سابير) يرى هذه الوسائل وهذه الأشكال الرمزية كبنية مهيكِلة (أو ذاتية) ويمنحها دورا نشيطا في بناء العالم الموضوعي. التقليد الثاني هو تقليد البنيوية (سوسير، ليفي ستراوش) يؤكد أكثر على المنتجات منه على فعل الإنتاج، ويرى في الوسائل الرمزية بنيات مهيكَلَة (بنيات موضوعية) لها تناسق داخلي ووضوح متلازم ونوعا ما هي مكتفية ذاتيا. التقليدان المتجاوران علاوة على اجتماعهما أحيانا عند نفس الكاتب (دوركهايم) يشتركان في فرضيات مسبقة فكروية: أسبقية المعرفة والتواصل التي تفترض و/ أو تولد اتفاق العاملين. وبالعكس فإن التقليد الثالث / الماركسية (حيث يقترب فيبير من ماركس) تفضل الوظائف السياسية للأنظمة الرمزية على حساب بنيتها المنطقية ووظيفتها المعرفية (ن م:408): الوسائل الرمزية تعتبر في هذا المنظور كوسائل سيطرة موسومة بالأثر العقائدي لتعميم المصالح الخاصة.

تلخيص وجمع وجهات النظر هذه هو تحويل النظرة بغية اعتبار العبارات التي قيلت كمتعارضة كحاملة لمساهمة خاصة في نفس الكل المعقد، أي النظام الرمزي. هذا التعاون الغريب يحول القوى المضادة إلى حلفاء يعملون ليس رغم ولكن بفضل التقائها.



(1) عن المقال السابق، بورديو، "Sur le pouvoir symbolique", *Annales*, n°3, 1977: 406.

مع الاحتراس من كل صيغة تعلل شكلا ما من غائية، يمكننا القول بأن السيطرة هي أكثر فعالية حين تتحقق بواسطة وسائل رمزية مخصصة ظاهرا فقط لوظائف المعرفة والتواصل. الأسطورة والديانة والفن تملأ وظيفتها السياسية مع الظهور بمظهر طاعة منطق لزوم. إلا أن الزعم بهذا يفترض شيئين متكاملين لعمل التحليل: من جهة يجب أن تكون أشكال الرمزية تعمل حسب منطق مستقل وأن الوظيفة الاجتماعية للسيطرة لا تملأ إلا زيادة، ومن جهة أخرى تعبر السيطرة عن نفسها باستعمال عبارة ليبنيز في قلب مسار يتبع منطقا مستقلا. ويتوجب إذا معامل ترجمة وإعادة ترجمة. غير أن هذا لا يمكن أن يكون حرفا بحرف: إذ لا يمكن إلا أن يكون بنيويا. وهكذا فالتقابل بين الموقع الاجتماعي الخارجي وعنصر داخلي لنظام رمزي لا يمكن أن يتحقق إلا بتوسط شفرة تسمح بإعادة ترجمة مجموع المواقع من نفس العائلة حسب المبادئ المعنوية اللازمة التي يلقي عيها التحليل البنيوي الضوء والملائم لمقولة "في نظام، لا تستمد العبارات قيمتها إلا من الاختلاف". مثلا يجب التخلي عن البحث بأية مجموعة اجتماعية حقيقية يجب ربط عبارات مثل فيلسوف وجغرافي وكانطي وماركسي سريالي؛ والابتعاد أيضا عن وصف الأعمال الفنية أو الفلسفية والخطابات الدينية مباشرة من خلال السمات الاجتماعية ذات الاتجاه الواحد. وبالعكس ما حوفظ عليه في نظام رمزي وذلك حسب تشاكل بنيوي العلاقات بين المواقع الخارجية. وإذا كان التعارض الاجتماعي بين المسيطرين (نبلاء وبورجوازيين وأرباب عمل...) والمسيطر عليهم (عمال وشعب...) يرى بسهولة ولو على شكل خاص فرضه عمل العالم المعتبر الفني والأدبي والفلسفي..... وهكذا في النظام المستقل نسبيا للتخصصات نجد أو بالأحرى في القطب العالي الفلاسفة وفي التخصص الفلسفي الكانطيون في حين أنه في القطب الأسفل نجد الجغرافيين وداخل تخصص الفلسفة نج الماركسيين. تصنيف الأعمال الإبداعية والعاملين يؤدي وظائف ليست فقط إدراكية ولكن أيضا اقتصادية وسياسية: توجد أرباح تفاضلية في أخذ مكانة ما في الفضاء الهرمي ولو أنه ذي بعض الاستقلالية الذاتية. ميزة السلطة الرمزية

هي أن المصالح الخاصة وفي هذه الحالة مصالح المسيطرين لا يمكن أن تخدم إلا بتوسط بفضل هذا الفارق الذي أصبح ضروريا بإنجاز وظائف المعرفة والتواصل.

استقلالية (نظام) وتناظر (بنية): هاته هي مبادئ الوضوح الضرورية التي يتطلبها التحليل البنيوي الذي يحترم منطق الملازمة لهذه الأنظمة، مع العمل لتفسير العلاقات التي تربطها مع العالم الاجتماعي ومع العاملين ومع فضاء الطبقات الاجتماعية. علم الاجتماع يمكنه هكذا الأمل في الوصول إلى جمع مكاسب التقاليد الفكرية المفكر فيها (بذاتها) كأضداد وابتكار مادية رديفة لها أسلحة أخرى في مواجهة الرمزي من غير أسلحة الاختزال العنيفة أو محو الأبهة اللغوية للبنيات العليا.

يبقى إتمام خطوة إضافية تحمل بصمة ماكس فيبر. إذا كان علينا إعداد محل للعاملين في فهم الأنظمة الرمزية، لا يمكن أن يكون ذلك إلا باستعمال بطريقة عامة وغير محددة الطبقات الاجتماعية. والاستقلالية الذاتية التي تصبغها على المنتجات الرمزية ناتجة عما في كنف الفضاء الاجتماعي كفضاء مميز، فمجموعات العاملين (رجال كنيسة متعلمين....) تمتلك موقعا في تقسيم العمل بحسبه ترى نفسها مؤهلة لتناول شرعي للمنتجات الرمزية المعينة (أشياء الخلاص، أشياء ثقافية....). وهكذا فحقل إنتاج رمزي (ديني، ثقافي...) لا يمكن أن يقارب لا بطريقة بنيوية كعالم موجه بمنطق تلازم للمعرفة والتواصل ولا بطريقة ماركسية كوسيلة في خدمة سيطرة الطبقات: المصالح التي هي موضوع الرهان هي مصالح خاصة وهي أولا مصالح المتخصصين المعنيين الذين يتصارعون لفرض تعريف للأشياء، قضايا مذهبية وتفوق إنساني.....ملائمة لوضعهم ومكانتهم ووجهة النظر إلى الحقل التي يتطلبها موقعهم. بنية الحقل تتلاقى وتلتصق مع بنية المواقع التي تتحدد دائما في علاقة. وبهذا الطريقة يجب حسب بورديو فهم الصور المثالية النموذجية التي وصفها ماكس فيبر: الساحر والنبي يشتركان في امتلاك جاذبية، سلطة مرتبط بشخصيهما، بعكس الكاهن رجل الدين وكيل بيروقراطية؛ الساحر والكاهن يشتركان في مواجهة أوضاع عادية وجودية عكس

النبي، رجل الأوضاع الخارقة؛ الكاهن والنبي يشتركان في حمل خطاب منتظم نسبيا، مذهب يمنح رؤية عن العالم وعن الخلاص عكس الساحر الذي نشاطه ذي غاية عملية بحتة (شفاء، غلة جيدة وضرر بالعدو...). لمختلف المواقع في الفضاء الديني يقابلها مواقف (حول معنى الوجود، الطبيعة وكيفيات الخلاص...) وتناسقها لا يرجع إلا لضرورة أن يتحدد موقع قياسا بالمواقع الأخرى. الدرجة التي تصل إليها مؤسسة (الكنيسة) في فرض احتكارها على تناول أشياء الخلاص تسمح بتوضيح في جزء كبير لتوزيع الموارد الدينية في ظرفية معينة. وعامل لا حظ له للوجود كعامل ديني إلا شرط العمل بالأسلحة التي يعطيها الحقل والتخلي عن الأسلحة التي قد يمكنه الحصول عليها من عوالم مبنية على أسس مبادئ أخرى للترتيب الهرمي (سياسية، اقتصادية، ثقافية...). ولذلك فإن السلطة الرمزية، سلطة مخصوصة بالتكريس أو الإقصاء هي سلاح وقضية صراع. السلطة الرمزية التي تملك في حقل معين تتمثل في السلطة، وضع شرعي يسمح بالعمل شرعيا في هذا الحقل، الحقل الذي لا تتجلى فيه علاقات القوى بين العاملين إلا على شكل محول وملطف لعلاقات المعنى. مثلا عامل يمكنه محاولة (حسب رأسماله الديني) اقتراح تأويل للنصوص المقدسة التي ولو أنها ثورية تحترم بكفاية الكيفيات الشرعية للتعبير ليُمكن تحديدها كخطاب ديني وليس كإعلان سياسي، كعريضة ضد بيروقراطية الكنسية ....

من الممكن ربط، جمعا، علاقات السيطرة وعلاقات المعنى بقدر ما أن النهج الاجتماعي المقترح يتمثل في تقاطع المتطلبات المتتالية للتقاليد الفكرية ومع التأكيد سواء على السلطة أو المعرفة: يمكننا الدفاع في نفس الوقت على أن الوظيفة الإدراكية والتناسق الموضوعي للمنتجات الرمزية يمكن أن يعتبرا كأحد الآثار المشهودة لعلاقات التنافس والصراع بين العاملين، وعلى أن العلاقات بين العاملين تتطلب تفسيرا وفق منطق تلازم الحقل.

فكرة الحقل لها منافع أخرى تفسيرية. أولا هي تعفي من الانغلاق في بديل يلزم باختيار توضيح إما مواقع متفردة لعاملين متفردين وإما الأرضية المشتركة لمختلف المواقع الخاصة بمعاصرين (كما في حالة المعرفي لفوكو): وتسمح بنية الحقل بتفسير، في نفس الوقت، مبادئ التقسيم الداخلي والتي حسبها تنتظم الصراعات والجادلات والمنافسات والحدود المحددة تاريخيا التي يخلقها ويبرزها الحقل بجعل غير معقول ولا مشرف (لم يعد تقليعة غير ذي صلة....) ممكنا لا يقابل أي موقف متخذ حاليا. ثم إن فكرة الحقل تسمح بفهم العلاقات بين ما هو داخلي وما هو خارج عنه دون تعميم ولا اختزال أي حد. حقل إنتاج يملأ الوظائف الاجتماعية الخارجية مثلا شرعنة نظام اجتماعي من واقع فقط أنه يطيع منطقه الخاص. ولا حاجة للمسيطرين للتدخل بطريقة عاجلة ومستمرة بغية تغيير عمل الحقل لصالحهم بقدر ما أنه وفقط بواسطة الميزة المتلازمة لهذا العمل، تقسيم الخارجي للعالم الاجتماعي (مسيطر/ مسيطر عليه) يعترف بهم أو يتم تجاهلهم: استقلالية الحقل هو الشرط ذاته لفعاليته الرمزية. وأخيرا نظرية الحقول لا تؤدي إلى افتراض شكل من التناغم المسبق الوجود بين العوالم المختلفة. منطق التلازم للحقل إذ يساهم عموما في إعادة إنتاج تقسيمات العالم الاجتماعي يمكنه أيضا الدخول في صراع على الأقل إلى حد ما، بقواه المبنية على مبادئ أخرى شرعية. يكفي التفكير في العلاقات بين السلطة الدنيوية (الدولة، الإدارة ....) والسلطة الروحية (الكنيسة والفنانين...) لفهم أن الاستقلال الذاتي ليس حالة مضمونة دوما قانونيا، ولكن بالأحرى إنتاج صراعات تندرج في التاريخ[1].

[1] تاريخ التخصصات الاجتماعية والعلمية هو عرضة لكثير من سوء الفهم وأغلاط عندما يكتفى باتخاذ كمعيار فقط لاستقلالية تخصص جوانب مؤسساتية خالصة مثل المسمى والتوظيف الخاص بالتخصص.... هذه الرؤية غالبا ما اتبعها المؤرخون "الأهليون" المهتمون قليلا بالتشكيك في الطريق الواسع المريح الذي يوجدون فيه ويتجاهلون ببساطة وصف الصراعات الداخلية والقوى الاجتماعية التي تعمل في اتجاهات معاكسة للاستقلالية.والتشكل.

أشكال الاستقلال الذاتي

لما نتناول حقلا معينا كالحقل الأدبي يمكن أن نفكر من البداية أن المناهج المرسومة لحد الآن تؤدي إلى نوع من الدائرية: معرفة الخصوصيات الشكلانية للعمل لا يمكن أن تفصل عن معرفة الخصوصيات المرتبطة بموقف المنتجين، وهي بنفسها تحدد انطلاقا استعدادات. يتعلق الأمر مثلا بربط بعلاقة التطلعات والمهارات المشروطة اجتماعيا لفرد (بورجوازي كبير باريسي...)، مع الوضع الذي يطالب به و/ أو المخصص له (شاعر طليعي...)، وضع يدفعه إلى مجموعة اختيارات مختلفة في الحالات المتجددة التي يتعرض لها (التزام، جمالية...). إلا أن العبارات الثلاثة -وضع، استعداد، موقف- لا معنى لها إلا إذا نظر إليها بطريقة تناظرية: شاعر طليعي (من الطبقات العليا الباريسية) يعني أنه ليس قصاص جهويا (من بورجوازية صغيرة وريفية) وكذلك تطلعاتهم وأذواقهم تتحدد بالتعارض. وهكذا فمعنى عمل إبداعي موصوف دائما بازدواج، اجتماعيا وثقافيا، لا يمكنه أن يكون مفهوما (اللهم استثنائيا) إلا بفضل استنباط مباشر من خلال الخصوصيات الاجتماعية للكاتب، ولكن بطريقة فقط توسطية حسب عالم الممكنات حيث يندرج. وما ربط بعلاقة في مثل هذا التحليل هو بالذات ثلاثة أنظمة علاقات، ثلاثة أفضية تمثل تناظرا يتطلب الاستكشاف منهجيا والتي هي لحد ما قابلة للعزل. كل فضاء له منطق خاص يسمح بحرية ما: مدرسة أدبية التي تتحدد قبل كل شيء في مواجهة متنافسين يمكن لحد ما أن تجلب أفرادا ممتلكين لخصائص متميزة؛ وكذلك وكما تظهره دراسة تقبل، كاتب دو غالبا ما معرض لتحولات تؤثر مكونات جمهوره وبالتالي الصورة العمومية لعمله.

علم اجتماع الأدب وقد فهم هكذا لا يتجاهل إذا النصوص ولكن يدعو لاعتبارها بطريقة أخرى ليس فحسب كأشياء سبق وأن أنجزت، أعمال تتطلب التفكيك في حقيقتها الباطنية، ولكن بالأحرى كمعالم قابلة للتشييع لسلوك مستقل عنها نسبيا وليست شفافة والتي يعاد تفعليها عبر الإحاطة بكم منتظم من التساؤلات والفرضيات. في حين أننا نعيب

عليه غالبا تموقعه الخارجي الذي يقف حاجزا أمام الفهم الأصيل، يمكننا القول بالعكس بأن هذه المنهج يسمح برؤية الكاتب كما هو يتكون، كما يخلق العمل الإبداعي: وفي جزء كبير يتمثل في تحديد الاحتمالات المشروطة وخاصة الغير أساسية. المقاصد الصريحة لكاتب تنتج عن مسار جدلي: وما يرنو لفعله يرتبط بالعلاقة بين التصور (اجتماعيا مشروطا) الذي يمتلك عن حالة الممكنات الأدبية، والتصور (المشروط اجتماعيا) الذي يمتلك عن مكانه وموارده وموقعه المحدد موضوعيا بما لا يحصى من العلامات التي ليست أحادية الاتجاه دوما في صالحه أو ضده. الهوية الأدبية تتحقق من خلال النصوص وأيضا من خلال وسائل أخرى (اتخاذ موقف سياسي، تحول ديني ...) وبفضلها يتم عمل تصنيف وإعادة تصنيف متفاوت النجاح والديمومة.

الوقوف في زاوية نظر الكاتب هو طموح منهج من هذا النوع. ولكن ليس به تقمص عاطفي لأن تجربة العامل هي حاضرة هنا، كما في البقية، نتيجة بناء: نمط التفكير العلائقي يفرض استغلال الممكن التحليلي الذي يمنحه التعارض في كنف أحد الأفضية الثلاثة المعتبرة والتناظر بينها. وهذه مع ذلك لا يمكن أن توضع في نفس المستوى. فضاء المواقف هو الوحيد الذي يمكنه أن يمتلك أسبقية تحليلية بقدر أنه يوجد على جانبي البنيات الموضوعية وحيث أنه منطقيا تحوي فكرة الموقع الأخريات، استعداد واتخاذ موقف (وليس العكس). بعبارة أخرى العاملون الذي يطمحون أن يتعرف عليهم ككتاب يجب عليهم الأخذ بعين الاعتبار بنية هذا الفضاء الذي له خصوصيات مثل الصلابة والغموض والديمومة ويوجد على شكل الأشياء، في الحقيقة، خارج الوعي، إذا أردنا. نظام المواقع (هرمية الأجناس وداخل جنس، هرمية الأشكال والمواضيع) له منطقه الداخلي الذي لا يمكن أن يختزل إلى أيا آخر: فهو الذي يتحكم في الظروف والكيفيات سواء في اختيار العاملين (استعدادت) أو في اختيار البدائل الشرعية (اتخاذ موقف). هذا الفضاء، وحدة تحليل لها حدود تعبر عن خصوصياته، هو حقل.

وإذا نظر إليها في حد ذاتها فإن فكرة الحقل لا تحوي شيئا آخر غير توصية صورية لمعالجة علائقيا الأفراد المعتبرين، يعني كمواقع تختزل إلى سماتها المميزة، ولكن هذه التوصية لا تصلح لمعرفة ملموسة بالحالة الفردية إلا شرط أن تكمل بتحليل للنمط الخاص للاستقلالية الخاصة بالحقل المعتبر. الاستقلالية لا يجب أن يفكر فيها حسب منوال قانوني لوضع المضمون لكون الحقل يعايش صراعات حول تحديد الرهانات الخاصة به، فهو إذا دائما معرض لعمل القوى المتعاكسة، ويعكس في كنفه تعدد درجات الاستقلالية. غير أن أثر الحقل ظاهر على الأقل في كونه يمنع تجاهل كل القانون الشبه مؤسس للاستقلالية بإلزام كل عامل بالإعلان عن انتمائه إلى الهرميات الأدبية البحتة والبحث على اعتراف الزملاء. طريقة لتحديد موقع الحقل الأدبي في فضاء الحقول هي أن تبرز أن القيمة الأدبية الخالصة تدين إلى باقي أشكال القيمات ولا يمكن أن تقدر لا بالأرباح ولا بعدد المطبوع: فهذه يمكن أن يستعملها بعض العاملين كأعراض (الجمهور إلى جانبي)، لا يمكن بتاتا أن تصل حد المعيار النهائي الحاسم. رفض الاقتصادي هو ربما علامة مميزة لهذا العالم المجلوب على قلة الاهتمام المادي.

انعكاسات فكرة الحقل كانت في مركز الأبحاث حول الحقل الأدبي. وتعلق الأمر في جزء منها في إغناء الوصف التاريخي لمسار الاستقلالية الذاتية كما في الفصول من قواعد الفن المخصصة للطريق نحو الاستقلالية التي ترى دور فلوبير وبودلير وعاملين آخرين في إطار ما يمكن أن نسميه تاريخا بنيويا. ساهم هؤلاء الكتاب في ابتكار نموذج الكاتب الفنان برفض مزدوج للصور الاجتماعية المتناظرة للكاتب البورجوازي وللكاتب الشعبي. نظرية الفن من أجل الفن ساهمت في تشكيل هذه الاستقلالية الذاتية للحقل: يتعلق الأمر بالنسبة للفنان أن يكون في خدمة فنه فقط متجاهلا القيود والضغوط الخارجية مهما كانت تجارية وأخلاقية ودينية وسياسية...أصحاب هذه النظرية هم أبعد من فرض تعريفهم للنشاط الأدبي يتوجب عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار الأفراد لهم مصلحة أقل منهم في إضعاف

الروابط مع قيم وأفكار جمهور يرتبط به وضعهم ووسائل عيشهم. هم منقسمون بين كتاب خالصين وكتاب تجاريين، الحقل الذي يتميز في هذه المرحلة له بنية ثنائية تعارض قطاع الإنتاج الضيق (الموجه للزملاء) وقطاع الإنتاج الواسع (الموجه للناس العاديين). لحظة مفضلة: ففيها تطورت صيغة تاريخية لازالت لحد الساعة قانونا متلازما للحقل.

جنب هذه التطورات يجب اقتراح منوال نظري لبنية ولحركية الحقل. القيمة الاستكشافية لهذا المنوال ترتكز على عمومية المقترحات مبدئيا المطبقة على كل حقل وفي نفس الوقت قادرة على أن تخصص لتوضيح تعدد التشكيلات. الحقل ليس تعايشا مشتركا لأفراد أو مواقع بل هو محل علاقة قوة ومحل صراع. واستقلاليته هي محل صراع حاسم وحول هذا الصراع ينقسم العاملون: التعارض بين الفنان والبورجوازي، بين الفن والمال يميل للتكرر في الحقل الأدبي. هذه الفئات المتنافسة وإن كانت تبتغي كلها الحصول على اعتراف أدبي فإنها مع ذلك تختلف جذريا في هرميتها: من يريد التفوق كفنان خالص لا يمكنه ذلك إلا على حساب النجاح التجاري، وعكسيا البحث عن الغنى والشرف يفترض ويترتب عنه التخلي عن النقاء الجمالي (يمكننا قول نفس الشيء فيما يتعلق بالأفضية الأخرى كفضاء المدارس الكبرى). يجب الاختيار: لا يمكننا بتاتا جمع وتراكم كل أنواع الأرباح. وهذا لا يمنع إستراتيجية الازدواجية مثل تنقل في الحقل الأدبي مقرونة بعلامات الاعتراف والتقادم.

وهكذا فالبنية المتصالبة والمتقاطعة التي تسم حقل السلطة يمكن التعرف عليها في قلب الحقل الأدبي نفسه على شكل تعارض بين صور (الفنان الخالص والكاتب البورجوازي)، في مؤسسات النشر والاعتراف. وهذا يعني ولو أنه يبدو معللا قرن بعض الأشياء مع طلب جمهور محدد، يعني الجمهور البورجوازي المتملك لسلطة فرض على الحقل آراءه وأذواقه يبقى مع ذلك أن الفنان في الظاهر هو الأكثر تفردا لا يزال بما فيه كفاية خاضعا لقانون الحقل، ولضرورة حتمية الاستقلالية فلا يمكنه تفادي تحديد نفسه ضد

الفنانين الأكثر استقلالية وإذا نوعا ما أن يجدد نفسه مفارقة كمستقل، فارضا بالمقابل على الفنان الأصيل الاستمرار في رفض تقديم تنازلات للمحافظين ولأعراف الساعة. إلا هذا الوفاء لمتطلبات الداخلية للحقل، "قمة شرفه" الأكثر خصوصية، فلا أكثر التصاقا به من أعضاء الطليعة السابقة. وإذا كان في الأخير التعارض بين نموذجي الكتابين (أو المثقفين) يشكل أحد المبادئ الثابتة لبنيوية الحقل والسبب هو أن علاقة التضمن بين الحقول التي هي على شكل في حقل تابع، الخارجي الذي يرتبط به يوجد في الداخل كموقع (إلى حد ما) شرعي: "التعارض الرئيسي بين الإنتاج الخالص الموجه للسوق المختزلة إلى المنتجين والإنتاج الواسع الموجه لملأ طلبات الجمهور الواسع، تعيد إنتاج القطيعة المؤسسة مع النظام الاقتصادي التي هي في أساس مبدأ الإنتاج المختزل؛ وتتقاطع مع تعارض ثانوي داخل نفس الحقل الجزئي للإنتاج الخالص، بين الطليعة والطليعة المكرسة" (قواعد الفن: 175). إن الحقل مهيكل حول قطبين أو ثلاثة والذي من خلال الانكسار لمنطقه الخاص تدل على علاقة مع الحقل وعلاقة مع ما هو مضمن فيه: "الإنتاج الواسع"، الإنتاج المختزل نفسها مقسما إلى طليعة وطليعة مكرسة. هذه المواقف تتقابل وملتصقة أو متناظرة للمدارس الكبرى والمجلات ودور النشر والمؤسسات .... وربما تحت تجديد الحجج والأشكال ألا يشهد الحقل الأدبي نقاشا آخر مهما غير ما تعلق بإشكالية استقلاليته الذاتية[1]. من جهة للصراعات الداخلية ميزة المساهمة في تقوية المطالب بالاستقلال الذاتي المحتوية على الأقل ضمنيا في التعريف الرسمي للحقل ولكن من جهة أخرى فهذه يمكنها أن تخطئ في لقاء حد بنيوي مسجل في عمل الحقل: العاملون لا يمكنهم رفض السيطرة الدنيوية للمسيطرين إلا

---

(1) في الحقيقة مفهوم الاستقلالية الذاتية يستدعي امتحانه على الأقل في موضعين: من جهة بخصوص الفنانين الخالصين بقدر ميلهم إلى استغلال الإمكانيات المتلازمة للحقل ومن جهة أخرى بخصوص الفنانين البورجوازيين بقدر شهادتهم من باب أولى بقوة الحقل كمعرفة بقواعد اللعبة التي يفرضها المثقفون الطلائعيون الغير مصنفين (قواعد الفن: 385).

من خلال الأسلحة الرمزية لتحييد الواقع والإنكار الجمالي ذاته، أسلحة تكرس بقدر ما ترفض، إنها تكرس ما ترفضه.

ومن واقع كونه يحوي ادعاءات لتحديد التفوق الأدبي ومن هذا اعترافا بالرهانات الخاصة بالحقل فكل موقف هو مجلوب على التنافس ويحوي اتخاذ موقف حول شرعية الابتكارات الداخلية. يعني أن المبادئ التي توضح بنية الحقل هي التي تسمح بتفسير التحولات. الحقل الأدبي يتسم بشكل خاص لزمنية التي هي أبعد من أن تكون بعدا كماليا أو خصوصية عرضية إذ أنها تعكس منطقه العميق: وليس الملاحظ هو الذي يحمل هذه التصنيفات بل العاملون الذين هم بأنفسهم "في نفس الوقت معاصرون وزمنيا متنافرون" (قواعد: 224). وفعلا يوجد توتر بين المدعين الذي يهدفون للوصول إلى مواقع في الحقل مع الذين يحتلون مسبقا المواقع. هذا التوتر هو شديد لدرجة أنه عندما يضع في المقدمة الجديدَ المدعون ليس فحسب في شخصهم (وقد تكون حجتهم الوحيدة، وهو ما يجلب الانتقاد والسخرية المتكالبة) ولكن بالخصوص الجديد في عملهم. الفنان الطليعي هو الذي يظهر من خلال التعارض البنيوي الجديد/ القديم، البعد الزمني المندرج تحت منطق الحقل. وعلى طريقة النبي يبدو أنه لا يستمد سلطته إلا من نفسه: غير عابئ بالمنافع المادية وبالنجاح الآني والساطع، حر، ولكنه بمعنى آخر، نسبة للمناول التي خلفها التاريخ، يدمر تعريف المواضيع واستعمال الوسائل وبطريقة عامة كل ما يسمح لحد ذلك الوقت للقراء بتحديد الوجهة. إلا أن هذا الفنان لا يقوم إلا بشغل موقع مشابه أو قريب الشبه لما كان يشغله قبله أفراد طليعة أضحت اليوم معترفا بها ومكرسة. أثر التفرد القوي في حقل مثل هذا، ينتج عما، انطلاقا من مواقع نسبيا ثابتة ومواقف ذات صبغة جديدة، يمكن أن يولده وبالخصوص بفضل تجديد الموارد التعبيرية وبالتوليف غير المتوقع الذي يحققها أكثر المبدعين ابتكارا. الموقف المبتكر يتسم بتعارض مزدوج: يرفض من جهة التسهيلات والحيل ووصفات الفن البورجوازي ومن جهة أخرى التبعية والولاء للأشكال السابقة للفن من أجل الفن. ويكرس

التقادم كل المواقف القائمة ولكن بطريقة مختلفة: في حين أن كتاب القطب المخملي يبدو أنهم موجهين لنسيان يتعارض مع غناهم الآني، الكتاب المنتمون طليعة الأجيال السابقة يمكنهم الانتفاع من خلال عمل زملائهم والمؤسسة المدرسية باعتراف دائم قادر على إيصالهم إلى وضع تقليدي. الثنائية المكونة للحقل "التعارض الأساسي" المذكور عاليه تحدد "دورتي حياة مشاريع الإنتاج الثقافي، نمطي تقادم المشاريع والمنتجات التي تتبادل الإقصاء تماما" (قواعد: 208): علما بأن "دورة الإنتاج الطويلة: للطليعة تتعارض مع"دورة الإنتاج القصيرة" للكتب الأكثر مبيعا، ويترتب عن ذلك فوارق بين المواقف في الحقل تجعل معاصرين عاملين لا يعيشون في نفس الديمومة، البعض جمهورهم في المستقبل والآخرون في الماضي." (ن م: 225).

وبخلاف مجموع التفاعلات الآنية، الحقل الأدبي له شكل قصور ذاتي وهمود وعطالة ويميل للإفلات من تحكم العاملين الفرادى. ويتوجب مهارة نسبيا مرتفعة للوصول إليه والتنقل فيه، وارتجال إستراتيجيات. شرط النجاح هو بالفعل المعرفة الأهلية التي تقيد إمكانية فك شفرة مواقع الآخرين والدلالة التي يتوجب منحها لمواقفهم. في تقييمهم على العاملين بتعبئة نظام معقد للمعالم والعلامات التي تسمح بالقيام بتقريب وتعارض ورؤية ما هو أصيل وما هو بضاعة قديمة ما هو نبيل وما هو عام...إلا أن الأخطاء ممكنة (مع خطر خسارة التقدير والاعتبار): فقد رئي بروست كقصاص مخملي، وسيلين كقصاص شعبوي ....علاوة على أن أنظمة التصنيف تتغير خصوصا بعد ثورة رمزية في الحقل، والمواضيع المصنفة تغير موقعها بعد صراع تصنيف الذي يشارك فيه المتنافسون والمؤولون المؤهلون. ولا عامل يمكنه تجاهل آثار الحقل هذه والتي من بينها ضرورة اعتبار المواقف الأخرى والمعارف التي تنتقل بين الحقول. استقلالية الحقل تفترض شكلا خاصا للمهارة وهذه ترتبط بالتصنيف المتفاوت الموضوعية. تلك هي خصوصية أخرى أساسية للحقل الأدبي: وجود حكام ومؤسسات تقييم وتكريس. ومنح قيمة أدبية يعتمد على مجموعة مواقف هرمية: المؤسسة

المدرسية والمجاميع العلمية والمجلات والصحافة والشخصيات... تمتلك بشكل متفاوت سلطة تضمن شرعية الأحكام. وسلطة التكريس تمس في نفس الوقت أشخاصا يراد تصنيفهم ومعايير التصنيف.

الأدب وعلم الاجتماع

ربما قد يسأل، كما يقول البعض، ما إذا كان علم الاجتماع أكثر راحة مع المنتجين منه مع المنتجات التي تشكل مبدئيا الجزء الأساسي لما قد يدرسه علم أدب. حول هذه النقطة حصل تطور ما مشهود في طريقة مقاربة قضية الشكل وعمل التشكيل. في أول نسخة من تحليله للتربية العاطفية أحال بورديو دراسة هذه القضية إلى هامش ملحق مكتفيا بذكر ارتباط تبعية كل كاتب بالعلاقة مع معايير وقيم مرحلته. بلا شك كان مهتما بالخصوص بوضع مبدأ عام لتحاليله وعلاقة الحقل الأدبي بحقل السلطة ومقابل فعل القطيعة هذا (بغية "عطف العصا في اتجاه آخر" (ن م: 260) كان خطر رؤية عنيفة يذكر الكاتب بحقيقته الموضوعية.

في النسخة الأخيرة التي اقترحها في مقدمة قواعد الفن يعتمد بورديو على ما يعتبره كمكسب ويبدو مستعدا لتوجيه اهتمامه إلى خصوصية العمل الأدبي وهو ما هو ضروري إلا بعد ذكر كل ما يقرب وقفة فلوبير من عالم الاجتماع وكان عليه إبراز فيما يتمثل الاختلاف وكان الجواب مفيدا سواء للكاتب أو لعالم الاجتماع. وبعد تسجيل ملاحظة كتقدير أن "العمل الأدبي يمكنه أحيانا أن يقول أكثر ولو على العالم الاجتماعي من عديد من الكتابات التي تدعي العلمية" (ن م: 60)، يعارض بورديو الوقفتين حسب درجة تحكمهما الانعكاسي: إذ أن عالم الاجتماع يهدف إلى التحكم في فرضيات علاقتها مع الموضوع وهو شرط معرفة صريحة ومنتظمة، في حين أن الأدب مخصص للبقاء تحت سيطرة جاذبية، أثر خاص لهذا "الفهم المنكر"، لهذا الكشف الغامض للواقع الذي يتمسك به. يمكننا التعرف في عمليات فنية البناء والأسلوبية والتعبير على آثار هذا الوضع في مسافة للعالم الاجتماعي

ولرهاناته التي هي من خصوصية عمل التشكيل وأيضا في هذا الصدد نتيجة وشرط استقلالية الحقل. لم يتوقف بورديو منذ أول نصوصه عن إبراز أهمية علاقات الفنان بالبورجوازي لأن تلك العلاقات الموسومة بالاستياء والإنكار ومسافة التحييد بدت له مكونة للحقل الأدبي. رفض الفنان للعالم يبقى من مستوى رمزي ولكن مع ذلك فإن هذا التحديد هو أيضا قوة. وإذا كان تحليل مشيىء قد اقترح للوهم الخاص بالحقل يبقى أنه يمكن أن تعتبر الاستقلالية كإنجاز وأن علم الاجتماع يعوض خيبة أمل هذه للعلم بالنفع الكبير للتعلم باكتشاف في الأعمال الأدبية ليس فحسب للفرضيات حول العالم الاجتماعي ولكن لتجريب حول أنماط التشييء نفسها، تجريب قادر على تشجيع التحول النظرة هذه التي تسمح برؤية الواقع بشكل آخر كمرجعية معترف بها لوهم (تقريبا عاما) متقاسم (ن م: 62).

الفصل الرابع

نظرية النظرية

أصبحت النظرية اليوم لافتة وتستعمل اليوم كراية نبل ثقافي تكرس الوصول إلى درجات عليا من الكمال الثقافي والفكري. وقد أفردت في علم الاجتماع مجلات للقضايا النظرية ويطالب أحيانا بنظرية عاجلة مفكرين أحيانا بجسد في الفلاسفة، ويشَجع الباحثون على إفراد مكان في مقالاتهم أو كتبهم خاص بالرؤى العالية النظرية. وأمام زخم الإنتاج النظري المعاصر قد ننتقل حسب الحالات (يعني حسب المسارات) من انبهار إلى شك. المشكك يرى قليل الاحتمال أنه أمام كل مطلب بنظرية تقابله مساهمة فعلية سيميل لإنجاز جرد ولن يتعجب بملاحظة كم أن للكلمة من استعمالات مختلفة، من مجموعة الأفكار المنسوبة لكاتب إلى مدونات البديهيات المذهبية حصرا مرورا بطرح متفاوتة الصورنة، رؤى عن العالم وتفسيرات جهوية لسلسلة ظواهر. وهكذا يمكننا على سلم ترتيب النظريات من الما بعد حديثة، إلى نظريات الطبقات الجديدة، وذات التوجه الثقيل للمجتمع ونظريات المقاولة والعائلة والمدرسة...إلا أن الجرد ولو عطفا يستعمل معايير واسعة يؤدي، على أغلب الاحتمال، إلى فشل كثير من المرشحين الباحثين عن نظرية والذين لا يفهمون جيدا بوضوح بأي مقدار تسمح مساهمتهم بالإخبار عن ممارسة العمل الميداني، فليست فحسب طريقة جديدة معقدة لوصف الوقائع المعروفة أو بل إنتاجها على المقاس.

وإذا تعلق الأمر بنظرية علم اجتماع بيار بورديو، فإننا سنحرج مرة أخرى. بقدر ما أن بورديو يدعونا ب للحيطة والاحتراس من الفرضيات المسماة نظرية لاقتراح أو لاستعمال منهجية، مدعوون إذا جاز التعبير إلى عدم تجاهل الأبعاد النظرية في علم البحث بقدر ما أن النظرية التي يبدو أنها دعامة كل هذه الدعوات يمكن أن يكون صعبا تحديدها

والتعبير عنها على شكل عدد قليل من الطرح. هذا التباين، تباين الوضع النظري والنظرية، ليس قليل الدلالة ويكشف عن نظرية النظرية، ويمكننا أن نسميه "ذرائعي". النظرية لا قيمة لها إلا لكونها تعمل وتوحي بفرضيات ونقلات عقلانية وبرنامج أبحاث وتساؤلات؛ من واقع ذاته كون النظرية توجد قبل كل شيء "في الفعل"، صيغة صريحة ليست مستعجلة وضرورية مطلقة وتحوي ربما خطر تغيير طبيعتها. وإذا لا يمكننا الغلو لحد القول بأن بورديو منع عن نفسه السجل النظري للطرح، يمكننا ملاحظة بأنه استعمله باعتدال كما اعترف بذلك (أجوبة: 69؛134). حضور الاهتمامات النظرية يمكن أن يرى بالأحرى في طريقة التفكير والكتابة حيث تتأكد درجة تحكم عالية في الخطاب: قبل المغامرة على مزاعم حول الواقع يجب التأكد أن ما يمكن أن نؤكده بمعقولية معتبرين فضاء الممكن النظري.

علم طموح

أحد أولى الاستعمالات النظرية يمكن أن يكون استعمالا سلبيا ذلك الذي قد يؤدي مثلا إلى التشكيك في إيديولوجية المدرسة "للموهبة": ودون الأخذ بعين الاعتبار البعد الثقافي للعمل في آليات إعادة الإنتاج المدرسي للفوارق الاجتماعية فنحن مدفوعون بلا محالة لقبول مجموعة من الفرضيات غير المقبولة من نوع طبيعي وأحد أشكالها المتطرف هو "عنصرية الذكاء". رفض مثل تلك الأيديولوجيات هو ما يشجع على استكشاف السبل الأخرى المفهومية وعلى إنجاز مجموعة ثورات فكرية -خصوصا "العنف الرمزي"- الموجهة للسماح بالتخمين بطريقة نسبيا مستقلة في العوامل غير الاقتصادية للنجاح المدرسي، وهو ما يفترض من بين فرضيات أخرى ربط خصوصيات العمل المدرسي بعلاقة مع الاستعدادات الاجتماعية المشروطة للتلاميذ وتوضيح العلاقة مع اللغة والثقافة، والمدرسة للتفكير في الأشكال المختلفة للتملك وفقدان الملكية الثقافية. لوصف الفوارق الملاحظة في الموضوع المدرسي دون ذكر دور الرأسمال الاقتصادي وحده يجب تخيل شكل أصيل للرأسمال

مطلوب بمنطق إعادة الإنتاج الثقافية بالذات للفوارق الاجتماعية أمام المدرسة: 'الرأسمال الثقافي' هو بالضبط مجموعة للاستعدادات الاجتماعية هذه المشروطة التي تسمح بتوضيح الآثار التفاضلية للعمل المتجانس و تجانس المدرسة.

الاستعمال السلبي للنظرية الذي يتمثل أكثر في الأفعال منه في التصريحات هو أبعد من أن يكون مبدئيا شيئا سهل القيام به. لأن هذه اللحظة الحاسمة تلعب دورا نشيطا في العمل التجريبي الميداني برسمها الشروط ذات الصلة لبناء مستقبلي للموضوع، ومن جهة ثانية في نفس الوقت، ببساطة لأنه لا يمكننا الجزم بيقين ما إذا كانت الحواجز التي ظهرت تم التغلب عليها وتجاوزها بلا رجعة.

فيما يخص الاستعمال الإيجابي للنظرية يمكن أن ننجزه من خلال التصور الطموح الذي يقترحه بيار بورديو لعلم الاجتماع. فإذا كان يرفض صياغة أطروحات أساسية ونهائية فإن كل عمله يظهر أنه إذا كانت النظرية الاجتماعية ممكنة فليس ذلك إلا على شكل جذري ودقيق: علم الاجتماع هو قانونيا علم مثل الفيزياء ولذلك فهو يصمد أمام قيود الواقع (الاقتصادية والقانونية والمدرسية...) لصالح تعريف مستقل لمواضيعه ولوسائله، يمكن أن يكون إلا كعلم وحيد للاجتماعي. وهناك عبارة يستسيغها بورديو وهي عبارة 'العالَم الاجتماعي': بالتعارض مع المصطلح الواقعي 'المجتمع'، وهذه العبارة تدل ليس فحسب على مجموعة أشياء أو مجالات ولكنها الشرعية الخاصة بنظام الأشياء الاجتماعية، شيء ما شبيه بالمعنى الصوري الذي يعطيه كانط للموضوع مفهوما natura formaliter spectata، للمعرفة الطبيعية. لأنه يعود إلى العلم وحده تحديد شرعية هذه الطبيعة التي هي العالم الاجتماعي، علم الاجتماع هو مفهوم عِلم موَّحَد (ولكنه ليس متوحدا) الذي يخرج عن قبضة التصنيفات الاجتماعية 'العلمية'، ويستعمل فيما هو ابعد من المجتمعات المتفردة لاكتشاف معمارية المبادئ الكونية. مثل ذلك العلم يجهل الهرمية الاجتماعية للمواضيع

ولكنه يأخذ الهرمية كموضوع دون أن يحرم نفسه من تقريب المجالات المتباعدة ظاهرا، ولكنها مرتبطة بعلاقات قرابة خفية.

بيار بورديو يعطي لعلم الاجتماع دورا متطلبا، على قدر العلمية التي يمكن أن يؤمل في المطالبة بها. الوقفة العلمية تحوي فرضية وضوح: الحقيقة هي مبدئيا ممكنة للمعرفة العقلانية من حين نبدأ في استعمال الوسائل الملائمة. ولا يكمن هنا لا توقع علم اجتماع ولا علموية ولا إمبريالية بأي شكل من الأشكال، ولكن فقط مخطط عمل في البحث ملك مشترك بين كل علماء الاجتماع. مع كل خصوصيته التي لازالت تتطلب فهمها، فإن العالَم الاجتماعي معروف كما هو الأمر لعالَم الفيزياء: توجد علاوة أرضية معرفية في جزء كبير منها مشتركة بين كل العلوم التي تعمل بواسطة آلية مشابهة، آلية القوانين والفرضيات والبراهين والتكميم.

ولكن ليست في هذه النقطة تبرز أصالة بورديو، بل في طريقة استنباط برنامج عمل واستغلال موارد التخصص إلى ما أبعد من الحدود المعترف بها اجتماعيا له. ليوجد علم عالَم اجتماعي يتوجب متابعة مشروع إنتاج مواضيع جديدة، مبنية بطريقة مستقلة وليس سابقة البناء، تسلم تامة الانجاز(على طلب اجتماعي، وحقل إداري، وحقل سياسي...)، و لذلك لا يجب التردد في التشكيك ورفض الحدود الذهنية المقامة بواسطة التقسيم الأكاديمي بين مجالات المعرفة. وبفضل، خصوصا، عمل منهجي حول رتابة الفكر تلك التي ثقل على كل عقل بداية بعقل الشخص ذاته، عالم الاجتماع يجب عليه اقتراح وفتح تدريجي وجزئي للحرية الفكرية. وانتقاد حدود الفكر الأكاديمي ليس متناقضا مع الجهد لاستغلال موارد كل التخصصات: الخيال الاجتماعي الذي هو ميزة كبيرة يتمثل فيما يتمثل فيه اكتشاف الجانب الجديد الذي به يمكن لموروث ثقافي (تخصص) أن يملأ به وظائف جديدة.

ومن بين العديد من أمثلة هذا السلوك يمكننا ذكر العلاقة مع مفاهيم الفلسفة، وهو سؤال طالما طرح خطأ على شكل بديل ساذج من نوع مع أو ضد، التحاليل الميدانية

للممارسات الثقافية خاصة، مثلا حول زيارات المتاحف واستعمال الهواة للتصوير أدت إلى لقاء مفاهيم الجمالية الكانطية[1]. إلا أن هذا التلاقي أبعد من أن يكون له دور زخرفة نبيلة يلعب وظيفة في اقتصاد البحث، وفعلا ملاحظة تجريبية بحتة للفوارق الثقافية كان يمكن أن يكون بالإحاطة علما بواقع أن مختلف المجموعات الاجتماعية كانت ممثلة بشكل متفاوت في الاستهلاك الثقافي. وللسير قدما أبعد من تفسير إقتصادوي مبسط يذكر فقط فوارق الموارد المادية فقد كان ممكنا الرجوع لمتغيرات إما من النظريات الثقافوية تضع في المقدمة المقاومات الراجعة إلى أنظمة القيم وإما إلى نظريات العجز التي تفترض نقصا (لغويا، عاطفيا...) عند الممارسين بقلة، الطبقات الشعبية: وفي الحالتين كنا نخاطر بأن لا نفعل شيئا أكثر من كلام بالفم، وبل لنقول أشياء سياسيا وفكريا موضوع شك. بقي اختيار التفكير في العلاقة 'العلمية' والعامية مع الثقافية. تحليل خطاب العاملين المؤكد من خلال مجموعة مؤشرات يمدنا بها التحليل الإحصائي للاستبيانات (مثلا الأجوبة التي تتعلق بمنفعة السهام في مسار الزيارات، أو الملاحظات الإخبارية...)، تكشف أن فئات التصور والفهم والتقييم المضمنة في الدراسة هي مهارات ثقافية نسبية. الملاحظ 'العارف' يكتشف أن تساؤله ينحو لتحديد مكانه في الفضاء الاجتماعي وقد يدفع للتشكيك في وسائله ذاتها، ومن خلالها اللا معقول الذي تشكله وقفة المثقف، وقفة شرعية معترف بها عموما. هذه الوضعية التي تميل الطبقات العليا إلى تبنيها تقدم أغلب السمات الخاصة حسب كانط للحكم الجمالي، لا مبالاة للوظائف الخارجية (منفعة، أخلاق...)، عدم اختزال إلى فعل معرفة .... وبالتعارض، فقد ظهر أن الطبقات الشعبية قليلة الكانطية إذا سمحت العبارة دون إضحاك (ولكن هل فكرنا سابقا في اعتبارالفيلسوف بجد لاختبار على مجموعة اجتماعية معينة الكونية المفترضة لحكم الذوق؟). ولكن الكانطية لا تمنح فحسب وسيلة لإظهار التباين بين المجموعات الاجتماعية. يعطي درسا أناسيا خاصة: التفريق بين الفهم والحساسية بين المعرفة والذوق الذي تفترضه

(1) عد لتعريف الاجتماعي للتصوير في فن متوسط لبورديو: 122، وحب الفن لداربيل وشنابير: 162-163.

استقلالية الحكم الجمالي حسب كانط، ظهر أنه مشكوكا فيه من حين ظهرت بالتحري الميداني الروابط بين المهارة الثقافية واللذة والميل نحو التملك رمزيا للأشياء الفنية. إدراج كاتب فيلسوف في التحليل الميداني الذي استعمل قليلا منذ دوركهايم يسمح بإنتاج أثر معرفة بتحريكه للهرميات وبربط المفهوم بالتجربة، التصنيفات النظرية والتصنيفات الاجتماعية. الفلسفة التي يستدعيها عالم الاجتماع بحرية تمنح مفاهيم تتفادى لهذا السقوط في مخاطر السذاجة النظرية. ومن بين المنافع الملموسة لهذا النهج توجد النقاط التالية، الغنية بتطويرات مستقبلية: مرجعية العمل التجريبي الميداني إلى رهانات نظرية؛ الاقتراض من الفلسفة لموارد عقلانية نسبيا مصورنة تأتيها من تاريخها؛ إظهار الظروف الاجتماعية لممكن طبقة تجارب مخمنة بعفوية ككونية؛ المساهمة في دراسة اللا معقول الاجتماعي لتقليد فلسفي كله؛ وأخيرا وسيلة لوصف استعدادات الطبقات وإغناء المعرفة بالأشكال الثقافية خاصة وإعادة الإنتاج للفوارق بين المجموعات الاجتماعية أمام الثقافة.

مسلمة الفهم والوضوح

المعرفة الاجتماعية تتمثل في مسار تشييئ يهدف إلى إيصال بطرق منهجية المتنوع الميداني إلى وضع موضوع ينتمي للنظام الشرعي للمبادئ والقواعد. ومن جهة العالم الاجتماعي يتوقع أن يحكم عليه بمنهجيات التحليل التي تهدف إلى تصنيف وقياس وترتيب مجموعة من الظواهر التي بالرغم من أنها تنقاد على الأقل تحت زوايا لمثل تلك العمليات. ومن جهة ثانية مهمة العمل العلمي هو عرض وسائل المعرفة على منطق هو منطق اقتصاد الوسائل.

المسألة التي تعترض كل بناء موضوع بسرعة هي مسألة وحدة التحليل. للتمكن من العمل يجب الاعتماد، اللهم إذا كنا تجريبيين صراحة ومناضلين، الاعتماد على طبقة أشياء نظن عن علة مقبولة أنها نسبيا متجانسة. إلا أن تعريفا أسمائيا سواء مبني على الحدس أم

القانون هو لا محالة ناقص أو مخطأ: فمجموعة ميدانية (شلة، مهنة، شبكة علاقات...) تشكل موضوعا قطع اعتباطيا له حظوظ قوية ليكون مصطنعا لأنه جزء من طبقة منطقيا أوسع. ويصادف بالتأكيد الباحث دائما مواضيع متفردة ولكن يجب عليه معرفة تحديد الإطار المرجعي لهذه المصادفات. ولتعيين التوسع الملائم لطبقة الأفراد (عاملون، ممارسات، خصائص، مؤسسات...) ذوي صلة، يستعمل بورديو عبارة "الفضاء". وهكذا "فضاء أساليب الحياة" هي وحدة تحليل مطلوبة لدراسة الأذواق الفردية (اجتماعيا مشروطة): يمكننا ربط علاقة حسب حاجيات العمل الميداني سواء مع فضاء المواقع الاجتماعية أو مع فضاء جزئي مثل فضاء أذواق الطبخ الغذاء، أذواق اللباس.... منهج للفهم هذا في بناء الموضوع هو أحد الأسباب الأساسية التي دفعت بورديو إلى تفادي اقتراح نظرية طبقات (أو التراتب). رغم أو بسبب المظهر المتواضع، فإن الفضاء الاجتماعي هو وسيلة مرضية أكثر من الطبقة. في حين أن نظرية الطبقات تميل لفرض بكل ثمن تناسقا نظاميا يخفي تجريبية الطبقات المعاينة تحت شكلانية المعايير، ويمكننا البحث لرؤية بالأحرى الطبقات قبل كل شيء كمنتجات عمل تعبئة التي هي أيضا عمل نظري للتصنيف الاجتماعي له قيوده المتلازمة بداية بالطبع من القيود التي تترتب عن بنية الفضاء الاجتماعي. وحدة التحليل ذات الصلة في هذه الحالة ليست نظام الوحدات الجماعية المسماة طبقات بل مجموع المواقع الموضوعية بقدر ما أنها محددة بعدد قليل من المبادئ: منها يوجد مثلا امتلاك ما هو في تشكلة اجتماعية محددة مكون الرأسمال (في هذه الحالة الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الثقافي) وحجم الرأسمال الممتلك. وإذا كانت كل المواقع قابلة للتحليل في هذا الإطار فالتاريخ الاجتماعي يسمح بتوضيح بطريقة معقولة التغيرات الملاحظة بين الفضاءات الخاصة. غير أنه في واقع البحث ليس من السهل دائما تبين الوحدة التي نرغب العمل عليها وأن أحد الأهداف الأساسية يمكن أن يتمثل في تحديد الحل الحصيف والخصب: مثلا عندما نتحدث عن مهن منطقة نسبيا موحدة تسمح بجمع المهن المعتبرة إلى ما ابعد من الوظائف الخاصة التي تدعيها بصراحة. هذا

الاختيار هو فرضية قابلة للاختبار ويمكن أن ترفض لصالح إمكانيات أخرى تضع في المقدمة جوانب أخرى، الفئة والتواصل....

الفضاء هو أخيرا زاوية نظرعلى الأقل مرحليا لمعاينة بأكثر ما هو ملموسا وبأكثر ما يمكن من الخصائص الممكنة أكبر عدد من الأفراد.

المفاهيم الأساسية مثل الإنعواد والحقل هي أولا طريقة لتجاوز غموض الحدس الأولي، وهي موجهة لتفردات ظاهرا تبدو أنها غير مختزلة: تسمح بالسيطرة على التعدد مع البناء في تعرجات الخطوط وفوضى الأشكال نقاط الخصوصية التي بينها تتم العلاقات المنظمة والمؤسسة على وحدة مبدأ، منحنى أو محور يمكن أن نقول عنه في لغة ليبنيزية يستعملها بورديو عن طيب خاطر بأنه يحوي متناه في منته. هي تصورات فكرية 'كائنات دقيقة أحادية الخلية' لأنها تملأ بشكل ما الوظيفة التقليدية التي تعود إلى الجواهر المادية مع كونها معادة الترجمة وممثلة في منطق بنيوي للعلاقة. وفعلا هذه التصورات تمنح من جهة مبدأ أحاديا وداخليا للتحليل، قاعدة تحويل لمستقلة ذاتيا منهجية تشجع السير قدما ما أمكن في التفسير مع تفادي إغراء التجريبي لاستعمال عدد غير محدد من العوامل أو المتغيرات الآتية من الخارج[1]. تحوي من جهة مبدأ تعبير بفضله توضح العلاقة بين شكلي التعدد: تعدد

---

(1) استعمال نظام المبادئ المصدرية في عمل تجريبي يعاني من سلبية أكاديمية باهضة الكلفة: فنحن نستدعي المخفي وتحليلات معقدة لتوضيح الظواهر التي يبدو أنها قد تفسر دون تجاوز المستوى الظاهري للمظاهر الواضحة. وهكذا إذا تعلق الأمر بممارسات مثل ممارسات الاستهلاك أو التصويت فإن الإغراء الثقافي الآني (اجتماعيا مشروط ومعاد الإنتاج) يتمثل في استكشاف العلاقات بين الاختيارات وبطارية متغيرات: المعطيات كانت معروضة من خلال الممارسات الاجتماعية للشراء أو التصويت، يكفي وضعها في علاقة الممارسات المعنية مع خصائص العاملين. إلا أنه وكما لا نتوقف عن ملاحظة تنوع تجريبي، يؤدي منطق العمل الثقافي إلى وضع في المقدمة ارتباطات التجريبية الجديدة التي تكذب التمثيلات السابقة للأسباب والعلل. وهكذا يمكننا التأكيد بأن المهنة والجنس والسن لم تعد لها وظيفة تفسيرية في حالة ما دون التساؤل ما هو موضوع المسألة من خلال تلك المتغيرات وأيضا ما هو سياق التحليل الذي يسمح بفهم الاختيارات التي ولأنها موجودة في الحقيقة تميل لتعتبر كمسلمة. ولا نرى بوضوح كيف تكون التجريبية على خطأ لأنه بالصبر سنعصر على متغيرة أو توليف متغيرات تسمح مؤقتا باقتراح تفسير للسلوكيات. وطبيعي أنه أكثر تعقيدا اتخاذ كموضوع دراسة نظامية العلاقات بين أنظمة علاقات وفضاء ممارسات، فضاء أنماط حياة وفضاء مواقع ومسارات؛ والتفكير زيادة على=

داخلي يسم الحقل أو الإنعواد كونه كذلك، وتعدد خارجي خاص بمجموعة بنيات موضوعية (طبقات اجتماعية...). الحقل هو القانون الذي يجعل قابلا للتصور نظام تعايش التعدد: المتنافسون في حقل معين (أدبي، ديني...) ليسوا أكثر غرابة وبعدا بينهم لدرجة لا نأمل معها باكتشاف عدد محدد من النقاط التي حولها يمكن تحديد موقع كل النقاط المحصاة والتي هي بنفسها مرتبطة بينها بعدد محصور من روابط القرابة والمعارضات (القادرة، وحقا، على أن تكون مخصصة بعدد لا يحصى). الانعواد هو قانون متلازم لإنتاج سلسلة ظواهر نسبيا متجانسة: الممارسات والتطلعات الرياضية والثقافية والأخوية والعاطفية لمجموعة عاملين محددة ليست متباينة لدرجة تمنعنا من الأمل في أن نكتشف فيها لقرابات متفاوتة الخفاء. زيادة ولأنه ما هو عليه بحكم الإقصاء الضمني لإمكانيات أخرى، فهو محدد بتميزه واختلافه[1]، فانعواد معين يعبر عن كل فضاء اختيارات الممكن. وهكذا التعدد الداخلي - للحقل أو الانعواد - هو خاضع لنظامه الخاص مع التعبير بفضل العلاقات المضبوطة عن تعدد خارجي.

تحديد وحدات التحليل هو جانب حاسم من العمل النقدي وبناء الفرضيات. وجانب آخر هو معالجة مشكلة العلاقات بين التتابع والتقطع التي نلاقيها بخصوص التصنيفات. كيف يمكننا التخمين في القانون الذي يربط هذه النقط، مواقع؟ خطابان متعارضان يبدو أنهما قد يقدمان في هذا الموضوع. فمن جهة يمكننا القول بأن الواقع له خاصية تتابع وأن العلم ملزم بإدخال تقطع ليتمكن من التخمين؛ ومن جهة أخرى يمكننا القول بأن التتابع هو نتاج نشاط ثقافي يحاول تجاوز تشتت الظواهر. وحقا ينجز عالم الاجتماع بالتناوب العمليتين. يميز الأقطاب في فضاء ويبني نماذج مثالية بالتأكيد متعمدا على

=ذلك في نظام العلاقات بين المواقع الاجتماعية وحقل معين (مثلا الحقل السياسي). فجوة قديمة معرفية تلك التي فرقت من قبل ليبنيز والتجريبية الظاهراتية للفلاسفة الميكانيكيين.

(1) إذا أمكن القول بأن كل نقطة محددة علائقيا في فضاء، فإن للإنعواد خاصية أن يعرف كنقطة. هذه المعرفة الضمنية أكثر غموضا من نية الاختلاف والتميز وهي ببساطة معنى للفضاء الاجتماعي ناتج عن تعلم بالتجربة.

السمات الحاضرة على شكل مخفف أو موزع في الواقع؛ علاوة على أنه يحاول رؤية في مدى يمكن أن تجمع وتقرن أضداد بمبدأ تشويه منتظم. الثلاثي الساحر-الكاهن-النبي يبرز إمكانيات مقصية ولكن بناءه افترض مسبقا، اجتماع عاملين عاديين يرون كمنفصلين. ويمكن أن نفصل أكثر، يمكننا استكشاف توليفات نماذج مثالية مثلا جاذبية المؤسسة (إعادة الإنتاج: 155)، اجتماع سمات نبوية وسمات كهنوتية الذي يسمح لوكيل متبادل (الأستاذ في النموذج الكامل الشيخ في الأدب أو الفلسفة في مدارس التأهيل) أن يرى نفسه مبدع سلطته ذاتها.

وهكذا فالعمليتان العكسيتان والمتناظرتين تسمحان بالاحتفاظ بالمبادرة النظرية في مساءلة المعطيات: إما بتلخيص الواقع بحدودها الممكنة، وإما بتجاوز التباين بإنتاج صف يمكن فيه أن تتواجد الأضداد أيضا مضمنة وأيضا ربما باكتشاف المبدأ الذي يسمح برؤيتها كأشكال بديلة. التعميم المفهومي الذي يسمح بالحصول لمصطلح على استعمال قصوي، هو فعل توحيد يطرح كنسبي ثانوي مجزءات ظواهر اعتبرت غير متجاوزة وزيادة فغالبا لا تساءل: وكذلك أن نقول بوجود ثلاثة أنواع أساسية من الرأسمال -الاقتصادي والثقافي والاجتماعي أو علاقات (أجوبة: 94)- والقول بأن الرأسمال الثقافي موجود على ثلاث حالات مختلفة -مضمنة ومشيأة (في أعمال إبداعية) ومؤسسة (في شواهد)[1] - هي طرق لربط الجوانب المنفصلة وإذا التعرف على وتجاوز الاعتباطية أو على الأقل على حدود الاستعمال الأولي. العلة العلمية تفرض على نفسها بشكل ما تمارين جدلية وتبحث في معارضة الانطباعات الأولية. وتتساءل: هل الفرق هو كبير لتلك الدرجة، هل الهوية هي أوضح مما نتخيل؟ الفنان والخياط المبدع رغم افتراقهما بفجوة العلاقة مع السوق يمكن أن يعتبرا كمجتمعين ببعض الخصائص الحاسمة، مثل امتيازات الأصالة (توقيع وخاتم)؛

(1) الحالات الثلاث للرأسمال الثقافي، مجلة بورديو، 1979/ 30: 3-6.

وعكسيا فإن مجموعة ظاهرا متجانسة وموحدة مثل عائلة تعطي عند التحليل بنية فضاء مميزة للمواقع.

إلا أن عمليات الوحدة والتفريق ليست عملية ذهنية خالصة. هي تطرح مشكلة لأنها أيضا أفعال تنتمي لعالم اجتماعي. أن أجمع ما هو اجتماعيا مفرقا أو أن افرق ما هو اجتماعيا موحد، علي القيام بحساب الأنظمة الموضوعية للتصنيف التي تفرضها الدولة والمدرسة والكنيسة... استعمال مبدأ التتابع لم يترك لحرية تقييم ملاحظ يرى الأشياء من فوق. ونصطدم بحدود وشقوق وطقوس فصل كل التقاطيع التي تغذي أثرا فعالا اجتماعيا من غير القابل للقياس والذي لا يمكن تجاهله. وبالفعل العالم الاجتماعي مهيكل بمعارضات أسطورية (عالي/ أسفل، يمين / شمال، مذكر/ مؤنث...) التي يجب اتخاذها كموضوع بغية الانفصال عنها. شرط أن نفرض علينا كمسبق تشييئ التصنيفات الاجتماعية، عالم الاجتماع يمكنه أن يأمل عدم تكرار الأساطير الأهلية في قلب بناءاته وفي النماذج المثالية والتي لن تكون إلا بدائل "علمية". علما بكل هذا، يمكننا بعده بحرية اقتراض من العالم الاجتماعي وسائل تفكير بمنطق ترقيع يستعيد التصنيفات الأهلية لإعطائها استعمالا آخر يعني ليس التصنيف ولكن ابتكار أسئلة أصيلة. من المفرح التفكير بأن النص القديم لكانط صراع ملكة الحكم استعاذ شبابه وذلك يعود فقط لنظرة عالم الاجتماع الذي لا يبحث للتعليق عليه ولكن بالأحرى لاستعماله لحاجاته الخاصة.

الأفراد الذين يعمل عليهم عالم الاجتماع ليسوا أفرادا يعرضون على الحدس الحساس لأنهم لا يوجدون إلا تحت زاوية، التي تترتب في البحث، لتعريف الفضاءات التي يجب أن تأخذ في الاعتبار. هذه القطيعة التي تعارض البناء العلمي والتصور العادي، يذكرها بورديو من خلال معارضة الفرد المعرفي أوالفرد الميداني التجريبي (الإنسان الأكاديمي: 36). مثلا ليفي ستراوش (اختاره "صدفة"). الفرد التجريبي الذي نعطيه اسم علم هو كائن متفرد له ما لا يحصى من الأوصاف من زوايا عدة. وفي التجربة العادية نطور صورا نمطية تعتمد على

تكتيل مجموعة مشتتة من الخصائص -أجناسية وبنيوية ومشهورة- بينها أحيانا علاقات تناظر[1]. وبالعكس الدراسة العلمية لا يجب على الأقل في مرحلة أولية أن تقبل وصف تخصيص آخر للفرد إلا الذي ينتج عن التطبيق المنتظم لنفس المعايير الصريحة (أصل اجتماعي، مؤسسة) على فضاء الأفراد المعتبرين (جامعيين). التحليل، ونعرف ذلك منذ ديكارت، هو تحديد موقع موضوع ما في نظام منهجيا مبني من إحداثيات وفقط في هذا النظام. شرط البحث، هذا الاختزال الضروري للتجريبي إلى المعرفي، من الساذج البكاء عليه قبل رؤية ما يمكن أن يقدم، هو جانب من منهجية والتي تترتب عنها قواعد صريحة للانتقاء ومعالجة الخصائص.

وينتج عن ذلك أن المعارف العلمية تفترض وتنتج محو مادية الأشياء التي تعالج. في فضاء معين ليس يتحدد فحسب فرد بموقعه بل إن هذا الموقع لا قيمة له إلا تفاضليا: مقدار مداخل أو شواهد مدرسية يأخذ معنى إذا عرفنا مسار المتغيرة وهو ما يسمح بالحكم بأن ذلك المقدار ضعيف أو مرتفع وتحديد المالكين الواحد نسبة للآخرين. وبين الفضاءات المتشابهة نسبيا يصبح معقولا ومن الممكن التفكير في العلاقات من كل نوع: يمكن أن نلمح التناظر وتفعيل استعمال التحويلات المتناظرة وتطبيق التراكم (كما هي مولدة نظاميا في تحليل المقابلات. لأن نفس البعد يسمح برؤية القرابة بين الصفات المختلفة منطقيا: مهنة، سكن، زخرف ذوق مطالعات) . هذه المنهجية البنيوية ظهر على وجه الخصوص أنها نافعة عندما جمع بورديو منجزات عدة أبحاث واقترح اتباع قاعدة التفكير في "أنظمة العلاقات" بين الأفضية التالية التي هي نفسها "أنظمة علاقات": فضاء المواقع الموضوعية -الوحيد الممكن أن يعتبر كحقل- فضاء الاستعدادات وفضاء المواقف. (قواعد: 321). وهو ما يسمح بملاحظة لما نعتبر فئة أساتذة التعليم العالي القرب التي يحصل لخصائص المواقع المحددة حسب الثقل

(1) حلل بورديو في التمييز لعبة صينية: يطلب من اللاعب وضع اسم شجرة، طائر ...مكان شخص معروف، ملحق لعبة اجتماعية في التمييز: 625)

النسبي للرأسمال الثقافي الممتلك وسلطة المؤسسة و-من خلال توسط نوع من المسارات المرتبطة بأصناف تفكير وتقييم- المواقف المتخذة فيما يخص التعليمية والسياسية. وبهذه الطريقة يبدو ممكنا اقتراح منوال يفسر ويوضح النقاشات الثقافية (نقاش بارت وبيكار((الإنسان الأكاديمي: 151-156) أو الشقوق السياسية العقائدية وسط الجامعيين في مايو 1968 (ن م: 209).

فكرة المسار يمكن أن تعتبر كتعميم لفكرة الموقع التي تعطيها بعدا زمنيا. المسار هو توال مواقع مشغولة في فضاء مبني والذي نفسه متأثر بالتحولات المضبوطة. ولا يوجد سلم زمني موحد يطبق على كل الأفراد لأن التصنيفات بذاتها مثل السن (شباب / شيوخ) تعمل حسب منطق علائقي يختلف حسب المجموعات الاجتماعية (سنوات شبابنا متفاوتة الطول، والشيوخة سريعة) وحسب تحولات الفضاء الاجتماعي الذي ينتج في جزء من تأثيرات وظائف أعضاء البدن، وتأثيرات المؤسسات (تعريف السن القانوني للحقوق والواجبات...) الخ. نتائج مسار تتحدد بخصائص موضوعية، مثل حجم وتشكيل الرأسمال الممتلك، والذي لا يجب نسيان أن لا معنى له إلا نسبيا، علما أنه محدد نسبة لسوق معينة تمتلك تصنيفات متفاوتة الموضوعية: ولا يمكننا دراسة سيرة مهنية لأستاذ ثانوي وعالي إلا إذا عرفنا مسبقا هرمية المؤسسات، في ذلك الجانب المؤسساتي والفضائي (مدارس كبرى باريس، ريف...) والفرق في أعمار الدخول إلى هذه المؤسسات. وفيما يخص مسيرة كاتب مهنية والتي لا يمكن تحديدها بسهولة، تتطلب أن تدرس بفضل البناء المنهجي للمؤشرات الخاصة للنجاح والتكريس: يجب الاعتماد على علامات ومؤشرات غالبا ما لا ترى للعين الخارجة، مدح الزملاء، قبول في مجموعة مشهورة، إصدارات عند ناشر معين. هذا المثال يؤدي إلى التساؤل إلى أي حد يمكن أن يأمل تحليل الموقع والمسارات أن في التحرر من معايير التشفير التي تفرضها مباشرة تصنيفات الدولة: هذه التصنيفات لا تقوم إلا بتسجيل حالة في لحظة معينة بصراعات تصنيف، تعين الحدود والوضعيات، والمهن والنشاط والعمل والبطالة والأجور

والاستقلالية والدوام الجزئي وحوادث عمل وحالة مدنية وجنسية... إلا أن تنقلا مسجلا كحركة مهنية يمكن أن لا يكون كذلك إلا ظاهرا من حين أن خصائص الموقع لم تتأثر في أساسها، التغيير ليس مثلا إلا مكافأة رمزية خالصة (ترقية لدرجة عليا تسبق بقليل التقاعد في حالة الجامعيين، أو مشرف ورشة يعين مهندسا (التمييز: 122؛ قواعد: 360)).

نمط التفكير العقلاني" إذا كانت البنيوية جعلته منتظما في الأناسة فلم يكن من عطاءها ويدين في كثير حسب بورديو لفكر كتاب آخرين مثل كاسيرير (أجوبة: 72). بتعويض العلاقة بالشيء، يرضي نمط التفكير هذا فعلا متطلبا عاما الذي فرض في عدة مجالات، متطلب ابتكار وحدات من مستوى مجرد غنية بالإمكانيات العملية الجديدة. غير أنه لا يجب أن يقارب على طريقة مذهب ولكن كقاعدة تشجع على السير بعيدا ما أمكن في دراسة خصائص الموقع، وكما نرى في عديد من الحالات، مثلا، خلال تحليل موقع البورجوازي الصغير والذي جزء كبير من خصائصه مستنتجة من موقع وسطي في فضاء اجتماعي (أجوبة: 72). ونتيجة لازمة هي نفع تمييز منهجي بين الخصائص الإيجابية التي ترتبط بالظرف والخصائص التفاضلية التي ترتبط بالموقع[1]. عندما ندرس مهنة يوجد إغراء تلقائي وفي نفس الوقت جوهري وظاهراتي يدفع للبحث عن الحقيقة مجموعة باعتبار واحدا بعد واحد فردا الجوانب مثل الموارد ومحتوى المهمات المهنية (يدوية/ فكرية، عمل مكتبي، تعامل مع زبناء..) البنية السكانية للمجموعة ... بتلخيص كل ما قد تعاين به هذه المجموعة موضوعيا وربما أن تقارن مع آخرين. ودون إنكار صلة هذه الجوانب يمكننا ملاحظة أنها تزداد وضوحا لما نسائل المعطيات انطلاقا من مبدأ نظامي تحويه، ولكنها لا تنقاد كلية للملاحظة، مستوى التعايش أو مستوى المواقع، حد تفاضلي يتحكم في مجموعة اختلافات نظامية. وخصائص مثل السن ونسبة النساء والشواهد المدرسية والأصل الاجتماعي والديانة

---

(1) مستقبل الطبقة وسببية المحتمل، *Revue française de sociologie*, vol. XV,1974: 3-42

لا يمكن أن تعتبر كمتغيرات لا تقوم إلا بالتعايش وسط مجموعة بل يجب أن تقارب فردية واحدة تلو الأخرى بغية قياس ثقلها النسبي.

وفعلا فإن التحليل بعبارات الموقع لا تكتفي بالانطلاق من المتغيرات الملاحظة، إذ أنه يمنح تعريفا وسيلة توحيد وتنظيم لها. مثلا فضاء الطبقات العليا المهيكل بالتعارض بين الرأسمال المدرسي والرأسمال الاقتصادي. علما بأن المواقع المسيطرة التي تضمن الوصول إلى السلطة السياسية والاقتصادية تميل لتكون مشغولة من طرف الذين هم أكثر استعدادا لتجسيد النظرة المسيطرة للتفوق، وفي هذه الحالة الأفراد المتأصلين من الأجزاء المسيطرة للطبقات العليا، وليس عجيبا أنه بقدر ما ابتعدنا عن هذه المواقع يزداد احتمال أن يتواجد أفراد يمتلكون خصائص أخرى، نسوة يمتلكون شواهد مدرسية.... ومن غير الجدي البحث لمعاينة ما هو مرتبط بكل من هذه المتغيرات: التعارض بين المهن المعنية يمس ويفعل سلسلة تناظر بين مكونات الرأسمال والجنس وطبيعة النشاط والقيم. ونتيجة فإن الخصوصية المنتظمة للعلاقات بين المتغيرات تبدو وتؤدي إلى إلقاء نظرة مغايرة على المواقع بمقدار أنها تجمع خصائص ظاهرة وخصائص مخفية التي تدخل ضمنيا في تعريف المواقع. وهكذا، علما بأن المواقع المسيطرة هي في نفس الوقت موسومة اجتماعيا وجنسيا بالشجاعة والأقدام والوثوق والشخصية، يترتب عن ذلك أن نسبة النساء ليس جانبا من بين جوانب أخرى هو وجه منطق وحيد الذي هو أولا بنيويا. وإذا كان صحيحا أن المهمات والقيود المهنية (دوام جزئي...) لا يمكن أن تفصل تماما عن الخصائص الموضوعية والذاتية، الرسمية والشبه رسمية، للعاملين، فإن التمييز النافع في مرحلة من البحث، فيما بين ما يرجع للظرف وما يرجع للموقع لا معنى له آخر إلا منهجيا ربما، يعني مؤقتا. وسنتطرق لاحقا إلى خصوصية الفضاء الاجتماعي في أنه يكون أيضا رهانا: العاملون ليسوا أمام مهنة التي قد يكون معطي مفروضا بقيود ذاتية ولكنهم يمتلكون بطريقة محدودة وغير متساوية سلطة الفعل في تحديد

نشاطهم: هم يساهمون في إنجاز المنصب الذي يتبوءونه وإذا يوجد عدة طرق لتبوء مناصب متقاربة شكليا. (التمييز: 112).

نمط التفكير العقلاني يشجع رؤية مقارنة أو بالأحرى يتشبه بها. ويميل لاعتبار تشكيل ميداني فعليا كحالة خاصة للممكن (باشلار) (أجوبة: 54)، يدعونا لربط في نفس النظرة سلسلة المتعادلات البنيوية في فضاءات أخرى (مسيطرين آخرين) وسلسلة الحدود المتعارضة والمتكاملة في كنف فضاء معين (نبيل/ عامي). حين نعمل على فضاء، نعمل إذا بطريقة ليست أبدا محلية، جزئية مصغرة، وليس إلا لأنه لا يمكننا تفادي سؤال التمييز بين ما يعود للسمات الثابتة وما يعزى للفوارق بين البدائل. وقد رأينا فيما يخص الحقل الأدبي تواتر التعارض بين المال / الفن الذي نلاقى في حقول أخرى، وبلا شك لكونها معرضة للسؤال حول استقلاليتها فهي منظمة حول محور تنتظم حوله المواقع حسب درجة استقلاليتها. وهو ما يسمح بفهم لماذا يمكن لبورديو أن يكتب في قواعد الفن فصلا مخصصا لبعض الخصائص العامة حقول الإنتاج الثقافي، مضيفا التدقيق والتوضيح التالي: هذا النص يهدف إلى إبراز تحليل تاريخي للحقل الأدبي....مقترحات صالحة لمجموع حقول الإنتاج الثقافي، يميل إلى وضع بين قوسين المنطق الخاص بالحقول المتخصصة (الديني، السياسي، القانوني، الفلسفي، العلمي)[1].

مثل ذلك المساءلة البنيوية لها ميزة على الأقل منهجية هي تشجيع تحويل النظرة: ومحو الجوهر المادي الذي يرفق بتلطيف مقارنة بالتمثيلات وبالعقائد الأهلية التي يمكن أن تكون أو كانت مباشرة أو بواسطة لعالِم الاجتماع نفسه، لإبعاد نسبة الاستعدادات العفوية الواقعية والمشيئة التي هي متلازمة للسلوك الطبيعي. شخصيات قصة التربية العاطفية، أسماء علم رواية، قد نحس بارتباط بها، بالتجربة الحميمة للقراءة المدعمة بأشكال حميمة "عالمة" ومدرسية، قد نغرى أحيانا بالتشبه بها، هذه الشخصيات مع كل عواطفها وترددها تزداد

---

[1] قواعد الفن: 298-299. حول الدور الأساسي للبحث على الثوابت عد لأجوبة: 57؛ قواعد: 298.

وضوحا ويجب القول أنها تقريبا حية، عندما نقارنها كما اقترح بورديو بمواقع مميزة في "حقل السلطة".

أن نرى من زاوية جانب العلاقة، هو أن نرى بطريقة أخرى، هو شيئا ما رؤية في نظرة واحدة تعدد العوالم الممكنة والتي تكون فيها العلاقة المعينة ضخمة. السفر بين هذه العوالم، ينقلنا إلى عالم غريب ببساطة لأنه يفترض خرق حدود الإدراكية العادية: انطباع الساخر الذي نحس به أحيانا ليس هنا دون شك إلا أثر وظيفة معرفة. زعزعة الهرميات، تقريب الأضداد وإنتاج المتعادلات أو متجاورات هي إلى حد ما تمارين تجريب لا تنفصل عن الترفيه والجدية حول المواقف. عندما، وبلا سذاجة، يقترح بورديو على سبيل التمرين الاجتماعي تقريب كاتبين رآهم المهنيون جذريا مختلفين جدا مثل ألنAlain وهايدجير[1]، فهو يدعونا ليس لخلط بعنف الفلسفتين والتي يقيس جيدا اختلافاتها ولكن للتفكير حول الأفضية الفلسفية والثقافية التي تحوي تناظرا و في نفس الوقت هي متأثرة بتقاليد خاصة. اقتراح الجوهرية المادية النسبية للكتّاب هو إذا تخيل لما يمكن أن يشبه عمل التحويل الذي قد يمكن لأحدهما أن يلزم به لإعادة إنتاج موقعه في العالم الذي ليس تماما غريبا ولا متشابها تماما. لنتخيل هايدجير يتخلى عن "الكائن" والغابة السوداء ولباسه الجلدي للاستمرار في نزهاته، العمق القروي والتأمل الطويل ... وبالعكس لنتخيل ألن متخليا عن الأناقة الفرنسية واللامبالاة المدروسة ... كاتب (عمل، موقف في مجال...) يمكن إلى حد ما أن يعوض بكاتب آخر في ظرف وسياق محدد (حوالي 1900 في فرنسا برجسون كان يرى إليه كنتشيه أكثر صرامة وأقل شعرية[2]). مثل تلك التغيرات ليست أكثر حلما مما نتخيل (التحول، في آخر المطاف، هو أن تبدأ حياة جديدة، ابتكار مقابلة التقريبي في عالم مختلف). على أية حال يسمح

(1) بورديو الشروط الاجتماعية لتنقل الدولي للأفكار في
Romanistische Zeitschrift für Literatugeschichte, 14 year, 1-2, 1990M 9.

(2) أحفاد زارادشت: 38.

بالكشف عن القرابة أو التنافر بين أفضية المختلفة أو المواقع في أفضية مختلفة، تبعا لدرجات احتمال متغيرة.

نفس هذا السلوك المنهجي يترجم بابتكار استعمالات لسانية. ابتكار هو أولا لوسائل معجمية الممكنة الأكثر ملاءمة لحاجيات البحث. وأكثر من أن يكون تغذية ذوق ضار لتقنية محصورة على فئة (الانتقاد قديم[1])، المبتكر لا يقوم إلا باقتراح ترميز في خدمة أهداف التعميم. ويلزم نفسه مع خطر التعرض لانتقادات التكرار والثقل، في كشف أوراقه باقتراحه استعمالات مضبوطة للغة تستدعي قطيعة مع تصورات المسبقة وبناءات الموضوع العلمي. وهكذا الموضوع المعرفي يستدعي مصطلحات الفضاء والخصوصية والموقع ... التي تفترض تمييزا من مستوى مواضيعي: الفرد التجريبي (هايدجير) "يشغل موقعا" (فيلسوف ضد الكانطية، مؤول كانط، ثوري محافظ...) لا يختلط معه ولو أن من خصوصيات تقدم المعرفة زيادة بلا توقف الجزء الذي يعود للموقع، للفرد المعرفي، وزيادة وضوح في المعرفة، وبداية موجه للتصورات الملتبسة التي تمتلك عن الأفراد التجريبيين. وللقطيعة مع غموض الاستعمالات العادية للغة لا يجب التخوف من التكرار. "المشروعية" يمكن أن تكرر مرة أو مرتين أو أكثر في نفس العبارة مثل "الاستهلاك المشروع للأشياء المشروعة لمستهلك شرعي": الإطناب الظاهر يبرز تساؤلات مخفية، سؤال الشرعية يمكن أن يطرح هنا ثلاث مرات، وأكيد فإننا مدفوعين إلى طرح السؤال عن العلاقة بين المصطلحات الثلاثة.

نمط التفكير العقلاني الذي لا يمكنه الاكتفاء بكيفية تعبير متأثرة بإغراءات الجوهرية يجد في العمل على الكلمات وسيلة للحصول على عادات أخرى ثقافية. وليست مسألة لعبة كلامية لتقمص عباءة العلم. لأنه توجد ثوابت ملحوظة ونحن ملزمون بتجاوز المصطلحية المحلية وأسماء الأعلام المحلية لتسمية سمات مستوى عالي التعميم التي هي من نوع علائقي. يمكننا في هذا المنطق فهم الاستعمال المتواتر لعدد من أزواج الأضداد. في الفضاءات الهرمية

---

[1] طريقة لقول ذلك: "في العمق ما تقولون بطريقة معقدة في أخر المطاف يمكن التعبير عنه ببساطة..."

يوجد مسيطرون ومسيطر عليهم يحددون بهذه العلاقة نفسها: وخاصية المسيطر أو الموقع المسيطر هي التميز عن المسيطر عليه، ولكن أيضا -العلاقة ليست متناظرة- الغلق على التفوق، وواجب الكينونة مقارنة إليه يتحدد كل الآخرين. علما بأنه يطرح فيما يخص هذه الفضاءات مهما كانت يطرح سؤال حالة الاحتفاظ بها، لا مفر من إمكانية معارضة عوامل المحافظة وعوامل التدمير من خلال جدولية الكاهن-النبي ذات المصدر الفيبيري، النابعة من فضاء واحد من هذه الفضاءات. يمكننا إبداء ملاحظات شبيهة، دنيوي/ روحي،، شخصي/ غير شخصي عائلي/ دولي...التي تحوي قوانين شديدة العمومية. وأخيرا القيود العلمية البحتة لعمل التصنيف يترتب عنها تفكير حول الطبقات عقلاني بأكبر قدر ممكن للعاملين، ولممارسات ولمؤسسات ولرأسمال... وهكذا يكون لاستراتيجيات إعادة الإنتاج، مفهوم موحد الذي إلى ما فوق مجالات الوجود الاجتماعي (البيولوجي، الاقتصادي والتربوي...) يشير إلى الممارسات المميزة التي تستعملها عناصر مجموعة لتتابع ديمومتها، يعني بالضبط لإطالة الإرث المتملك، شرط إطالة عمر الكائن الاجتماعي (التمييز: 145؛ استراتيجيات إعادة إنتاج كيفيات الهيمنة، مجلة بورديو، 1994/ 105: 3-12). فيما يتعلق بإعادة الإنتاج الكلمة مخيفة ربما بطبيعتها الفجة العنيفة التي يبدو أنه يقترحها، هي فكرة لا تفترق عن مقاربة علائقية للعالم الاجتماعي وهي أكثر ما طور ماركس من نقطة: فليست استمرارية شيء متعال التي هي الموضوع، العائلة أو الطبقة، ولكن بالأحرى العلاقة التي تدين بثباتها إلى خصوصيتها اللا تناظرية، امتلاك وفقدان ملكية لوسائل الإنتاج تؤسس دائرية الفوارق بين المواقع المختلفة والفوارق بين الأرباح المحصلة بهذه المواقع؛ دائرية المفترض مسبقا هذه والنتيجة ليست دورة مسار طبيعي بل لمسار اجتماعي.

لنظف ختاما لهذا الجانب المصطلحي، بأنه في أية حالة المفاهيم من هذا النوع لم تستدع للاستعمال كتصنيفية مغلقة[1]، وظيفتها هي بالأحرى الإيحاء بالمشاكل (هل توجد هرمية متغيرة حسب المجموعات، إستراتيجيات إعادة الإنتاج؟ هل توجد ثوابت في وظيفتها؟ هل يمكن أن نفكر في حالات حرجة؟...): 'يمكنها أو بل يجب أن تبقى مفتوحة مؤقتة وهذا لا يعني فضفاضة أو تقريبية أو غامضة' (أشياء قيلت: 54). وإذا ظهر بأنه توجد وسيلة أحسن لملأ الاستعمالات التي تؤديها فلا يجب أن نمنع أنفسنا منها. لأنه بعد كل شيء في آخر المطاف، مسلمة التوضيح التي اقترح بورديو هي ملك مشترك لجماعة علماء الاجتماع: يقترح بأنه يمكننا العمل على العالم الاجتماعي من حين أننا نعتبر كخاضع لحكم مجموعة عمليات معرفة، وأن هذا العمل له قيود متلازمة. وهكذا يمكننا أن نتساءل في إلى أي حد بعض الانتقادات الموجهة لعلم اجتماع بورديو هي موجهة إليه حقا ولا تهدف أبعد منه نظرية معرفة المجتمع التي يتقاسمها كل عالم اجتماع[2]: ماذا سيكون علم مجتمعي لا يبحث لتقطيع بطريقة ممنهجة وحدات تحليل، ولا يفكر علائقيا، ولا للحكم على العلاقة مع الموضوع...؟ إذا أمكننا حول هذه النقاط توجيه نقد لبورديو فهو صرامته ودقته العنيدة.

أساطير وحكايات

يمكن القول بأن المفاهيم الأساسية 'النظرية' المستعملة في أبحاث بورديو لا تحوي 'أطروحات' وهي قبل كل شيء وسائل تماما خاضعة لضرورة بناء الموضوع العلمي. مرتبطة بسياق نمط مساءلة وبحالة أبحاث، وهي قابلة للتغيير وإعادة التأويل. واستعمالها المنهجي

(1) انتقاد قديم لأن ليون برونشفيك انتقد دوركهايم لعدم تجاوز نمط التفكير التصنيفي الأريسطي، بنتو، الجزئية والتدقيق: 159.

(2) في مهنة عالم الاجتماع كان قد اقترح تمييزا بين النظرية المعرفة الاجتماعية والنظرية الاجتماعية. الأولى هي معرفية مسبقا تبقي مفتوحة اختيارات للثانية التي دورها أن تقول لنا ما شان العالم الاجتماعي باختيار من بين الاختيارات، المناظرات والجدل العلميان يجب أن يكونا حول هذا المستوى.

يقابله مبدأ عدم معالجة إلا قضايا تجعلها ممكنة وهذه لا غيرها. وهنـاك مواضيع يلـزم علـى عالم الاجتماع أن يعترف بخصوصها بعـدم امتلاكـه أو لازال لم يمتلـك بعـد وسـائل تحليـل معقولة، يعني بالخصوص تحليلا حددت مشاكله وقضاياه منهجيـا. ومـن الأمثلـة النموذجيـة لهذا مشكلة التبرجز، أي اغتناء الطبقة العاملة التي كانت تقليعة في الستينات وفي (مهنـة عـالم الاجتماع: 160) عرض تهديم لهذه الإشكالية، قدمها جـون جولـدثروب ودافيـد لوكـوود. واليوم مقابل هذه التقليعة ظهرت مشاكل الأنانية والإقصاء...وليس صدفة إذا كانت'الهيمنـة الذكرية' لم تتناول إلا متأخرا، عندما ظهر بعد أن اجتمعـت عديـد مـن الـشروط لتتـشكل في موضوع مسايرة لطبيعة حالة الفضاء الإشكالي. عالم الاجتماع يعرف بأنـه لا يمتلـك أجوبـة على كل شيء لأنه أولا لا يمتلك أسئلة مقبولة له نفسه حول كل الأشياء. يمكـن أن نتأسـف أحيانا وأن نشعر بعزلة في هذا الصمت.

هناك صمت مؤقت وظرفي (وقد أعطيت مثلا) وقد يقطع الصمت بفضل الأبحـاث الجديدة، التي قد ينتجها احتمالا باحثون جدد. ولكـن هنـاك أيـضا صـمت متعمـد ومبيـت وملتزم. مثلا لا يمكننا إلا أن نتعجب من الغياب الشبه تام وربمـا الغيـاب المطلـق في أعمـال بورديو لمقترحات جوهريـة تتعلـق بالطبيعـة الغائيـة للحقيقـة الاجتماعيـة، الميـول المتلازمـة للمجتمعات، وجوهر الحداثة أو ما بعد الحداثة، وحتى الأشكال الحاذقة الغائيـة فمـا عـسى بالبقية؟، تلك التي نجدها في عمل كتاب آخرين مثل ماكس فيبير ('العقلنة' و'الغرب')' أو عنـد نوربير إلياس ('صيرورة عمل الحضارة') هي قضايا غريبة عن بورديو: علم الاجتماع في حـد ذاته ليس عنده ما يقوله لنا مما قد يعتبر معزى القصة. لا شـيء أيـضا عـن تحـولات المجتمـع الحاسمة والجديدة تولد تحولات ذهنية جذرية ولا عـن ظهـور طبقـات جديـدة مهيـأة لطبـع التاريخ بطابعها. يتكلم بورديو عن 'شبهة قويـة بخـصوص القـوانين الكـبرى للنزعـات الـتي انتشرت في الماركسية ومنافساتها (البنيوية الوظيفية والتطورية والتاريخانيـة...)' (أجوبـة: 69) أو رفضه 'الانكفاء على إنتاج خطابات عامة حول العالم الاجتماعي عموما وأقل من ذلك ما

فوق خطابات جامعية حول معرفة هذا العالم" (ن م:134). الانعكاسية الاجتماعية ربما هي كلمة كبيرة لما يجب أن يكون بالأحرى عادة مهنية، تشجع أولا على الاحتراس من التسرع للذهاب إلى أين يهرع الكل لتقديم مساهمته، وهي تقدير في مرحلة ثانية لما يجب أن نتناول كموضوع وليس كتعليمات عمل قواعد اللعبة التي يتعاطى لها منتجو النظريات، خاصة عندما يكون ارتفاع الأرباح السياسية بمعقولية نذير سوء على المنافع العلمية المحتملة. وإذا كان مفارقة بورديو قد قرن مع صورة رعب نظري، وهو المقل فيما يخص الإنتاج النظري، وذلك بلا شك راجع أقل لما يقول منه إلى كل ما هو بحكم حضوره في الحقل الفكري نفسه يجعل صعبا أو أصعب قوله. ومنذ مدة طويلة يحذر ضد الأشكال "العلمية" للنبوات التي تخفي تحت نيات حسنة فكرية تركيزا وادعاءات معرفة لرأسمال حاضر في الحقل الفكري على شكل مشتت.

علم الاجتماع كما يتصوره بورديو هو التطبيق ويندرج في تقليد نظري نابع من "الأنوار" التي أخذت كمهمة إخضاع المنتجات "العلمية" لنقد العقل النظري وليس كما يقال غالبا أخطاء العقل الإنساني عموما. هذا النقد ليس فقط إزالة غموض لأنه يعطي لنفسه كمهمة توضيح إمكانية وجود معارف وهمية والتوهم في هذه المعارف. وريث تاريخ كتبه كتاب جد متنوعون مثل كانط وفيتجينشتاين، علم الاجتماع يرفض كل أشكال الطرح المذهبي وخصوصا للإشارة إلى المتطرف منها، الشكل الوضعي الذي يسلط الضوء على الخضوع للمعطيات التي يدعى أنها آنية للتجربة والشكل المنظر الذي يبني بناءات فهم هي في الحقيقة متطرفة. فهو إذا شئنا، أولا منهج معالجة المشاكل، يتمثل مسبقا وتوازيا لكل موقف مرتبط بطرح، في التذكير بالفرضيات المسبقة المرتبطة به: كلمات، وأنظمة تصنيف واستعمال وسيلة إحصائية كانت... إلا أنه في الاختبار يظهر أن بعض القضايا، المعادلة اجتماعية لمسألة خلود الروح أو اللغة الشخصية يجب التوقف عن مناقشتها وأن قضايا أخرى مؤولة أو ربما جديدة يمكن أن تطرح تحت شروط معينة.

الأسطورية "العلمية" يسهل انتقادها لما تكون مصاغة، وهي أكثر فعالية لكونها غير صريحة ومن باب أولى غير منظرة؛ لذلك يجب عموما وقت أطول لتفكيكها أطول مما تطلب إنتاجها. الأسطورة الجوهرية تأخذ كلمة، سمة أو صوتما، كأنها الحقيقة العميقة للكل (المجتمع المرقمن، مجتمع الاستهلاك). أسطورة الأسباب والعلل الغائية تصبغ فعالية لقوة التي هي مع كونها مختفية خلف الظواهر، تبدو مقبولة من خلال سلسلة أعراض (مثلا: قانون توكفيل للتساوي). أسطورة الدلالات العميقة التي يتبناها الفلاسفة المتعجلون ذوو النظرة الخاطفة الشاملة وأصحاب المقالات المتأثرة بصدى الزمن، يضعفون الخطابات والممارسات بسلسلة أفكار تخيلوا أنها تمدهم بتناسق عال، ولو إذا خرجت عن وعي العاملين (مثلا الهوية المجزأة للفرد المدعو ما بعد حداثي الذي دوريا يأكل ماكدونالدز ويسمع موسيقى الراب وباخ ويذهب لنادي الرياضة ويتعاطى للتأمل البوذي ...). أسطورة الاعتقاد الغبي، هذا الإغراء لشبه الذكي يتمثل في منح العاملين معتقدات ساذجة على مقياس الإنسانية العادية التي افترض أنها ضعيفة أمام الغش (مثلا: الحب المادي للسيارة، والانبهار المتلصص أمام التلفاز...): الأشبه بالذكي لسعادته في محو الغموض والشجب، يجهل أن الذين يظن أنه يخدعهم أو يكشفهم يعرفون ويرفضون في نفس الوقت الحقيقة التي يدعي كشفها لهم (تأملات باسكالية: 226). ويمكننا ذكر كثير من الأساطير. وإذا كان الباحث يخضع لها فلأن وضعه يدفعه إلى تحديد القضايا، والدلالات والمعتقدات... والي هو قادر وهذا غير محتمل على إصباغها على العاملين وذلك بسهولة لكونهم عزل وبعيدون.

لعلم الاجتماع جزئيا وظيفة علاجية تسمح بكشف للتحرر من الصبغة الوهمية لسلسلة من القضايا التي لا تترتب عن الضرورات الداخلية للمعرفة الموضوعية ولكنها تستمد انتماءها من عمق ما أسست عليه على آليات اجتماعية تعمل آنيا في حقيقة الأشياء وحقيقة العقول. نعرف بأن بورديو حاول تسليط الضوء على مجموعة أوهام اجتماعية – القانونية، الاقتصادوية، الجمالية (الفن من أجل الفن)...– تأثر عمل حقل معين والذي

استقلاليته تأسر العاملين في الاعتقاد في قيمة وقوة قواعدها وقوانينها الداخلية. علم اجتماع الممارسات المعنية ليس ممكنا إلا شرط تشييئ لا معقول الحقل، كل ما يقصي على نمط أكثر أقل مؤسساتيا، كل ما يعتبره غير قابل للتصور، تافه، بتلخيص شرط التفكير في الحقل ضد الحقل أو رغما عنه. يجب زيادة بالإضافة إلى أوهامها الخاصة فإن مختلف الحقول تشترك في وهم غائي، هذه النظرية"العلمية" الفكروية أو الشكلانية للممارسة، الوهم المدارسي الذي في كل منها يظن أن العاملين يفكرون في ممارستهم وبل في كل ممارسة، حسب منوال تنفيذ القواعد التي هي المبادئ الشرعية للعمل المعروف في حقل.

مثلا يمكن أن يأخذ من مجال الفلسفة مثال حالة هايدجير (تصرف الفيلسوف خلال النازية). طالما تتناول مؤرخو الفلسفة المفاهيم يبدو أنهم يتوصلون إلى الانضباط للقواعد الرسمية لهذا التخصص، المنتجة والمنشورة من خلال تقليد أكاديمي قديم: هايدجير ليس حينئذ إلا شريكا لأفلاطون لهيجل أو لنتشيه. مسألة علاقة فيلسوف مع عقيدة دنيوية لا يمكن إلا أن تولد ارتباكا: كيف يمكن جمع عند مفكر فكرا خالصا وسياسيا، إذ أنه مبدئيا هما غير متجانسين؟ إلا نه توجد وقائع مزعجة، نصوص غريبة والتاريخ الداخلي غير مهيأ لتناولها... ويترك التأويل النبيل مكانه لتقص الأسلحة النظرية والتجريبية لسلسلة أحكام عامة حول قضية البراهين حول التزام المناضل الفيلسوف هايدجير، حول حالته الفكرية المفترضة، التزاماته المؤقتة.... المسألة المضمنة هي مسؤولية هايدجير بغية إما تبرئته أو الحكم عليه، حيز الاختيارات الممكنة حول الحالة يجب أن يساير الأخلاقيات الفكرية لفئة تشترط الفضيلة، وعلى الأقل وضوح الذهن، دون النظر في كل ما يخفيه نمط التساؤل. إلا أن مسألة بطاقة عضوية الحزب (مسألة نموذجية للمؤرخين المضادين للكليانية) ظهر أنها قليلة الأهمية من المتقابلات البنيوية بين حيز المواقف الفلسفية والمواقف السياسية. القرب بين الحيزين يمكن أن يحدث وأن يكون له تأثير لأنه كما يبرهن بورديو بخصوص هايدجير معرفة هذه القرابة، قرابة "الأنطولوجية الأساسية" و"الثورة المحافظة" يترافق مع جهل جماعي مغذى: الكلام

عن الكائن والهم والحل هو شكل من السياسية ولكن في مسرح آخر حيث يصبح غير مرئي، وحيث رسميا الأعداء ليسوا "الحمر" ولكن الكانطيون الجدد محترمون مثل كاسيرير، والمثاليون على الطريقة الديكارتية (تجسيد العقل الفرنسي في التحليل). القراءة الاجتماعية تتمثل في هذه الحالة في توضيح وفهم اللغة المزدوجة التي كان الكاتب أول من أسر فيها مع كل صلابة اعتقاده في التفكير الخالص: "العبارة هي هنا لطمس التجارب البدائية للعالم الاجتماعي والخيالات الاجتماعية التي هي في أساسه بقدر ما هي لكشفه؛ لتسمح بالتعبير عن نفسها، بقولها طريقة القول والتي لا تقولها (الأنطولوجية السياسية لهايدجير: 90). حسب الظرفية هايدجير كان ميالا إما (استثناء) لترك العنان لنبضاته الاجتماعية لتعبر عن نفسها وإما لكبتها لصالح كلمة خالصة، الارستقراطية تتخذ تناوبا شكلا عاديا أو شكلا نبيلا؛ لا أعمى ولا متكالب قد يمكنه أن يلعب على طريقته، وأكثر أو اقل بدقة ولكن في ألعاب لم يبتكرها بحرية تماما. نرى أن علم الاجتماع يسمح بطرح أسئلة جديدة (حول موقف الكاتب، حول وظائف إنتاج "علمي" حول شروط فكر مستقل...) الممنوعة باللغة الأكاديمية للمقاصد وللمسؤولية وللالتزام: أن تجعل من وعي ضمير المتفرد لهايدجير مبدأ كافيا للفهم والتفسير، هذا يؤدي إلى التنازل عن وضوح الرؤية التي يمكن أن تتملك فقط بالتحليل المسبق لأنظمة القوى (الجامعية والعقائدية...) والتأثيرات الرمزية التي تنتج. في اللغة الأهلية ستتكلم عن زلة كبيرة لم تجد التفسير المنتظر: كيف فعل ذلك (إنكار الزلة) لأنه يتعلق الأمر بالاعتراف والإقرار بأن المفكر لم يفكر بتاتا في الأساسي وأنه كما نقول بالذات في الاعتذار عن زلة كبيرة لأنها أقوى منه وأكبر منه، لا معقوله كأستاذ عادي... أدى به رغم أنفه، وهو، فيلسوف حرية القرار"[1]. وصف الانطولوجية السياسية لهايدجير هو في نفس الوقت زيادة في التوضيح ضد منطق الحقل وفي هذه الحالة الحقل الفلسفي، وفهم لماذا هذا الحقل لا يمكنه من واقع تاريخه الخاص (وتاريخ علاقته مع علوم الإنسان)، امتلاك أسئلة

---

(1) جاء ذلك في حديث لبورديو لمجلة Libération 10 مارس 1988.

أخرى لطرحها -وبهذه العبارات (خطأ عمى، سذاجة...)- غير الأسئلة التي تبدو له قانونية، مرخصة، مشروعة لأنها طبيعية. كم من"صغار حملة رأسمال" مهددون مثل هايدجير في توظيفاتهم واستثماراتهم هم ميالون لتقاسم هذا النوع من البكم أو العمى تحت تأثير ادعاءاتهم الأرستقراطية...

المعرفة الاجتماعية لا تكتفي بتجاوز الحواجز بل تجتهد لتحويل هذه الحواجز إلى مواضيع تفكير، إلى قضايا مثل ما يظهره المثال السابق جيدا، الحواجز هي في العقول بقدر ما هي في الأشياء، وبفضل علاقة تقوية متبادلة. القوة الاجتماعية للحواجز أمام العلم ترتكز على تخيلات اجتماعية، خيالات اجتماعيا ذات أساس (حتى خيالات العلمية لعلماء الاجتماع التنبؤيين هي كذلك إلى حد ما)، مواضيع مفضلة التي تمتلك فرض وسائل التفكير في المواضيع. يصعب على عالم الاجتماع التنكر لمبادئ معرفية بنائية. وشرط أن يكون متسقا: فإن بناء العالم الاجتماعي ليس حصرا مسارا إدراكيا يخضع للذاتية. وإذا رغبنا في وصف الطريقة التي يبني بها العاملون الموضوعية، يجب أيضا أن نفهم بأنهم ليسوا أبدا أحرار للقيام بذلك على طريقة أنا متعالية، بناؤهم هو محدد بشكل كبير بطبيعة الخيالات، والطبقة، والدولة، والعائلة الحاضرة على منوال متعال. ولو أن هذا التعالي قد يمكن أن يعتبر بمعنى كنتاج تاريخ، يجب على العلم أيضا تناول الآثار الخاصة به. ويتعلق الأمر بفهم كيف أن الطبقة تميل للظهور كحقيقة ناتجة عن الطبيعة الموضوعية "لعلاقات الإنتاج"، كيف أن الدولة تميل لتقديم نفسها كشيء، جهاز أو مؤسسة عليا، كيف أن العائلة تميل للظهور كوحدة طبيعية أو شبه طبيعية.

في كل هذه الحالات نحن منقادون إلى تحليل الأشكال والوسائل الخاصة للتشييع والتي فعاليتها مترتبة عن جهل بعملها[1]. انتداب السلطة هو هذا السحرالذي يخلق مجموعات تمتلك سلطة للتفكير والإحساس والعمل باسمها: تمركز وتملك الرأسمال الخاص، السياسي والدولي والعائلي يولد الموكل المنتدب، الناطق الرسمي للطبقة، موظف أو رب عائلة وفي نفس الوقت الحقائق التي لا يمكن أن توجد إلا في علاقة التعرف - الجهل.(مجلة بورديو: 1984/ 52-53). جوهر الأشياء الاجتماعية المتعالية هو الظهور بمظهر طبيعي عادي بمعنى أن الفاعلين يميلون إلى تصور نظرتها وممارستها كأثر طبيعي لهذه الأشياء. وبكا كانت العائلة المحل الذي يكون فيه هذا المنطق أكثر خفاء لأنها يمكن أن تعتمد ليس فحسب على الآليات المؤسساتية كالقانونية التي تعمل في الواقع بل وأيضا على تواطؤ العاملين الذين لا يخضعون لواجباتهم نحو الجموعة بحكم ما يجب أن يكونوا عليه إلا مدفوعين بالروح العائلية، إذا أنهم يمتلكون عفويا أحاسيس طبيعية بواجبهم، الأحاسيس التي ترتب عن الواجبات نحو المجموعة[2].

تفكيك الحواجز أمام المعرفة ليس عملية نقد ذهنية: إذ يتعلق الأمر بفعل معرفة يتمثل بتتبع مولد أقسام التفكير وبالتالي الشروط الاجتماعية لإمكانية هذه الأقسام التي تسمح لهم بالوجود في الموضوعية، وخلق رهانات، ومعتقدات وصراعات. التحالف

---

(1) تفاديا لأي سوء فهم، نؤكد على واقع أن تفكيك بناء الخيالات ليس من الكماليات النظرية أو مسبقا مفهوميا دون نتائج، تسمح بمتابعة ما كنا نفعل سابقا "علم اجتماع سياسية" (حزب، دولة...) أو "علم اجتماع العائلة". التفكيك، بتسليطه الضوء على الفرضيات المسبقة الاجتماعية ونظرية تقليد نظري أو تخصص يدل على مجموعة أبحاث قادمة، ويوحي بفرضيات عمل: قد نكون مشجعين على فهم بالملموس علم اجتماع الانتداب لتوكيل السلطة بدراسة جوانب مثل تشكل وعمل المجموعات المحددة للممثلين أو الناطقة الرسمية بل وأيضا تحول كيفيات السلطة في علاقتها مع نظام وسائل إعادة الإنتاج الاجتماعية (مدرسة، وصول إلى مراكز مسيطرة في المقاولة...).

(2) حول العائلة كفئة منجزة عد إلى مجلة بورديو 1993/100: 32-36؛ وعائلات بلا اسم، مجلة بورديو 1996/ 112:3-5؛ و تطبيق عملي: 135-145.

الضروري للجوانب البنيوية والوراثية يفسر كونه يمكننا الحديث عن هذه المنهج كبنيوية عامة (أشياء قيلت: 24). أو عبارات أخرى بنائية[1](ن م: 147).

واقعية انعكاسية

هذا النوع من النهج الذي يبدو أنه يترك المسائل على حالتها قد يحبط همة الذين يرون في أن المعرفة الاجتماعية يجب أن تقدم تفسيرات، وتكشف الأسباب العميقة، وترتفع إلى مستوى معرفة عالية تتجاوز الإنسان العادي. إذا كنا نعرف بأن المعرفة "العلمية" تولد أساطيرها ذاتها، ومنها الوهم الأفلاطوني (والبنيوية إحدى أنواعها) وتجعل من العالم المدرك نوعا من عالم ثان، نتخيل أن بعض التوقعات "العلمية" يمكن أن يخيب أمالها بورديو الذي لا يقول لنا بأن ما وراء المظاهر هو حقا الطبقات والدولة والعائلة: يرينا فقط وبطريقة ما الوهم الجماعي الذي يسمح لخيال بالوجود في ذهن العاملين بدفعهم للتفكير والعمل كما لو أن ما يفكرون فيه أو يفعلونه هو تابع لنظام أشياء لم يساهموا بتاتا في إنتاجه.

ولا نرى جيدا كيف يمكن للذين يكونون الجموعة أو هم الجموعة الاحتفاظ بنظرة بنائية إلى الجموعة. على العكس علم الاجتماع فيما يخصه لا يمكنه التهرب والاغتناء عن نظرية الاعتقاد: هي خيالات العالم الاجتماعي وما مقامها نسبة للعقيدة. و مع ذلك حسب بورديو بشرط فهم أن العقيدة ليست مظهرا خالصا. هي أثر اجتماعيا فعال لتلاق بين الاستعدادات المبطنة عميقا والفضاء الممكن المتناغم معها. بعبارة أخرى أكثر من أن يكون فعل وعي سيادي، حتم على العقيدة أن تكون وأن تكون كما هي بالممكنات الحاضرة. لا ذاتية ولا موضوعية، هي أحد المحلات الأساسية حيث يتقرر الجهد للخروج من بديل

---

[1] استعمل بورديو في محاضراته في سان دييجو عام 1986 عبارات: Constructivist structuralism/structuralist constructivism. نلاحظ أن بورديو في هذا النص يحذر من أنه يأخذ مصطلح البنيوية بمعنى جد مختلف عن التقليد السوسيري أو الستراوشي، المصطلح يدل عنده على واقع وجود بنيات موضوعية مستقلة للمعرفة وللإرادة العاملين.

الموضوعية والذاتية أو من القضايا والعلل: هي العقل بمقدار أنه من الاجتماعي، متجانس مع البنيات التي تحدده ويساهم في إعادة إنتاجها. ولا أكثر من استعدادات العامل، لا يمكن أن تختزل العقيدة إلى مجموعة حوادث داخلية وخصوصية: يمكن معرفتها علانية على الأقل من خلال الممارسات والخطابات العلنية وفي العموم من خلال كل ما يمكن أن يشكل مادة لعالِم الاجتماع. مسألة معرفة كيف أعرف أن العاملين لهم ذلك الاعتقاد يحيل إلى سلسلة ملاحظات تتعلق بالأفعال والتصريحات التي تعلل افتراضاتي.

ككل حل من هذا النوع الذي يقترحه بورديو قد يفهم غلطا، ولا يؤخذ إلا جانب منه إلا أحد قطبي البديل: نود اختيار جانب علم وجود محدد بمنحنا أفضلية نهائية حسب الحالات للبنيات أو للموضوعية، للقضايا أو الأسباب، للفيزياء الاجتماعية أو للفهم الظاهراتي. إلا أن كل عمل ميداني تجريبي منجز يظهر: أن المعرفة الاجتماعية ليست تراكما لكيفيتي وصف، إحداهما موضوعية (توزيع ممارسة في الفضاء الاجتماعي) والأخرى ذاتية (تمثيلات العاملين). إن تسليط الضوء على لانتظامية وعلى العوامل التي يتطلبها تفسيرهم يبقى ناقصا طالما لم يكمل بتخليل لطريقة عمل هذه العوامل. وإذا كان صحيحا بأنه يمكننا ربط حيازة الشواهد مع تواتر بعض الممارسات الثقافية، فليس بالطبع ذلك عائد لتلاؤم منهجي، وبشكل مؤقت يمكننا القول بأن الشواهد تحدد الممارسات. الشواهد لا تؤثر أكثر من المهنة، أوالموارد المالية أو الإرث. ما يتناوله عالم الاجتماع من الخارج كعامل معزول قابل للقياس، كرأسمال، موجود بالنسبة للعاملين كسلطة اجتماعيا مشروطة على الممكنات المشروطة اجتماعيا: ويجب أن يضمن في المعرفة العلمية معرفة العاملين هذه والفرق في وجهات النظر. وإذا كانت العوامل، كما يقول بورديو، سلطات (وليس قوى طبيعية، يمكننا لحد ما وصفها بطريقة فيزياء اجتماعية)، فإلى حد ما إن هذه العوامل لا تأثير لها إلا بالعلاقة الدائرية لإعادة الإنتاج بين الممكنات التي تميل لتوليدها والممكنات التي ولدتها، بين الآمال الذاتية والاحتمالات الموضوعية. دائرية إرادة وقدرة التي ولأنها تعتمد على الاعتقاد فهي

ليست من الآلية في شيء: توجد قطيعة أحيانا عرضية أو مترتبة مستحثة تاريخيا، فردية أو جماعية تكسر الحلقة.

في تحليل جميل لأخلاقيات البورجوازي الصغير، والتي هي في نفس الوقت تفكير في الفارق التي يبدو مفارقا بين الرأسمال الممتلك والادعاءات الزائدة عن الاحتمالات المرتبطة بهذا الرأسمال، يبرهن بورديو بأي معنى من الممكن فهم هذا الفارق. وأزيد: الفارق أكثر ما يكون خللا في حساب عامل فاشل في حساباته، ناتج تأثيرات موضوعية على شكل إستراتيجيات حركة تصاعدية. كان على البورجوازي الصغير أن يتصاغر ليصبح بورجوازيا، يعني بالذات ولأنه أبدا لم يصبح كذلك تماما، هو الذي رأسماله ولو غير كاف لتملك كل يقين ضمانات المواقع البورجوازية، كان كافيا بقدر يشجع على استباق مستقبل، يعني على رأسمال لا نمتلكه بعد ولكن قد نأمل تملكه بالجهد، دون رهان على المستقبل الذي يفترض اعتقادا. للوصول إلى النجاح يجب الاعتقاد، الاعتقاد ربما، فيما أكبر من المعقول المأمول فيه. ونظرا لوضعه المتوسط في الفضاء الاجتماعي، فإن البورجوازي الصغير هو الذي له ميزة كشف إمكانية هذا الفضاء، إمكانية قفزة نوعا ما فوق وضعه، معجزة أصبحت ممكنة بفضل اعتقاد: في حين أن الموقع الأخرى تبدوا في امتحان أول أنها يمكن أن تحدد بالرأسمال الممتلك في الحين في علاقة مع فضاء الممكنات المشكل سلفا بالتجارب السابقة، وهو في هذه الحالة منحنى المواقع المتتالية، المنحدر الذي يتطلب أن يأخذ في الحسبان كونه يكشف ويحفز القوة العنيدة للميول. والقفزة ليست في الواقع إلا تسريع سببه العاملون المستعجلون وصولهم إلى الممكنات التي يرونها في متناولهم، ولكن بثمن عمل على الذات.

المعرفة العلمية تنفصل عن البديل بين الذاتية والموضوعية (ومقابلات أخرى) لأنها تساهم في إعادة تعريف المصطلحات بالبرهنة على أنها مرتبطة إذا لم يكن مفهوميا[1] فعلى الأقل في ممارسة البحث: العوامل المسببة هي في الأساس استباق وتوقعات تجعلها فعالة على ذلك النحو؛ وفيا يخص العلل هي أقل غموضا في حد ذاتها لما تفهم بطريقة أخرى في معناها المزدوج من الاختيار واللزوم. والقنوع بالمصير هو حب ما أنت عليه محتم عليك أن تكونه، حتمية حب تقبل هذه الحتميات. ولكن الخصائص، وأنواع الرأسمال التي أمتلكها وتدفعني لأصير المستقبل المحتمل تندرج نفسها في حركة إعادة تحديد أكثر أو أقل ظهورا حسب الظرفيات: فإذا كانت قد أسست الاعتقاد، فهي أيضا موضوع اعتقاد وهي بهذا المعنى خاضعة لصراعات التصنيف التي تساهم في فرض قيمة الأشياء. لم يتوقف بورديو عن إبراز في العالم الاجتماعي أن القوى الفاعلة لا يمكن أن تتحدد إلا بطريقة متلازمة (بطريقة غير موضوعاتية)، لأن الفضاء حيث تعمل هو أيضا فضاء تُقيم فيه وتحدد وترتيب هرميا. وحيث أن معايير الوصف هي أيضا خاضعة لعمل العاملين -الشواهد تتواجه مع الأقدمية، والمهارة العلمية مع السمعة الأكاديمية...- فلا يكمن للوصف العلمي أن يأمل أن يطرح كرؤية خارجية مبنية على معايير نهائية. (الإنسان الأكاديمي: 16، والملحق1: 253؛ التمييز 101). مبدأ هو دائما موضوع رهان: وهو كذلك لأنواع الرساميل، والاستعدادت الاجتماعية والمجموعات التي نسميها ونحصرها. وبالضبط: مبدأ هو عامل موضع رهان لأنه سلطة.

وبالنظر توازيا من الجانبين، مع تبني نظرتين، عالِم الاجتماع ميال للبحث عن الزاوية الأكثر اقتصادية، زاوية من حيث يرى حالا وجمعا ما يعرض عموما بطريقة منفصلة، البنية والعامل، نظام المواقع والنظرة الاستشراقية، الحقيقة الموضوعية والتجربة. نحن

---

(1) بورديو الذي يرفض منفعة تعارض القضية وعلتها خلق ممانعة عند عدد من الكتاب اللذين قد يكون لهم حجج متينة لتسليط الضوء على الاختلافات العميقة بين التلاعبات اللغوية. حول ضرورة الاحتفاظ بهذه الفرق عد مثلا إلى جون بوفيرس،

Bouveresse, Philosophie , *Mythologie et pseudo-science. Wittgenstein lecteur de Freud*, Combas, édidtions de l'Etclat, 1991M 82.

مدعوون للانتقال من نظرة إلى أخرى عندما مثلا يقال لنا بخصوص الحقل الأدبي بأنه عالم خاضع بطريقة شبه آلية لقانون الفعل ورد الفعل، وإذا أردنا أن نترك حيزا للمقاصد والاستعدادات، للادعاء والتمييز (قواعد: 181). بدائل المعرفة ليست متجاوزة جدليا لصالح تركيب من مستوى أعلى: وهكذا بالنسبة للتعارض الموضوعي/ الذاتي كما لتعارض المعنى والعنف. العنف الرمزي ليس طريقة لمصالحة وقرن المصطلحات التي كانت لحد ذلك متصارعة ومتناقضة. هو مفهوم يقترحه علينا العالَم الاجتماعي على مستوى مزدوج وبشكل ما بترجمة آنية: العنف الرمزي هو علاقة القوة هذه التي تحصل حيث يفترض أن القوة لا معقولة لا ترى وحيث بمعنى ما تغيب في كلمات وفي حركات في طقوس.

إلا أنه توجد حالات معرفة مفضلة تقترح غموضا موضوعيا يظهر خصبا لأنه يدل في الواقع على تقاطع أو تغطية المصطلحات المتصورة كمتعارضة. لما ينجر الأساتذة ترتيبا اجتماعيا مع احترام فقط منطق الترتيب المدرسي، لما يملأ نظام التعليم وظائف اجتماعية خارجية فقط من كونه أنه يبدو لا يخضع أولا في عين عاملي المؤسسة إلا لغاياته الذاتية المتلازمة، لما يتعاطى الفيلسوف هايدجير للسياسة من واقع كونه فقط أنه يعمل ويظن أنه يفلسف وجودا، لما يساهم مشتر عقار في أن يفرض عليه ما هو اقتصاديا موجه له من واقع فقط أنه يعطي للبائع معلومات حول إمكانياته المالية، لما يستفيد المنتدب مع خدمة المجموعة أو المؤسسة، لما يخضع شاب من وسط شعبي للنظام من خلال تبجحه وجرأته وعصيانه المتحدي.... أليس إذا في تلك اللحظات التي تكرس الغموض وازدواجية اللغة يبدو بشكل ملموس أنه قد تم تجاوز البدائل؟ لحظات حقيقة لبناء موضوع: لنا إحساس بأن الحقيقة الموضوعية لممارسة أو مؤسسة يمكن أن تقارب وتفهم ليس خارج المعتقدات ولكن في قلبها داعية العاملين لرؤيتها ورؤية أنفسهم. بخصوص العطاء والعمل المأجور يتكلم بورديو عن حقيقة مزدوجة (تأملات: 229؛241)، عبارة غريبة تنكر في الظاهر حقيقة تتحدى قانون منع الاختيار الثالث: الموهبة هي في نفس الوقت تغطي بحث عن منفعة وعكس ذلك، العمل هو في نفس الوقت استغلال وتأكيد للذات... وكما يعرف ذلك جيدا بطريقتهم العاملون

الواقعيون ليعايشوا هذه الازدواجية. بين هاتين الحقيقتين، لا اختيار للملاحظ: يجب أن تجد الحقيقة الموضوعية في الحقيقة الذاتية وسيلة التحقق، أو إذا فضلنا يجب إيجاد تقاطع بينها، مهما كان صغرالتقاطع للخروج من أسطورة العالمين، عالم 'العلمي' والعالم الأهلي اللذان سيتعايشان وسيعملان توازيا. الحقيقة الموضوعية هي بالطبع يجهلها الفاعل ولكن هذا الجهل هو أيضا اعتراف: ما يجهل، أبعد من أن يكون ملغى هو حاضر ولكنه مخفي لقوة ظهوره وضوحه، على شكل الرسالة المسروقة لإدجار ألن بو، حاضر لتوضيح يمكن أن تحفزه حالة أزمة (أحكم بأنه لن يعاد لي عطائي، وأن تفاني في العمل لا يكافأ... ولو أنني لا أشتغل فقط من أجل هذا...).

يمكن أن نتساءل إلى أي حد مثل تلك المخططات الفكرية ليست شكلا إدراكيا تتخذه تجربة خاصة في العالم الاجتماعي موسومة نفسها بازدواجية النظرات، بأنا المزدوجة. التمثيل الرسمي للعالم المرتبط بالمدرسة وبالعلم وبالسلطة هو عرضة ليكون دوما متواجها مع وجهة نظر تقاومه، وجهة نظر الممارسة التي تبدي شكوكا وعدم ثقة. هذا التوتر الذي يجهله ذوو بنية تصور للعالم الاجتماعي هم بداية على مقاس مطلوب التجربة المثقفة و'العلمية'، وقد ربما تُتَبنى على طريقتين جد مختلفتين. إما ازدواجية مقبولة معترف بها ويتحكم فيها بحركة جيئة وذهاب بين الأضداد بغية إدماج في المعرفة الحقيقة العملية التي تشكل ضدها؛ وإما نعطي بفعل إنكار سحري خصائص معرفة أصيلة للتجربة العادية التي تصبح هكذا خارجة عن تأثيرات السيطرة.

السبيلان ليسا تجريدا معرفيا: يهمان مباشرة قضية الشروط العلمية للتشيؤ في الحالة الحرجة للعاملين الأبعد عن متناول 'النظرة العلمية'، 'الشعب' و'الطبقات الشعبة'. أول السبل يدرس الممارسات، العمل أو الترفيه، في ازدواجيتها الموضوعية: نفس العامل معرض لفعل القوى (الاقتصادية، الرمزية...) التي لا يمتلك عليها أي سلطة ولا يعرض نفسه كضحية لها إلا استثناء استراتيجيا (حادثة عمل، إجراء إداري...) ولكنه يطالب كعامل بالتصريح مثلا بحبه الترقيع، العمل المتقن... المعرفة العلمية التي تمتلك بالخصوص وبفضل الإحصائيات

وسائل تحليل شروط الممكن وظروف الممارسات، لا يمكن أن تجهل تصريحات العاملين فيما يخص حياتهم المعاشة. وإذا كان الوجهان، الموضوعي والذاتي هما جزءا من الواقع، يمكننا إذا مراكمتهما وضعهما جنبا إلى جنب. يجب فهم كيف أن حيز تقاطعهما وتلاقيهما ليس فارغا، وكيف تحديدهما مع العمل، تاركين حيزا للاختيار، اختيار مشروط. ولكن بتسجيل عفوية الممارسات المختارة بحرية لا نحكم مسبقا بتاتا على كيفية إنجاز هذه الممارسات. التأكيد ذاتيا كفاعل مع رفض كل تنازل لنظام الضرورة هو شيء. والتأكيد ذاتيا كفنان مبدع لعمله خارج كل مستعجل هو شيء آخر. لب المشكلة هو معرفة ما إذا كنا بمكافأتنا الشعب بوضع شبه جمالي لا نتجاوز حدود العقل العملي للعاملين.

السبيل الثاني، الشعبوية "العلمية" ويتمثل في التقليل من تأثيرات السيطرة ومنح الشعب شكلا من استقلالية يراد منها تفادي النظرة "العلمية". لا يكلف الشعبوية شيئا توزيع أجزاء من الجنة الأرضية. ظاهرا سخية، الشعبوية سخية على حساب الأوصاف الأخرى للشعب ويشك في أنها ترفض للشعب الحقوق التي نعطيها للمجموعات الأخرى الاجتماعية: علم الاجتماع الذي يرفض وجود ثقافة وجمالية شعبية يبدو أنه محكوم عليه بالنخبوية من واقع فقط كونه أنه يحاط علما بالهرميات[1]. ومن بين العديد من التحليلات الميدانية التي خصصها بورديو للطبقات الشعبية اهتم بمشكل الاستعمالات اللغوية لما يطلق علية " الاستعمالات الشعبية" (مجلة بورديو: 1983/ 46، 98-105؛ وأشياء قيلت: 178).. وبغية الخروج من تأثيرات التشييء التي تثقل الخطاب المتعلق بالطبقات الشعبية، برهن على مقدار اختلافات تلك الاستعمالات حسب ظروف التلفظ وحسب الأسواق التي تعرض فيها المنتجات اللغوية. وأكثر ما كانت سوقا شرعية إلا وأحس العاملون بتأثيرات السيطرة

---

[1] من بين الانتقادات التي وجهت لبورديو حول هذه المسألة أكثرها تفهما هي انتقادات الفيلسوف ريشارد شوستيرمان،الفن على المحك، الفن على أرض الواقع. الفكر الذرائعي والجمالية الشعبية، باريس مينوي، 1992. واقترحت نقدا لفرضيات الشعبوية للجماليات الشعبية من وجهة نظر شوستيرمان والتي تمثلها موسيقى الراب في مجلة Politix، 20، 1992، ص: 169-174. مشكلة شروط الاستبيانة في الوسط الشعبي طرحها بطريقة في نفس الوقت نظرية وملموسة جيرار موجير،"الاستطلاع في الوسط الشعبي"، Genèses، 6/ 11/ 1991.

الرمزية وتدفعهم إلى البحث لتفاديها أو التقليل من أثارها خصوصا من خلال الصمت. ومع ذلك فتجربة السيطرة تختلف حسب الجنس. الرجال هم أكثر عرضة لحالات حيث يكون شرفهم الرجالي موضع مساءلة وتأكيد ولأنهم أمام الأجانب ملزمون بالمزايدة في حين أن النسوة يمكنهن بسهولة ودون تنازل أن يظهرن تصرف حسن نية لغوية ملائمة لخضوعهن الذي يشكل جزءا من تحديدهن الاجتماعي. وإذا فقط في المحلات المكشوفة/ الحرة، المحلات التي تخرج أكثر عن سيطرة نظرة المسيطرين كالمقاهي والجمعيات والشارع يمكن للرجال من الطبقات الشعبية التأكيد على هويتهم: يقومون بذلك من خلال مناظرة كلامية، معجم يحمل علامات عمل أسلوب ظاهرة في اللغة العامة، نتاج بحث عن التميز ولكنه مسيطر عليه. يمكن أن نسحر به. ولكن عوض تعزية هذا النتاج إلى روح شعبية يجب التذكير بظروف إنتاجه: لغة عامة في الأسواق محصورة يتكلم بها بعض الناطقين، الرجال اللذين يؤكدون على ذكوريتهم من خلال تمارين فضيلة تستهدف بنفس المقدار البورجوازي ونساء طبقتهم. باللغة الشعبية وبأشكال من التأكيد المتطرفة على الذكورية الخاصة بأرستقراطية المنبوذين، هؤلاء الناطقون يعلنون ما يريدونه أن يكونوا عليه دون خوف من عقوبات الأسواق الأخرى وأيضا دون استهداف شكل من أشكال الشرعية اللسانية والثقافية.

وهكذا ولأن الازدواجية هي غالبا ما هي في الممارسة نفسها، عالِم الاجتماع لا سبب علمي خالص له في الرغبة في الحسم بين الأقطاب المتعارضة، المنفعة وانعدام الاهتمام النفعي، الخضوع والحرية...يلاحظ بأن العالَم الاجتماعي يعمل بشكل يضمن جانب الغموض اللازم لعمله. وإذا رغبنا في الفعالية مثلا بالكشف عن السيطرة أني رى العاملون أن السيطرة من اختيارهم، فلا يمكن ذلك إلا بالسعي لتجاوز حدود وضع مواضيعي معالجين النظام الاجتماعي ككون خارج الوعي واللاوعي. لأنه وبشرط توضيح ازدواجية العاملين في هذا النظام، هذا الأخير يمكنه أن يصبح مفهوما؛ وذلك شرط نقد ذاتي وتساؤل ذاتي يمكن للعاملين التشكيك فيه.

وإذا فهمت البنائية جيدا فليست بتاتا مثالية كما قد يوحي بذلك مجاز كلمة البنائية. على العكس هي واقعية تهتم بالطريقة التي بنى بها العاملون العالم الذي يبنيهم: واقعية مزدوجة[1]. واقعية ليست موضوعاتية: يرفض بورديو كل محاولة لرؤية العالم الاجتماعي من خلال زاوية خارجية ومفضلة. وكل منهجيته تتمثل في تحرير وسائل المعرفة لما يمكن أن تكن به لوجهات نظر العاملين -خصوصا (وليس فقط) لوجهة نظر المسيطرين ووجهة نظر (الفلسفة المدارسية والمدرسية) "للعلماء" -بغية أن تكون أكثر توفرا، أو قابلة للتقبل إذا أردنا، لتعددية وجهات النظر وفي معنى كل المعرفة الموضوعية: يتعلق الأمر بالسماح لعين عالم الاجتماع من رؤية الآخرين انطلاقا من وجهة نظر الآخرين، وهو ما نفعله جيدا حين نمتنع عن تحديد الهوية الساذجة المتعاطفة، ونتوصل إلى تحديد ضرورة رؤية قياسا لفضاء مواقع، مبدأ وضوح لكل النظرات. ولذلك فإن التفسير والفهم ليسا بتاتا حصريان. على الأقل على مستوى معرفي. وأخلاقيات ذات خلفية كرم يمكن أن تلقى مصيرها لما يفهم الآخر في أخريته الاجتماعية، اجتماعيا محددة، عوض تفرده غير المحدد كفرد، وإنسان و/ أو مواطن. لم يتوجب انتظار كتاب بؤس العالم، لأن سوابق المنهج عديدة منذ الأبحاث الأولى.

وهكذا الواقعية الاجتماعية لبيار بورديو هي واقعية إنعكاسية: التفكير حول النظرة "العلمية" لأنها تسمح بتحييد تأثيرات فعل المعرفة هي شرط للوصول إلى ما هو خارج عن العلم و"العليم"، العالم الاجتماعي بقدر ما هو موجود مزدوجا، يقال لنا، في العقول وفي الأشياء. والمفاهيم النظرية سواء العلائقية أو المواقعية الترتيبية يمكن أن تأول في منطق الإنعكاسية. ومن خلال فكرة الحقل، الباحث مدعو للتساؤل ما هي مختلف الاختيارات الإدراكية للرقابة والتشكيل البدائي الخاص بمجال من الحقيقة؛ والتساؤل، من خلال فكرة الإنعواد عما يفكر فيه عفويا في ظرفية إشكالية مشكَّلَة محددة حول الأشياء أكثر واقل قربا أو

---

(1) جون سيرل برهن، من جهة بأن البنائية كواقع تعدد أنظمة فئوية هو مستقل عن مسالة الواقعية ومن جهة ثانية يمكن أن نكون في الوقت بنائيا وواقعيا: التصور الأول يسلط الضوء على الخصوصية المظهرية للمنظور المعرفي في حين أن الثاني لا يقوم إلا بصياغة مبدأ نهائي للوضوح-توجد واقعية خارجة عن الوعي الفردي. جون سيرل، 1998.

بعدا، نبيلة أو عامية...وهكذا فإن الواقعية الإنعكاسية تستعمل علم اجتماع للمثقفين وعلم اجتماع للعلم اللذان ما أبعدهم عن التنكر لأجناسية متقوقعة، على العكس، هم وسيلة أساسية، وسيلة لتشتيت ولمحو تركز علم الاجتماع في مجموعه[1]: لا يمكننا التعبير عن زعم نسبة إلى موضوع إلا لما نتيقن من خصوصيات وحدود وسائل المعرفة، لما نتحرر من الفرضيات المسبقة بتشييئها وتأريخها، تاريخ المؤسسات والتقاليد الثقافية الوطنية....

بفعل التوضيح الذي تحويه تخرق الانعكاسية معايير اللياقة الأكاديمية. و بلا شك فهذا خرق مزعج للكثيرين، الذي يشكل أحد المبادئ والسمات المميزة للأسلوب النظري وبساطة لأسلوب بورديو. كتبه وتعاليمه تحمل علامة هذه الحماسة الاجتماعية لفهم فضاء وجهات النظر للتحكم في التأثيرات على معرفة الموضوع. إرادة المعرفة هذه، شيئا ما غير اللائقة والهادرة والسلبية تدخل في صراع مع قانون من القوانين العامة لكل حقل، الخصوصية المضمنة لعمل الحقل، تطبيق وسائل التشييئ على عالم نحن جزء منه، وتعداد المواقع في هذا العالم المهيكل بهرميات يكشف عن العلاقة بين المواقع والمواقف، كل هذا النقص والتجاوز للدبلوماسية الثقافية تيعاكس ولا مفر من ذلك الفكرة النبيلة التي تكونها كل وجهة نظر مدارسية عن نفسها، محمية بالجلالة الأكاديمية بهيبة الكرامة وسر الصمت المكنون وعبارات التملق. مشاكل المعرفة ليست مشاكل نظرية خالصة (أو منهجية)، هي مشاكل في جزء كبير منها نتيجة مقاومة أمام التحليل الذاتي[2]. مقاومات تنكشف رويدا رويدا وليس تبعا لكوجيتو انعكاسي بدائي. المنظر ورجل الميدان، المعرفي والمنهجي، الشاب الهرطقي والأستاذ الكبير الذي حصل على الشرف والتقدير يفضلون التعاطي مع الميول

---

(1) إذا توجب ترتيب أشياء علم الاجتماع انطلاقا من علم اجتماع بورديو فإنه لن يتمثل لا في عكس المناطق المبنية مسبقا (ثقافة، عمل...) ولا في إعادة إنتاج الهرميات الاجتماعية، ولكن في تحديد الكثافة النسبية للعوائق المقابلة لمختلف الأنواع المراد بناؤها: وسيكون إذا أردنا ترتيبا بالكميات المكثفة.

(2) المراد ليس صبغ عصمة على علم اجتماع بورديو كما يتخيل كل من يريد تفادي بسهولة مسألة مقاومة التحليل باستعمال من جديد بوبر ضد فرويد. الموضوع هو المقاومة التي تولدها الوقفة الاجتماعية بحد ذاتها مسبقا عن كل زعم معين الذي يبقى بالطبع محكما بقواعد برهنة: مقاومة التشييئ يمكن تماما أن تتخذ كموضوع.

المندرجة في مسيرتهم عوض تحمل رعب التفكير في التموقع في كنف ثنائيات تعارض، وأن يكتشفوا أنهم محتمون أو لا في نفس الوقت، أن يرون نهاية الجاذبية التي تربطهم بأشيائهم ومناهجهم، أن يلاحظوا بكل بساطة كم أن ذلك الاختيار الفكري يحمل علامات أصل اجتماعي، لتمدرس... الانعكاسية هي بالعكس من الاستبطان الأدبي أو التمرين الطقوسي للتغرب الذي يحبه الفلاسفة. يفقد الفاعل شيئا ما من ثقته في سلطته: في لب فكره المحرر مبدئيا من الطوارئ الخارجية والظرفيات، تبرز الموضوعية الغير شخصية للبنيات الموضوعية والتصنيفات الاجتماعية[1].

ربما فهم الآن لماذا قال بورديو بأن "الأساسي في عمله يتمثل في الجانبين التاليين: "فلسفة علم يمكن أن نقول عنها علائقية"؛ لكونها تولي الأسبقية للعلاقات"؛ "فلسفة فعل سميت أحيانا استعدادية تأخذ علما بالإمكانيات المسجلة في جسد العاملين وفي بنية الأوضاع حيث تعمل أو بالضبط في علاقتها" (تطبيق عملي: 9). هذا الإطار التحليلي العلائقي والاستعدادي، مع كونه مرنا وصارما يمنح أيضا، بحسبه، برنامج عمل جماعي الذي لا مفر من مواجهته بطريقة أو أخرى. وفعلا إطار نظرية العالم الاجتماعي هذه تدل وتحصر مشاكل وأهداف المعرفة انطلاقا منها لا يمكن أن يوجد إلا مواصفات:"الموضوع الخاص بالعلم الاجتماعي ليس لا الفرد ... ولا المجموعات كمجموعات ملموسة من الأفراد، ولكن العلاقة بين إنجازي عمل تاريخي...والحقول" (أجوبة: 102). تحديد هوية مواقع بقدر ما أنها تسمح بعقلنة مجموعة ظواهر (عملية، خطابات، آراء...)، هي لحظة أولية -موضوعيا- في التحليل. المواقع لا معنى لها إلا تفاضليا، لا يمكننا العمل إلا على أفضية المواقع وتبعا لذلك مدعوون للتفكير حول العلاقات بين الأفضية: لفضاء مواقع يقابله بتناظر فضاء إنعوادات يوضح شيئين، النسبة التفاضلية للحصول على موقع والتجربة المرتبطة باستيطان موقع. هي اللحظة الذاتية في التحليل. وأخيرا علما من جهة بحالة الإمكانيات الموضوعية (هرمية

---

(1) حول مسالة معرفة في أي شيء تكشف المعرفة الاجتماعية ما هو مخفي، عد لتأملات المقترحة في بينتو، النظر بطريقة اخرى، *Revue internationale de philosophie*, 2002/2.

العاملين، المنتجات...) ومن جهة ثانية الخصائص الموقعية والاستعدادية للعاملين يمكننا محاولة تفسير الإستراتيجيات المتبعة للمحافظة أو تغيير موقع بل وحتى فضاء المواقع.

المدى النظري المعبر عنه هنا يمكن أن يبدو طموحا جدا(أكثر مما يجب؟) طموح ومتطلب وإنه لكذلك بلا جدل. ولكن أهو أكثر مما في نظريات أخرى (ماركس، فيبير، دوكهايم، إلياس، شوتز، جوفمان...)؟ نظرية بيار بورديو التي تترتب عن مسلمة وضوح متبن بطريقة مصممة ونقد للأساطير "العلمية" لا يقترح بناء آخر إلا ما سمحت به نظرة واقعية إلى العالم الاجتماعي مدعمة بالموارد الانعكاسية.

ما هي في آخر المطاف المفاهيم النظرية؟ عدة مرات -ولكن التصنيف النظري للأفكار ليس هاجسا أساسيا عند بورديو- قيل لنا بأنه يمكننا تصورها على طريقة منهجيات وبرامج أبحاث (ن م: 56)، ككتابة مختزلة مفهومية وربما كمذكرة (ن م: 200). الا يوجد تذبذب بين قطبي أية ممارسة اجتماعية، نظرية للاجتماعي ونظرية معرفة الاجتماعي؟ النظرية كممارسة التي ليست بنظرية نظرية، تحوي ربما جزءا غير قابل للحكم عليه لأنها أولا وقفة معرفة. التواضع والطموح يجتمعان (أجوبة 222). واختيار العمل إلا بوسائل قليلة العدد الدقيقة والمرنة، وسائل تدقق بلا كلل، راجع إلى الاحتراس من النزعات الأسطورية واغتصاب النبوات. ولكن هذه الوقفة النقدية تحوي في نفس الوقت تحديا: هو تحد البرهنة بالتطبيق بأنه بفضل هذه الوسائل يمكن أن نأمل السير ما أمكن قدما في الفهم والوضوح العلمي.

الفصل الخامس

أناسة موضحة

توجب الانتظار عدة سنوات قبل أن يغامر بورديو في جنس أدبي، الخطاب الفلسفي ذلك الخطاب الذي طالما تحفظ عليه بورديو خوفا، بلا شك، من المغامرة بعيدا عن الأبحاث وترك الفريسة (الاجتماعية) في الظل (الفلسفة). كتاب "تأملات باسكالية"، هو بالفعل استثناء ملحوظ. ولكن الكتاب بعيد عن التخلي عن التحفظات السابقة، وإذا كان بمظهر النوع الفلسفي نظرا لطبيعة المواضيع والمصطلحات ووضع الكتاب المذكورين والتحكم التقني في سلسة من النقاط، فهو مع ذلك كما تدفعنا لافتة باسكال إلى التفكير في أن الفلسفة لا يمكن أن تتخذ فيه شكل نظام، نوع من صنو مجرد لعلم الاجتماع كان إلى هذا الوقت ممارسة وتطبيقا عمليا. وحقيقة فعالم الاجتماع لازال يتحدث -وعدة تحليلات تبرهن على ذلك- ولكنه يتحدث بطريقة أخرى، لأنه بتغيير فضاء التلفظ بالتوجه إلى الآخرين عوض زملاء المهنة يبرز النقلة التحتية للمنظور وقضايا لم يكن البحث التجريبي الميداني قادرا على اقتراحها حول مجالات تعتبر عادة من اختصاص الفلاسفة حكرا. وهكذا يمكن القول عن هذا الكتاب الذي يصعب تصنيفه بأنه في نفس الوقت لا يحوي شيئا جديدا لم يرد في الكتب السابقة وأنه في نفس الوقت جديد تماما (وهذا يوضح مرة أخرى أن نمط التفكير لا يقترح قطيعة واضحة ولكن ما لا يحصى من ضربات تغير وتعقد نسجا مكررا).

من أين يستمد هذا الكتاب ضرورته؟ النأي والامتناع النظري هي شيء جميل بقدر ما أنه يسمح بتفادي سوء الفهم والخلط. ولكنه يصبح شكلا غير مجد من تعنت وعناد لما يطول ويدوم لذاته، دون اعتبار مخاطر التسيب السائدة في فضاء الإنتاج النظري. الخطر الكبير هو أن مساهمة العلوم الاجتماعية لن تدرك كما يلائمها إذا لم نعط بصراحة وسائل

الإدراك والفهم الضرورية. لأنه لا يمكننا انتظار تفكير نظري يعتمد على العلوم من الذين يتجاهلونها تماما وببساطة ولا ممن يتسرعون لأخذ المكان بأسلحتهم الفلسفية، قراء مؤولون ومفككون ما بعد حداثيون وغيرهم من منظرين الفكر السياسي. الفراغ في آخر المطاف لم ينفع إلا بديلا تصوريا مفهوميا فقير جدا، مع من جهة التفرد غير المصنَّف للأفعال والعاملين التي يرفعها بأشكال مختلفة المدافعون عن الشرف الفلسفي و من جهة أخرى عقلانية العامل التي يرفعها ممتلكو ثقافة حداثية تدعي العلمية والتي تستورد مناولها من بعض أشكال الخطاب الاقتصادي. مواجهة أقصيت منه العلوم الاجتماعية لصالح الصورنتين المتضامنتين مواجهة تساهم في فرض أفق معقول على المستوى النظري ومن ذلك ذاته على مستوى الإشكالية السياسية الذي هو رديف له.

وإذا قبلنا بالتفريق في التأملات الباسكالية بين جزأين كبيرين، كل منهما يمكن أن يرى كحاصل وكتجديد: يقترح تحليل وجهة النظر المدارسية فهما بطريقة أكثر انتظاما وأكثر انعكاسية لمجموعة أساطير المعرفة رأيناها من قبل في مجالات وحالات مختلفة؛ وكذلك الأناسة الصريحة المصرحة في الجزء الثاني من الكتاب تحاول إعادة النظر من زاوية جديدة فيما كان قد خطط منقطا في الأعمال السابقة، خصوصا في مخطط نظرية ممارسة وتطبيق عملي. الجزآن هما وثيقا الارتباط. والحدود العلمية التي تفرضها وجهة نظر المدارسية على معرفة الشيء يترتب عنها أناسة يتعين التحرر منها باقتراح أناسة أخرى: الفاعل الخالص يجب أن يكون معوضا بكائن ملتزم في العالم الاجتماعي، مشاركا في العالم الاجتماعي بكيانه وعقيدته ورغباته وأفكاره.

كلامي فيما يلي لا أقصد منه لا تقديم ولا تحليل هذا الكتاب ولا مولده. معتبرا حصرا الجانب الأناسي (الجانب الآخر تم التطرق إليه عاليه)، أريد أن أظهر بأية طريقة المنطق البحث ذاته أدى إلى طرح بعض الأسئلة التي كانت يستحسن فيما سبق إذا لم يكن تجاهلها فعلى الأقل وضعها جانبا.

اكتشاف الرأسمال الرمزي

في الستينات والسبعينات خصص جزء كبير من التفكير النظري لبناء الرمزي كموضوع ذي استقلالية ذاتية. هذا العمل كان يستغل ما أنجز من أبحاث مخصصة على مواضيع مختلفة من إستراتيجيات الزواج والعطاء والطقوس في المجتمع القبائلي ونظام التعليم في المجتمع الفرنسي. الإيحاء المشترك يستند على محاولة الخروج من الموضوعية البنيوية. وكانت الرمزية بالذات إحدى قطع عيار البناء النظري الذي بدأ يأخذ صورته. وقد نغلط إذا رأينا في ذلك مفهوما تولد عن الفهم الخاص لبورديو. فقد تعلق الأمر بالأحرى بنتيجة نوع ما من الرهان. رهان ربط بطريقة خصبة ثلاث شبكات مفهومية مختلفة. وفعلا المصطلح "الرمزي" حدد في نظام تعارض ثلاثي: رمزي أخذ بمعنى كنشاط بناء إدراكي (معنى) بالتعارض مع العمل السياسي في التغيير أو المحافظة على الواقع (القوة)، ثم كذاتي (تمثيل) بالتعارض مع موضوعي (بنية) وأخيرا ككيفية تفوق (إنسانية، شخصية) بالتعارض مع القيمة التجارية (اقتصاد)، في العمل الميداني التجريبي، هذه الجوانب ستكون شديدة التداخل في العمل الميداني: أنظمة العلامات تعود إلى عدة رتب، معلومة، قيمة علاقة قوى، ولذلك يؤدي تحليل الممارسات المحددة إلى دراسة العلامات والتصنيفات والعاملين الذين يصنفون والمصنفين (بتصنيف الآخرين وتصنيفهم هم بأنفسهم)، العلاقة الاجتماعية التي تتم بتوسط الأفعال الرمزية... كل هذا دون نسيان عقلنة الفارق الموجود بين السهولة الفجة للبنيات الموضوعية والتجربة الذاتية. الرمزي مشروط بالعالم الاجتماعي الذي يساهم في إيجاده في الموضوعية من واقع فقط اتخاذه موضع تفكير لأنه أيضا من ذلك يعطيه إرادة. العالم الاجتماعي حاضر حسب عبارة شوبينهوير التي يستعملها كثيرا بورديو "كإرادة تمثيل". كيف يمكننا ابتغاء شيء غير ما هو موجود؟

الدراسات الأجناسية عن منطقة القبائل كانت مخصصة لمنطق الأسطورة-اليدوية التي هي في الثقافة المعنية أساس الأنظمة المرتبة للدلالات كالأساطير ولكن أيضا لممارسات

معبر عنها في الجسد والمكان على طريقة الطقوس، المتعارضات الأساسية والتي بفضلها يمتلك العالَم وضوحا في التجربة اليومية، في الحالات العادية مثل تفاعلات الحياة العامة، وتنقلات وعبور عتبة. إلا أن التفكير بأن وقفة الملاحظ تميل إلى التشكل كموضوع معرفة ليس منفصلا بتاتا عن الممارسة، في نفس الوقت لأنها تعمل على شكل مخططات عمل وإدراك مدمجة تسمح كتطبيق عملي بارتجال سلوكيات وأحكام متلائمة وأيضا لأنها تحيل على حالات واستعمالات عملية. وكذلك الأبحاث حول نظام التعليم تظهر، في مجال آخر، بأنه لن نفهم عمل هذا النظام إلا شرط فهم فيما هو ليس تماما مستقلا عن التقسيمات الاجتماعية ولا شفافا ومتجانسا لنظام خارجي. النظام لا يمكنه ملأ الوظائف الاجتماعية لإعادة الإنتاج التي له، فإنجازها بفعالية وشرعيا لا يتم إلا شرط الخضوع لمتطلبات خاصة، من بينها التوقف عن التقييمات الخارجية (الاجتماعية) للموهبة أو الاستحقاق، الشرط اللازم لسمعة المؤسسة. الاستقلالية الذاتية للمؤسسة المدرسية تفرض إذا بمعنى ما كلفة اقتصادية لا يمكن أن تنقص بعقلنة وترشيد دون خطر جعل وظائف إعادة الإنتاج الاجتماعي ظاهرة والتي كانت لحد الوقت تنجز بطريقة خفية. في عالم أو آخر، تقسيمات العالم الاجتماعي التي كما أظهرها دوركهايم هي في أساس التصنيفات (عالي/ أسفل، مذكر/ مؤنث...) هي معروفة وغير معروفة، وإذا فضلنا أعيد ترجمتها في مستوى خالص للمعنى، والذي سوء النية الجماعية للأهليين كما هي عادات "العلماء" تؤدي إلى فصله عن مستوى القوة والاعتباطية. للتفكير في اللا معقول يجب إذا المخاطرة بقرن الأضداد في هذا التصور الفكري الذي هو ظاهرا مفارقة للعنف الرمزي. عمل التصنيف الاجتماعي لا وظيفة له إدراكية بحتة. قول الأشياء كما هي حسب نظام رمزي محدد، هو في نفس الوقت مساهمة في إيجاد هذا النظام، وتقديمه كطبيعي، كما يجب أن يكون مطلوبا وليس إلا مطلوبا. وأحد الآثار الأكثر خفاء والأكثر فعالية لتصنيفات الوراثية المحللة في دراسة معنونة القرابة كإرادة وتمثيل (مخطط: 71)، بعنوان ذي معنوية، هو تحويل اعتباطية النظام الاجتماعي إلى

نظام الأشياء، البنيات الاجتماعية إلى أقسام منطقية ووسائل معرفة، على شكل تفكير. الإشارة إلى فرد ما كقريب، هو إبتغاء أن يكون كذلك، ولكن يمكننا أيضا رفض أو نسيان التعرف عليه كذلك: القرابة العادية تختلف عن القرابة الرسمية. تحت غطاء الإشارة إلى الكائن، تفرض البنيات الإدراكية في الفكر النظام الحتمي الذي تفرضه علاقات السيطرة: "كلمات القبيلة" هي كلمات أمر، أوامر بمعنى حتميات، ولكن يمكنها أن تقال بصيغة فعل المضارع لأنها لا تفعل إلا إعلان نظام/ أمر العالم (ن م: 77).

تحليل الأشكال الرمزية هو حقا تحليل النقطة القوية لوسائل الاجتماعية، وإذا كان صحيحا أن النقطة الأقوى هي التي نشك أقل في إخفائها لقوة. مفارقة الموضوعاتية هي أنها حكمت على نفسها أن لا تعطي إلا تعريفا مختزلا للاقتصاد. وهو ما يحدث عندما نختزل بخصوص العطاء والعطاء المضاد ممارسة إلى حقيقتها الموضوعية للتبادل المنظم والملزم للمتقابلات، بواسطة كشف موضوعيا الأساس الاقتصادي الذي يجعله ممكنا. وخصوصا، ما يختزل الموضوعاتية هو الفارق الزمني، الزمن نفسه: اختزال العطاء إلى حقيقته الموضوعية أي التبادل المتضح من خلال العطاء المضاد مع وضع بين قوسين الفارق الزمني بين العطاء والعطاء المضاد، هو رفض رؤية الوظيفة الضرورية للزمن، الفارق الذي يجب لتكون ممكنة ممارسات التبادل: لأن التبادل هو مضمون بقدر ما أنه مكبوت وأن العطاء يظهر كهبة مجانية، دون مقابل، تعزى فقط لسخاء وكرم المانح. تسريع الزمن يعرض الممارسة لأثر موضعة تلغي الزمن الموجه واللا رجعي للممارسة، الزمن أو العطاء المضاد لا يظهر بعد بيقين أن عليه ختم الدورة وغلقها. يلغي بهذا ذاته دلالة ممارسة تمنع تغطيتها الزائفة على ممارسة اقتصادية بسيطة من رؤية شرط أساسي لسريانها. إلا أن جهل الحقيقة الموضوعية يشكل مثل ذلك الشرط "لتسترجع الممارسة حقيقتها العملية الا وهي الارتجال المنظم ووظيفتها التي في تعريفها الكامل يمكن أن تتضمن كما في حالة التبادل، كتمان وإخفاء الوظائف الموضوعية، يجب إعادة إدخال الزمن في التمثيل النظري لممارسة مهيكلة زمنيا وإذا داخليا وذاتيا محددة

بالزمن" (ن م، / : 221؛ يقصد بورديو هنا مقدمة ليفي ستراوش لكتابه علم الاجتماع والأناسة، باريس، 1950).

محو الزمنية هذا له أثر تعويض لأفعال نسبيا عشوائية، يعني أبدا متحكم فيها تماما، تسلسلا لازما يحول هذه الأخيرة إلى طقوس خالصة. إلا أن المصير لا يمكن التكهن به بيقين تام، وليس إلا لأن الذي عليه إنجاز العطاء المضاد يمكن أن يفعل شيئا بهذا الزمن اللازم: يمكن أن يعطيه هكذا معنى جد مختلف حسب التسرع الشديد في القيام به الذي قد يرى كإهانة، التأخر الكبير الذي قد يعتبر معيبا ... في حالة الزواج: المطلوب يده يمكن أن يستغل الوقت لأنه بتأخيره الرد يضمن إيجابية على الأقل مؤقتة على حساب الطالبين. إلا أنه إذا وجد تردد بين عدة إمكانيات فربما وجد في ذلك استعمال أقل أو أكثر ذكاء، وتاليا يظهر الفعل بالطبع أكثر كإستراتيجية منه كطقوس، وإذا كان صحيحا أن من مهمات وأهداف إستراتيجية هو التحكم في الزمن، بما فيه العمل على أن يكون ما مضى من الزمن غير مسترجع بلا رجعة -وكما يسمح بالتأكد منه إرسال مبعوثين من وزن ثانوي لجس النبض بغية اتفاق على زواج، وتحسس نيات الشركاء، ولكن دون الالتزام بشيء. وهكذا إذا كان استعمال الزمن كاستعمال يمنح إمكانية تراجع، هو إستراتيجية جيدة، هو أن الزمن ينتمي إلى تعريف الممارسة: الموضوعاتية لها معنى بالنسبة للعلم الإلهي وليس للعاملين.

وفعلا، فقبول كاقتصادي إلا ممارسة محسوبة تهدف بوعي أولا إلى الحصول على مقابل، الموضوعاتية الكاشفة للزيف جزئيا، ستزيف بما تبقى يعني مجموع الممارسات التي يستحيل فهمها بمفهوم الاقتصاد الذي تستعمله -بتلخيص كل ما هو ثقافي، رمزي يعتبر منوها عن النفع- ولن نتعجب إذا لاحظنا أن الحقيقة الموضوعية للموضوعاتية على شكل ما نسميه الأقتصادوية هو تصور مثالي للثقافة يتبنى حرفيا وجهة نظر الشرف الروحاني للمجتمعات. الاقتصادوية، لا يفطن بتاتا إلى أن الاقتصاد الذي تعتبره ومجموع الفئات الاقتصادية تفترض كلها منبعا ومتولدا وأن الكشف عن الممارسات الاقتصادية وتعريتها من

كل لباس هو نتيجة تاريخ وصل به الاقتصاد الرأسمالي إلى أوجه. استعمال الفئات الاقتصادية يفترض جعل الأنشطة الاقتصادية مستقلة وفصل هذه الأخيرة قياسا للأنشطة الأخرى التي كانت مخلوطة معها: الجهل بهذا الاعتبار يؤدي بلا مفر إلى إسقاط تعسفي للفئات وإذا إلى تقوقع أجناسي.

الموضوعاتية مكرسة لتجاهل كون أنه بشرط المحافظة على فارق مع حقيقتها الموضوعية يمكن لممارسة أن تتم بشكل أحسن. وهذا صحيح ولو في مجال الأنشطة الاقتصادية للمجتمعات ما قبل الرأسمالية. وأكيدا فالفارق يفترض كلفة ولكن كبت وإخفاء الاقتصادي الذي يشمل مصاريف (حفلات،هدايا) مرهقة من زاوية اقتصادية له مع ذلك في المقابل منافع. من يكون في قدرته الصرف والدفع بلا حساب خلال حفلة، وإعطاء هدايا، بتلخيص هو الرجل الذي له سمعة وجاه ورأسمال شرف مرتفع ويمكنه في نفس الوقت تعبئة لأعمال فلاحة الأرض عددا أكبر من الرجال: الكرم عكس السمعة التي ترتبط بممارسات مصاريف الفخر والتي ليست إلا مقابل الأقتصادوية، ليست خسارة خالصة. وإن كانت بطريقة ملتوية فإن هذه الممارسات تعود دائما إلى مصالح وخصوصا، كما تظهره قدرة رجل الشرف في تعبئة يد عاملة، إلى مصالح مادية. ولكن حيث أن تلك الممارسات ليست موجهة بطريقة آنية نحو تلبية المنافع المادية وحيث كلفة التي تمثلها لا تحمل إلا زيادة سمعة لرجل الشرف سنسميها رمزية.

وإذا اعتبرنا أن زيادة الرأسمال المادي إلى مداه الأقصى كشكل وحيد للعقلانية الاقتصادية، ستبدو لنا كثير من الممارسات في المجتمعات ما قبل الرأسمالية غير عقلانية: وليس إلا إذا سلمنا بوجود منافع رمزية خالصة كمنافع اقتصادية مخفية سنفهم حينها عقلانيتها الخاصة. وأخيرا لن نكشف عن منطقها الخاص إلا إذا تركنا بالذات وجهة النظر الاقتصادية المختزلة والتي نفطن إلى أنها هي التي تولد غرابة وانحرافا في الظواهر الملاحظة، نتبنى وجهة نظر مختلفة تمثل بشكل ما توسعا وتعميما للسابق على شكل اقتصادوية معممة.

الممارسات الرمزية محددة كما الممارسات الاقتصادية بمنافع: بنقل وإسقاط مفاهيم اقتصادية بحتة على مجال رمزي سنتحدث حينها عن أرباح، استثمارات، تكاليف، رأسمال وبل عن قيمة إضافية...رمزية، ولكن هل الإسقاط ليس شرعيا ولا مبنيا على أسس إلا إذا تجاوزنا عكس الممارسات الرمزية على ممارسات اقتصادية بغية تجنب بالضبط إمكانية المنافع الرمزية خاصة بالبحث على إدماج كليهما في نظرية أقوى لاقتصاد الممارسات[1]□. تغيير وجهة النظر الذي يتمثل في اعتبار وجود منافع رمزية نوعية يترتب عنها بشكل ما إعادة صهر مبادئ المحاسبة. وإحدى الخصوصيات في نفس الوقت مفارقة ولازمة لهذه المحاسبة الجديدة، مكونة من عدم وجود مقياس تعادل ووسائل محددة للتبادل: وهو بالخصوص ما يميز الرأسمال الرمزي عن الرأسمال الاقتصادي. الذي سيعمل في حقل رجل شرف سيحصل بالتأكيد على أجرة مشقته بغداء ولكنه سيكون مناقضا للشرف أن يطلب ثمنا لعمله، مقابلا نقديا، لأنه ولو أن الغداء يسدد ثمن العمل من المستحيل المطالبة بالمال دون خرق وانتهاك نفعي للحقيقة الموضوعية لعلاقة في أساسها عدمت الحسابات (مخطط: 229-230).

إلا أنه بالضبط وبثمن -المرتفع غالبا- كبح هذه الحقيقة الموضوعية من الممكن تقوية أو الحفاظ على الرأسمال الرمزي: الممارسات الفخرية، الحفلات والزواج.... التي تهدف إلى زيادة الحد الأدنى للمنافع الرمزية وزيادة الرأسمال الرمزي، يمكن أن يكون لهما تكلفة مرتفعة من وجهة نظر اقتصادي (مختزل)، عقلانيتها الاقتصادية العامة تظهر بوضوح إذا رأينا فيها استثمارات مردوديتها الرمزية هي حسب التضحيات المقدمة على المستوى المادي.

---

(1) هذه النظرية القوية تهدف إلى تغيير التصنيفات المفروضة باستقلالية الحقل الاقتصادي. وتاليا لا يمكن أن ننتقد عند بورديو شيئا من الاقتصادوية دون تناس التحدي المضمن في العبارة نفسها للرأسمال الرمزي. نحن مدعوون إلى احترام تعقد نظام الأشياء هذا، وتمييز الذاتي والموضوعي، وتداخلهما وفوارقهما. ورغم كل التحذيرات، كيف يمكن تفادي بعد التذكير بأن "اقتصاد الأشياء الرمزية هو اقتصاد الغموض والغير المحدد" وأن الملاحظ ليس ضحية انتهاك يقوم به "محرم التوضيح هذا"، محرم "ينتهكه التحليل تعريفا متعرضا هكذا إلى إبراز كيف أن الممارسات التي لها اهتمام منفعة وحسابات للممارسات التي تتحدد ضد الحساب والمنفعة" (علل عملية: 211).

وحيث أن إنفاقا ماديا يمكن أن يأتي بربح رمزي، حساب الأرباح الرمزية يفترض بأن ننفق دون حساب. وهذا الإنفاق لا ينتج عن حساب يقوم به عامل حساب يجرب قواعد الحساب: تمت بلا حساب لأن التطبيق العملي يلزم بها الذي يدفع للقيام بما هو مطلوب فعله، أي الأشياء التي يلزم على رجل الشرف أن يقوم بها.

نفهم بأن الرأسمال الرمزي الذي ليس فقط حيلة اقتصادية، يمكن أن يكون له متطلبات تراكم متناقضة مع متطلبات الرأسمال الاقتصادي: تلبية المنافع الرمزية تفرض تضحيات مادية تقف حاجزا أمام تشكل قيمة إضافية. (الأهمية المفضلة للرأسمال الرمزي في بعض التشكيلات الاجتماعية يمكن أن تفسر بالظروف المادية للمعيشة نفسها: قدرة عائلة في تعبئة، بفضل رأسمال الاحترام والعلاقات الذي تمتلكه عددا كبيرا من الرجال تمثل أحس استثمار علما أن فقر الوسائل التقنية و هشاشة الظروف الطبيعية تجعل من اليد العاملة موردا أساسيا.) مع ذلك، علما بأنه لتتحقق الأرباح الرمزية، يفترض أن نعرف أن نعطي وأن لا نقوم بذلك إلا كنا قادرين على ذلك، يعني إذا كنا نمتلك حدا أدنى من الرأسمال الاقتصادي، علما بأن هذا الرأسمال نفسه يمكن أن يراكم بفضل رأسمال رمزي يسمح بتعبئة يد عاملة وافرة لأشغال الأرض، يعني للأرباح الاقتصادية، وينتج عن ذلك بأن الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الرمزي هما شديدي الارتباط وأن الواحد يفتر ض الآخر أو بالضبط لأن تميزهما هو نتاج الاستقلالية الذاتية للأنشطة الاقتصادية الخالصة، وأنهما لا ينفصلان. الشرف هو للعائلات الغنية القوية التي تمتلك شبكة علاقات موسعة شرط أن تستغل قوتها وغناها في استعمال نفعي غير مباشر وجلي.

وإذا كان الشرف يذهب لمن له سابقا شرف والذي يمكنه بواسطة إستراتيجيات زواج، تحالف ... استثمار رأسماله الرمزي، لأن الرأسمال الرمزي يساهم بطريقته في إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية. هذا الرأسمال مكون من سمعة رمزية التي تصبغها المجموعة على رجل الشرف (تسبق دَينا)، هذا الدين لا يعطى إلا بضمانة المكانة المحترمة للأخير يعني

على الائتمان (السمعة) الذي جمعه هو مسبقا-متعادل في النظـام الرمـزي للعمـل المتراكـم- شبيها تماما بالرأسمال الاقتصادي الرأسمال الرمزي يفرض نفسه . وتاليا فإن لعبة الرأسمال الرمزي يعني تحقيق أرباح رمزية بزواج مرموق، وعطاء مجاني وسخي الذي يلزم على إرجاع المثل على شكل عمل ولكن الذي بإخفائه هـذه الحقيقـة الموضـوعية، يحـافظ علـى الـسمعة الطيبة الشريفة، ولا يرنو إلا لإعادة إنتاج شروطه الخاصة. وإذا كان الرأسمال الرمزي ينـتج قيمة إضافية رمزية وإذا كانت القيمة الإضافية الرمزية تنتج رأسمالا رمزيا هو أن الرأسمـال الرمزي يتوالد بنفسه، "يولد بنين". إلا أن تملك مجموعة مؤثرة ومحترمة لحظوظ النجاح له مقابل نزع الملكية عمن حرم منها، لأن الشرف ليس إلا علامة مميزة، لا معنى له بالضبط إلا بمقدار أنه ليس موزعا بين الجميع: عرس جميل هو بالضبط الذي يربط ناسا مـن مـستوى متعـادل، ويتفادى زواجا خاسرا الذي يمثله زواج بمن هب ودب ويمسح بالمحافظة وبل زيادة الرأسمال الرمزي للعائلات المعنية؛ ولكن إذا كان الرأسمال الرمزي يشكل مقدمـة فـإن اسـتراتيجيات الزواج ليست إلا لعبة وتعبيرا أقل أو أكثر ذكاء عما نمتلكه مسبقا، وإستراتيجية الفقير الـذي ليس له أو تقريبا ليس له ما يريد أن يظهـره هـو دائمـا محكـم عليـه باختيـارات باهتـة وبـلا مردودية رمزية. المتواضع هو الذي لا يمكنه بعطايا وبسمات وحركات لطيفة إلزام أيـا كـان، ليس له وسيلة للحصول من الآخر على سمعة رمزية تسمح له بتراكـم الرأسمـال الرمـزي، وهو الذي قد يكون بالعكس ملزما بالمساهمة في تراكم الرأسمال الرمزي للآخرين.

كيفية المحاسبة، تترتب عن اعتبار أنواع أخرى من الأرباح غير الأرباح الماديـة فقـط، تؤدي إلى التفريق بين العقلانية الاجتماعية والعقلانية الاقتصادية. الرأسمال الرمزي يتراكـم مقابل ثمن مردودية اقتصادية قد تكون ضعيفة أو صـفرا: هـذا الفـارق هـو مـن مكوناتهـا. ولكن إذا كان مقابل تضحيات اقتصادية يمكن الحفاظ على الرأسمال الرمزي وتغذيته ويعيـد إنتاج نفسه، وحين يعيد إنتاج نفسه يميل لإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية التي جعلته ممكنا، الممارسات الرمزية هي عقلانية اجتماعية وتقاس بوظيفتها لإعـادة الإنتـاج. ووظيفـة إعـادة

الإنتاج الاجتماعية هذه (المضمونة على حساب العقلانية الاقتصادية التي لا تهدف إلا إلى زيادة الأرباح الاقتصادية) التي تجهلها الاقتصادوية، نظرا لعدم أخذها بعين الاعتبار آليات كتمان الحقيقة الموضوعية لممارسات العاملين التي لا يمكن أن تخدم هذه الحقيقة إلا مقابل ثمن (بالمعنى القوي) الالتفاف. وأن توجد مجتمعات مثل التي لا تعرف الأنشطة الاقتصادية المميزة يمكنها أن تقلل قيمة أرباحها الاقتصادية لتلبية متطلبات إعادة الإنتاج، فإن هذا يدفع إلى طرح أسئلة على الاقتصادي نفسه؛ وليس فحسب بخصوص هذه المجتمعات، ولكن أيضا مجتمعاتنا، إذا كان صحيحا بأن منطق الفارق هذا يفترض تبعية الممارسات إلى وظائف إعادة الإنتاج. الزعم بأن موضوع الاقتصادي ينتج استقلالية ذاتية للأنشطة الاقتصادية، يبقى مجردا طالما أننا لم نعط وزنها للمتطلبات التي تفرضها استمرارية النظام الاجتماعي، يعني في الأخير متطلبات سياسية، على الممارسات الاقتصادية نفسها.

وتوازيا فإن الرمزي نفسه هو الذي يأخذ دلالة جديدة. هذا العطاء الذي يبادل الثروة مقابل الاحترام، المادي مقابل الرمزي، ليس مع ذلك خسارة خالصة إذا فكرنا في أن الثروة تبقى حاضرة في الاحترام ولكن على شكل غير متعرف عليها، يعني في نفس الوقت منقلة، مدلول عليها، مشفرة: الرجل الكريم متيقن بأنه سيحصل على المقابل لأنه بقبوله إجلالا على سخائه لا يحصل على شيء آخر عدا ثروة مؤجلة والذي يفهم جيدا أنه بتأجيلها يمكنه أن يحققها وأنه برغبته في تحقيقها آنيا سيفقد الكل.

ذلك هو قانون هذا الرأسمال الرمزي. والعلامات التي تخصصه ليست أشياء، هي قيمات يعتمد وجودها الاجتماعي قبل كل شيء على علاقة الاعتراف التي تتأسس بين المستعملين. وفعلا يفترض عملها أن تكون مدركة، مفهومة ومتبناة. ومن ذلك ازدواجية أوجه التواصل والسلطة التي يمتلكونها: من جهة يحملون وضوحا ومعلومة لأنهم يسمحون بتصنيف الأشياء والرجال في عالم لحد ما مشترك، ومن جهة أخرى، ينبهون، بإبراز علانية وخاصة ضمنيا علامات الأهمية، إلى الهويات الاجتماعية التي لا توجد إلا تفاضليا. كل

عامل هو مختلف، مميز ولكن التمييز الأعلى هو في سلطة، الموزعة بتفاوت، للعمل بواسطة وعلى العلامات: هذه السلطة التي تطبق على الآخرين والتي تنتظر اعترافا بها تتمثل في وصول شرعي إلى العلامات الأعلى سمعة وشرفا، والأندر، في تملك صلاحيات تغيير قواعد العادة، وتفادي الآمال والمحاكاة، في عقوبات التحقير ضد المدعين الطامحين. التصنيفات الاجتماعية تمنح هوية بالتمييز الذي تخلق في تتابع الموقع: تشير إلى الأقطاب الأولية، النبيل والعامي، العالي والمنحط، الأعز والأنذل قياسا بها الجميع، مسيطر وخاضع، عليه التفكير في ذاته، ولكن بوسائل بالطبع مختلفة. يجب التذكير وهو ما ذكرناه عاليه: بأن هذه التصنيفات كونها وسائل وسلطات هي موضوع صراع. يكفي التفكير في عوالم حيث الكائن يختزل أكثر إلى "كائن متصور" لفهم قوة صراعات الحياة والموت الرمزية، بلافتاتها، وغنائمها ووصمات عارها (مملو مدام فيردورين لهم مقابل ثقافي موضوعيون وماركسيون وما فوق طبيعيون ...حسب الحالات).

وكالرأسمال الاقتصادي وككل رأسمال متخيل، الرأسمال الرمزي ليس شيئا ولكن علاقة اجتماعية جد خاصة بقدر ما يحوي الشروط تمثيله: عناصر مجموعات المالكين لا يمكنهم إلا الحصول على اعتبار لأن رأسمالهم يمنع التحديات المحتملة التي قد تكون هدامة لمن هم غير محترسين. ولكنهم مرتبطين باعتراف الآخرين، الأنداد كما من هم أسفل، هذا الرأسمال له هشاشته: يجب الأخذ بعين الاعتبار الحوادث الرمزية التي هي النميمة والتحديات والتبذير التي تأتيها عناصر غير مشرفة من المجموعة، نساء غير شريفات ورجال ضعاف وأيضا بواسطة كل الأخطاء والزلات في تدبير السمعة. رجل الشرف هو توازيا قوي وهشاش، ويحس بذلك عندما يتساءل إلى أي حد يتوجب الأخذ بجدية المخاطر المرتقبة. هذا العدو الذي العازم المصمم هل له قدرة أو أنه سوى ذلك الأهبل الفج الغليظ المثير للشفقة في ادعاءاته الخرقاء، يستحسن تفاديه وتركه لهيجانه؟ وانقلابات رمزية هي ممكنة كما تظهرها

كل مدامات فيردورين اللواتي نجحن في أن يعتبرن أميرات وكل تشارلوس، بارونات من عائلات عالية مجبولة على تحقير الجهلة والذين ينجحون في النهاية في فرض تصنيفاتهم.

في هذه النسخة الأولية، مفهوم الرأسمال الرمزي يمنح وسيلة أساسية في برنامج عمل يحفزه طموح تجاوز مجموعة بدائل -بين الموضوعي والذاتي، بين العلاقات القوة وعلاقات المعنى، بين المعرفة والسياسة-. المنافع النظرية كانت مزدوجة: المساهمة في نظرية الممارسة بتقرير الفارق بين الحقيقة الموضوعية المجهولة والدلالات العملية؛ المساهمة في اقتصاد معمم للممارسات القادرة على معالجة الممارسات الاقتصادية كحالة خاصة. العاملون لا يمكنهم العمل في عالم حامل للمعنى والقيم، عالم في نفس الوقت متحمل وشرعي إلا بثمن (أحيانا الغالي) عمل جماعي للكتمان المنجز حول المنافع وحول علاقات القوة الاقتصادية بجلاء. وهكذا ما هو اقتصادي وما هو رمزي يشكلان قطبين متناقضين بينهما يوجد تتابع مواقع موسومة، في نفس الوقت بدرجات مختلفة وبحقيقة مزدوجة، كالعطاء أو في مجتمعاتنا عمل الأجراء الأكثر عرضة للاستغلال الاقتصادي. يمكننا أن نبرز كيف أن المجموعات الاجتماعية، المجموعات الأهلية، الخدم، والمهن مدفوعة لدمج وتوفيق منطق كلي القطبين، تناوبا في نفس الوقت مهتمة وغير مبالية ماديا، عقلانية وكريمة.

من هذه الزاوية فإن التطويرات اللاحقة للرأسمال الرمزي لن تبتعد عن هذا التوجه الأولي. ولكن ستمثل مرحلة جديدة في البحث عن عمومية قصوى.

مشاعر/ شغف ومصالح

فعلا في تأملات باسكالية (1977)، الرأسمال الرمزي كان خاضعا لإعادة تعريف قد يمكن أن يشبه إعادة نظر: هذا الرأسمال يدعو لعدم اعتباره 'كنوع خاص من الرأسمال' ولكن أن يعتبر 'كشيء يصبح كل أنواع الرأسمال عندما يكون غير معروف كرأسمال'. عوض رأسمال رمزي يجب في الأخير الحديث عن تأثيرات رأسمال (تأملات: 285).

وفعلا النظرة الثنائية التي كانت وراء استعمال فكرة الرأسمال (الاقتصادي/ الرمزي) لم تهجر بتاتا ولكن غيرت وأعيد تخمينها لصالح نظرة لن يكون تعسفا تخصيصها بمتعددة. لماذا فرض هذا التغيير نفسه؟

ولكن بطرح هذه الأسئلة على هذا الشكل، نخاطر دائما بالسقوط في عشرات مدارسية، ناسين أن الصياغات المتعلقة بالمفاهيم النظرية لا تحيى مستقلة في العقل، فهي متضامنة مع عمل بحث الذي تدل على مراحله على طريقة أعمدة الإشارات، والتي تتم حسب منطقها الخاص، وأحيانا قليل الاهتمام بالتعريفات. إلا أن فكرة الرأسمال هي وسلة جد حساسة توازيا مع الفضاءين الأساسين المواضعيين الخاصين بعلم اجتماع بورديو، فضاء الإنعواد وفضاء الحقل. فمن جهة يربط الرأسمال الإنعواد بالحقل، مؤثرا على نمط سلطة تمنح التحكم في مجموعة من الإمكانيات الموضوعية؛ ومن جهة ثانية يوجد حسب درجات تشييىء تختلف بشكل مستمر، من المعرفة المدمجة في خبرة إلى النتيجة مانحة له شكل شيء ولكنه ينتظر أن يتملكه عاملون محددون ومستعدون لهذا، يعني لهم استعدادات ملائمة. الطريقة التي يلتمس بها الإنعواد تخضع إذا للخصائص المحلية للحقل المعني: الحقل هو الذي يحوي تعريفا للواقع الشرعي وذي الصلة وكذا تعريفا لهذه الرهانات المتلازمة انطلاقا منها يمكننا استخلاص الأشكال الأكثر تفردا للإرضاء والمكافأة التي تمنح. يعني يوجد تعدد حقول تتحكم في تعدد اقتصاديات. بين الحقل الديني والحقل الفني والحقل الصحافي، ما يختلف ليس فحسب الخصوصيات الاجتماعية للعاملين بل أيضا أنواع المصالح، والاستثمارات والانتماءات. وللدخول في واحد منها، يجب الاعتقاد في قيمة الرهانات الخاصة التي يقترحها والانكباب عليها، يعني التوفر على نوع من الميل والموهبة يسمح بانتظار شيئا آخر غير مكافأة مالية فقط على قوة العمل المستعملة: الرضا بالتناغم مع الترقبات. هذه العقيدة تقرن مستويات عادة مميزة للمصلحة والحماسة، للربح والعطاء، للشخصي والجماعي لأن من هو حاملها، 'المسكون' أو 'المجنون' يلتزم ويرهن شخصه، واعتقادات، ومواهب خاصة في مواجهة

أشخاص لهم قيمة بالنسبة له، ولكن دون أن يطرح نهايات على نمط واع للحسابات والتخمين. لأن الذي له ميول يجسد التلاؤم بين الاحتمالات الموضوعية التي يعرضها الحقل والرأسمال المشارك بهذه الاستعدادات، الاختيارات الصريحة تتم في أفق وضوح مذهبي: هذا الفرد هو مطلوب للقيام بشيء يبدو خلق لأجله ويطلب أن يفعله هو بذاته. الحركات التي يطلب القيام بها، بعيدا عن أن تكون مستبقة بمشروع هي إما ببساطة أوحيت بحالة العالم يأسر ويحوي على نمط افتراضي جدلية الممكن الموضوعي والإمكانيات المسجلة في عقل وجسد الفرد. ظروف الترحيب والتنعم بالممارسات ترتكز على الاعتقادات التي هي فعالة ومكثفة بقدر ما هي تعكس تواطؤ البنيات الموضوعية والاستعدادات الذاتية.

نرى بأن التوتر بين الاقتصادي والرمزي يأخذ هنا منعطفا جديدا. العلاقة ليست فحسب علاقة مصلحة مضمنة مع مصلحة منكرة. ولو أنه في حقل خاضع بشكل واضح لقانون المصلحة الاقتصادية كالحقل الاقتصادي، النابع من مسار طويل تاريخي للاستقلالية الذاتية، العامل لا يمكن بأي حال أن يعتبر بشرا آليا عقلانيا. وبالفعل الحقل لا يعترف ولا يدعو يستدعي إلا من يمتلك الاستعدادات التي تحمله على المشاركة بنفسه في الأعمال، بالمخاطرة باسمه وسمعته وعموما علامات التفوق التي لا تقاس بمؤشرات اقتصادية. حب الفن ربما له مقابل في حقل ما: إذا أمكن حب المال بشكل علني، فهو بلا شك ولأنه مفارقة بالتحول إلى محرك حصري للعبة يمتلك وضع غاية في حد ذاته أهلا ليعرض كمهمة، رهان التحدي (ينجز أعمالا) لأفراد لهم القدرة على مواجهته. النجاح الزمني إذا كان يمكن قياسه هو أيضا علامة اختيار: يؤكد قيمة الرأسمال الرمزي الذي قد يكون مرتبطا برأسمال مقاولة، رأسمال عائلة أو عائلة مقاولين بالتوارث عن الأجداد، حلفاؤه وأخيرا رأسمال شخص قادر على البرهنة على مهارات مرتبطة بشخصه.

تحصيل حاصل؟ حلقة؟ هل يكتفي علم الاجتماع فقط بالتأكيد على أن الفنان هو الذي يحب الفن، المقاول هو الذي يحب الأرباح؟ ستكون الحالة كذلك لو اكتفينا بتصور

وصفي خالص، تترقبه جوهرية أقل أو أكثر دهاء. إلا أن مبدأ استقلالية الحقول لا يعني أن التحليل يتوقف في ملاحظة عدمية القدرة على قياس هذه الحقول، شكل من التعدد المسالم يسعد الجميع. بقي أن نعطي لعمل التحليل حقا أساسيا، وأولا توضيح البنية الداخلية للحقول، وحدودها، وعلاقاتها من خلال دراسة أشكال التبعية والتحويل والتنقل. يجب أيضا فهم ميلاد العقائد وفهم الاستعدادات المسبقة التي تعلنها الظروف التي تجعلها ممكنة، بتلخيص التفكير بعبارات لا يمكن أن تكون عبارات العقيدة والتي يمكن أحيانا أن تكون موضوعاتية.

الخصائص البنيوية هي أساسية لفهم الرهانات المقابلة للمواقع المميزة والتي تتميز وتتواجه في مسألة تعريف الحقل نفسه وطريقة التفوق. مثلا المثقفون الأكثر ارتباطا بوسائل الإعلام لا يمكنهم الأمل في الوجود كمثقفين إلا شرط تكذيب الصورة التي يعرفون كيف يلصقونها على أنفسهم، الصورة التي يعكسها عليهم المثقفون الأكثر استقلالية، المنتمون لقطاعات الطليعة، والمتبحرين في العلم والبحث: يجب عليهم التشبه والتشبث بأنهم يحتفظون بشرف المثقف على شكل محاكاة هزلية (مستوحاة خاصة من شاتو بريان أو مالرو) مع الحصول على دعم الصحافيين الذين هم بأنفسهم مهتمين بالتموقع كشريك ومكتشفي مثقفين. وخارج هذه الحلقة تتلاشى فرحة الاعتقاد وتترك مكانها للتعجب.

رأسمال علل التواجد

هل يمكن لعالم الاجتماع أن يذهب بعيدا من الاكتفاء بملاحظة كم كل عالم مدروس يصل لضمان تلاؤم الاستعدادات مع المواقع، شرط الاعتقاد الضروري في هذا الوهم الذي يسيطر على الأفراد ويحملهم على العمل والنضال والبحث عن المنافع التي قد تبدوا هزيلة لعين خارجية؟

والذهاب بعيدا ألا يتمثل حقا الـذهاب بعيـدا في الانـدفاع علـى مـستوى خـارجي الذي هو مستوى الفلسفة، حيث نغامر حين نقدر بأن العمل وقد انتهـى، علـى الأقـل الآن، ونمنح حق أخذ بعد، علو. وعلى أية حالة لم تتخل التأملات الباسكالية عـن الحـذر الـسابق: يحدثنا بورديو فيما تحدث عنه دائما، يتحدث دون نسيان علم الاجتماع، ولكن برؤية مغايرة. الأناسة التي يطورهـا الكتـاب كانـت مـضمنة في الأعمـال المنشورة سـابقا: ويتعلـق الأمـر بإعطائها شكلا آخر، بتحمل نتائجها ولكن مع عدم تحمل أي شيء آخر إلا ما سبق اقتراحـه في الأبحاث التجريبية. وإذا لم يكن بورديو قد فرض على نفسه منهج التصريح الشرعي هذا، فمن آخر يا ترى، فيلسوفا أو عالم اجتماع، كان يمكنه أن يتخيلـه ويحقيقـه مكانـه؟ أن تكـون هذه النظرة التي تبناها قليلة الاحتمال تعود إلى أسباب ليست فقـط مـن مهـارات أو موهبـة فردية ولكن إلى الصعوبة الموضوعية لتحقيق التلاقي بين ما تحقـق نظريـا في علـم الاجتمـاع والوسائل النظرية المواتية قليلا لموقف اجتماعي يضع في المقدمة منطقـا، والـذي هـو زيـادة، منطق عملي غير مختزل إلى النظري. يوجد قليل من التقارب بين العقل المدارسي الذي يحبـذ العلل الخالصة، والأسس وفروق الجوهر-الجز الأول من الكتاب-، وتصور موضعي يفرض فك التركز نسبة لوجهة النظر "العلمية"-الجزء الثـاني. وإذا توجـب التفلـسف، فلـيس لزيـادة نظرية جديدة إلى السوق، وإنما لملأ مكان فارغ مع استنباط ما أمكن بدقة النتائج ما كـان قـد طرح حول الممارسة، الزمن والرأسمال والعنف الرمزي....

هذه الأناسة تتحدث عن ثوابت. نظرية الممارسة تظهر بأنـه لا يمكننـا الحـديث عـن العمل انطلاقا من بدائل المعرفة "العلمية": لما نحـاول، بوسـائل تفكـير اجتمـاعي، أخـذ مكـان العاملين، نصل بوكالة إلى علاقة عملية مع النفس، مع الآخر ومع الأشياء الـتي لا توضـحها جيدا أزواج التعارض مثل فاعل/ عالم، غبطة/ عاطفة وعقل/ حماس عقل/ أسباب... السلوك المعقول هو الذي اجتماعيا واقعي لكونه يحوي التلاؤم الممكن فعله، المخصص لموقع ومكانة معينة في العالم، وللاحتمالات الموضوعية المقابلة للنجاح: نتـاج إدمـاج البنيـات الموضـوعية،

الإنعواد هو في أساس المهارة والطموح المرتبطة بهذه المهارة. والعاملون يميلون ليكونوا واقعيين لأن رغباتهم هي مهما قال تقليد متأثرة بالرومانسية، متولدة عن المبدأ الذي يشمل وسائل تلبيتها. وهكذا يتوجب القطيعة مع الفكروية المدارسية وفي نفس الوقت مع المذهب الجزيئي الذي يتمثل في عزل فرد بإعطائه إدراكا وحساسية سابقة الوجود يفترض أنهما يتلاقيان مع حقيقة خارجية. الاستعدادات تعيش في توتر (لا يوجد تناغم معصوم) مع الحقل الذي يستدعيها ويحفزها ويعللها ويعطيها علل الاعتقاد وعلل التفكير ويجمع من يشارك في نفس الرهانات والذين لا يهم رأيهم.

في الرأسمال الرمزي، يمكننا أن نجد الثوابت التي تسمح بوصف كل رأسمال: يمكن أن يخصص حسب وحداته للقياس (أوسمة، شواهد، نبل...)، وحسب نمط إثبات قيمته (تقدير/ تحقير،) وحسب العقوبة (مراسم، عبادة/ نفي...) وحسب بنية توزيعه وسط الجماعة المعينة (جماعة الكتاب، جماعة أرباب العمل..) وحسب نمط إعادة إنتاجه (شخصي/ بيروقراطي...). ولكن هذا الرأسمال ليس محدودا بحقل محدد، يمتلك امتياز كونه عاملا في كل العوالم، حيث يتحقق تغيير القوة إلى معنى (معنى الأشياء ومعنى الموجود)، والاعتباطية إلى قيمة والسلطة إلى وضوح. امتلاك هذا الرأسمال هو التمتع بشكل من التفوق التي مع كونه يعطي غبطة التلاؤم مع ما هو جماعيا مشكور، يعفي بهذا ذاته التساؤل حول من نحن، حول ما نفعل وحول الغايات. الاعتراف يعطي أكثر من الاحترام المجامل أو إشارات مكرمة، هو يؤكد الاعتقاد المغذى في حقل وبخصوص قيمة الرهانات، اللعبة واللاعبين، شرط تواجد الفرد في مكانه، والعيش فيه بشكل سعيد وطبيعي. أحسن إستراتيجيات التراكم هي التي تعطيها حاسة التوظيف: علما بشروط التملك هذه الحاسة لم تكن في حاجة للمرور عبر الحسابات إذ أنها هي إلهام بالأحرى.

لقياس جيدا كل مل يحمله الرأسمال الرمزي، يجب الرجوع إلى الحالات القصوى لليأس الرمزي. هي تجربة عادية مثل البطالة، تؤدي إلى تعليق الرأسمال الذي يمتلكه عامل

(ن م: 262). غير أن الإقصاء على الأقل مؤقتا لقوة العمل لا يشعر به من خلال تقييم الموقع المحجوز في سوق العمل. لأنه ولو أن هذا الجانب ليس بغائب فإن آثار أخرى تذكر العاطل بحقيقة ظروفه. أن تكون عاطلا هو أن تحرم من هذه المسلمات المكونة، المندرجة في العلاقة مع الزمن. الترفيه المجبر يقطع الرتابة واليقين الذي يسكن: يقين بأن الأشياء هي للقيام بها حسب هرمية أسبقيات وأن ترقبات الآخر تعين ضمنيا الآجال. وهي البنية العادية للزمنية التي تهتز حينها: المستقبل، بضبابيته يتوقف عن كونه المبدأ الفعال الذي يسمح بتنظيم وتوزيع الانشغالات، واستباق والتكهن بالآجال الجديدة، وإذا بالتالي تعبئة الحاضر بغية إتمام الممكنات الأخرى. العطالة تبرز جليا الوهم الذي كان لحد ذلك أساس العمل، ومن ذلك يميل لجعل خارجي كل من يستمر في تقاسم الوهم، ويصبح تواطؤ الاستعدادات والاعتقادات عديما ومعرضا للخطر.

هذه التجربة لزمن أصبح في نفس الوقت فارغا وفائضا تضع على المحك الهوية الشخصية كهوية اجتماعيا معترف بها. كل حالة أزمة وفشل بتقليله الممكنات -سواء أكانت في سوق الزواج، السوق المدرسي أو سوق العمل-، تدفع إلى الإحساس بالعزلة لأن الذين كانوا يعدون وعليهم يمكن التوكل، شركاء، وأنداد، وزملاء بدا أنه لا يمكن الوصول إليهم، بعيدون أو لا يستجيبون. ولكن مفارقة فهذه العزلة نفسها التي تظهر السلطة من خلال كل حالات الحكم هذه هي التي تتحكم في العالم الاجتماعي. وننساها أحيانا لما تكون قريبة من الرؤية أو الكشف. التفرد الغير محدد للفرد يتم ويتقررعلى ما لا يحصى من المشاهد العامة حيث يحاكم أمام ما لا يحصى من المحاكم، على نسيان وزلات وانتهاكات صغيرة.

الرأسمال الرمزي، القياس النهائي للقيمة، هو من الاجتماعي الذي يمتلكه الفرد فيما يمتلكه من ذاتي، هذا التساؤل حول النفس والذي تربطه الديانات بمشكلة الخلاص: هو رأسمال علل الوجود.

بتلخيص يمكننا القول بأن هذا الرأسمال يؤدي في الأناسة التي يقترحها بورديو ثلاث وظائف. وظيفة أناسية خالصة: للخروج من غياب علل الوجود، البشر عليهم تملك تعليلات الوجود. إلا أنه في مواجهة هذا السؤال الشخصي كثيرا لعللهم، فهم أمام ليس وعيهم الخالص ولكن أمام نظرات عيون وأراء واحترام (وشواهد وطقوس) وهذا الرأسمال الذي هو سلطتهم النهائية، السلطة التي تأسرهم، والسيطرة والقبضة التي لا مفر لهم منها. بهذه السبل الخاصة، يلاقي عالم الاجتماع استغراب المثاليين. وليس صدفة لأنه خلافا للصيادين المعتقدين في حظوظ صيدهم التي يتحدث عنها باسكال، المهمة التي تشغل هذا العلم ليست تحفيزا على الصيد ولكن على فهم معتقدات ليست متشاركة، ولا يجب تقسميها لفهمها.

الوظيفة الثانية هي سياسية: علما بأن آليات تملك وتوزيع رأسمال تعليلات الوجود تساهم في النظام الاجتماعي، إبراز كيف تعمل وتتوزع السلطة الرمزية هو جدري بقدر ما أنه يؤثر على النبضات، الأجساد والوعي، كل ما يجعل الأفراد متواطئين مع النظام الذي يمكن أن يكونوا من المستفيدين منه أو من ضحاياه. وتاليا لا يمكن أن نجعل مرئيا النظام الاجتماعي من دون أن نشكك في العاملين أنفسهم فيما يعتبرونه مسلما أو مقدسا، وفيما في نظرهم يشكل وقتئذ كل قيمتهم. هذه النقطة يمكن أن تبرز أكثر من غيرها كل الفرق، الذي ليس فحسب منهجيا، بين علوم الطبيعة وعلوم الإنسان. الفرق راجع إلى واقع كون تخصص مثل علم الاجتماع يقترح معرفة تمس عقائد العاملين ومن هذا يعرضهم لجروح رمزية جذرية.

الوظيفة الثالثة هي بشكل ما لاهوتية. علم الاجتماع يلاقي بلا مفر مسألة تكهنية بارزة، وهي الأسس النهائية للقيمة والمعنى. وبعد أخذ العلم بتعدد مذاهب القيم التي تترتب عن تعدد الحقول، وحيث أننا ملكنا شكلا من البعد، إذا لم يكن تجاهلا نحو كل منها، نحن مدفوعون لتناول هذه المسألة بإنزالها من السماء إلى الأرض، حسب تقليد يعود على الأقل

إلي فيورباخ. السلطة العليا المؤهلة لإصدار الأحكام النهائية موجودة كقوة دنيوية في شكل الدولة. الضامنة للاستئناف النهائي، هذه المؤسسة النهائية التي يمكن أمامها عرض النزاعات، هي التي تحدد قيمة الحكام والأحكام، التي لا يمكن تجاهلها دون الدخول في احتجاج خصوصي، لا تأثير له بقدر ما أنه عاجز.

القول تبعا لفيورباخ بأن المجتمع هو الله، ليس تقريبا طريقة لتعويض اللاهوت بعلم اجتماع كاشف الحقائق. وهو فحسب طريقة التعرف على أنه فيما أبعد من الألعاب العديدو، يحصيها ويحللها والتي تحافظ على نفسها من ذاتها، فالعلم لا أساس له يكشفه. العالَم الاجتماعي يكتفي بنفسه لأنه يحوي الشرط النهائي لكل علل الوجود. ملاحظة قد ننزعج منها أو نتعجب. هل يمكن لعلم الاجتماع أن يكون علما معتمدا على فلسفة سلبية؟ (ن م: 15). فلسفة لا أدرية ومادية تفكك العالم الاجتماعي لكشف إلى أي حد تصل السلطة التي له على الأشياء وعلى العقول.

الفصل السادس

واقعية وطوباوية

عكس ما قد قيل أو أوحي به، لم ينتظر بيار بورديو التسعينات لاكتشاف السياسة. كيف كان يمكنه ذلك؟ أليست السياسة بوضوح مجالا جوهريا -والذي زيادة- لعالم اجتماع يرفض أن يؤسر في مجال تخصص (تربية، ثقافة، مجموعات اجتماعية...)؟ يكفي إلقاء نظرة على أبحاثه الماضية بداية من أقدمها لملاحظة أنه بتاتا لم يفهم الانشغال بتلبية المتطلبات الموضوعية العلمية كموقف منحاز يتجاهل القضايا السياسية.

من بين الأبحاث الأولى، هناك التي تمت في الجزائر المستعمرة حول العمل وبطالة الأفراد الموجودين في أسفل السلم الاجتماعي. ولا يمكننا القول بأنه كان سهلا، في تلك المرحلة، التجرد عن السياق السياسي، آثار العنف كانت حاضرة على الأفراد الذين التقي بهم ودرسوا، أغلبهم قرويون طردوا من أرضهم نتيجة التحولات الاقتصادية في الفلاحة بقدر ما كان ذلك نتيجة 'الأحداث'، وسياسة تجميع الساكنة تعمدها الجيش الفرنسي. الموقف الاجتماعي كان له نوع ما من الحدث الحالي واللا حالي في نفس الوقت: كان يفترض من جهة الاهتمام بالبؤس، المشروط تاريخيا، للضحايا ومن جهة ثانية أخذ بعد أمام الطارئ العاجل وعن الخطابات المتنافسة لتحديد وتعريف الواقع السياسي للحقيقة. لإنجاز علاقة معرفة وفهم، توجب على التحليل تفادي الاختيار بين الخطابات المكونة سياسيا. لأن تلك التي تتحدث باسم المستعمَرين كانت تشترك بشكل غريب مع منافستها -وقد برهن ذلك الزمن- الميل إلى تجاهل أو ازدراء أشكال اليأس الذي لا يتوافق مع الرؤى البناءة للتاريخ. الحديث عن هؤلاء الأفراد الذين لا يليق عقائديا تقديمهم كان في حد ذاته طريقة لإثبات وجودهم وإعادة الاعتبار لهم بإبراز المنطق المتلازم لعلاقتهم مع العمل، والزمن والعمل

الجماعي. زيادة، الانعكاسية التي حفزتها المواجهة بين البروليتارية الكادحة والبروليتاريا، تغطي بنفسها على مواجهة بين شكلي فضاء اجتماعي ترمز لهما الجزائر وفرنسا، وهو ما يؤدي لطرح مسألة الظروف الاجتماعية لإمكانية العمل التعبوي الجماعي. يعني أن العمل العلمي كانت له تبعات سياسية ولكنه لا يمكنها أن تكشف وتبرز إلا بلا شك بفضل تشكيك جذري حول قيمة الخطابات المعترف بها صراحة كسياسية.

ودارت الأعمال التالية حول الطلاب طبعا، الساكنة، والظروف الاستقصاء والتحري وكانت المشاكل المطروحة مختلفة. ومع ذلك يكشف البحث عن نفس التحفظ والاحتراس من الرؤى العقائدية السياسية المتعارضة التي كانت تشترك فيما تسكت عنه. في الحالة الراهنة، الكنبت الاجتماعي وسط الطلاب وبل زيادة الاحتمالات التفاضلية للنجاح حسب التخصصات والمسالك شكلت معطيات جد جديدة ومفيدة. تحليل لأنماط التفوق الثقافي قد اقترحت من خلال صورة طالب الأدب: فهذا كان يبدو أنه يقابل أحسن لما تفترض وتشجع المدرسة، علاقة مع العالم ومع الزمن متحررة من العجالة الشخصية، مجلوب على المتعة والثقافة الحرة، (هذا الطالب كان أبا أو ابن مثقف الذي سيوصف فيما بعد). وفي مرحلة حيث التقدمية السياسية والنقابية تتمثل في استغلال فقط الفوارق الاقتصادية لفهم فوارق النجاح في المدرسة، فإن تحليل الاختلافات الاجتماعية المؤسسة للعلاقة التفاضلية مع اللغة والثقافة لا يمكن إلا أن تولد عند كل من كان ينادي بدمقرطة دون الدفع بعيدا بالمعرفة الواضحة للحواجز، انزعاجا أو في أحسن الحالات فهما سطحيا يترك الاعتقاد بأنه يتعلق الأمر بالنضال ضد النخبوية والمزايا ... تحليل الفوارق الثقافية هذه والفوارق أمام الثقافة يشكك في الفرضيات الأكثر تقاسما حول العوالم المدرسية والثقافية: واقع ربطها بإنتاج الفوارق لحد ذلك الوقت كان يخمن فيه من خلال نظام مقادير كمية زمنية، الواقع الوحيد حيث يمكن أن يرى تفوق البورجوازية بلا إهانة للشرف الثقافي، كان يفرض تحولا حقيقيا في

الرؤية[1]. كنا مدفعين لقبول بأن المتعارضات الاجتماعية يعاد إنتاجها من خلال تواطؤ غير متعمد للشخص والجسد واللغة... وأن تكون بعض هذه المصطلحات قابلة للتصنيف ومصنفة اجتماعيا وإذا فإن الأشياء الثقافية، التي يمتلكها أسبقية 'الورثة'، وعاملو النظام المدرسي، والمثقفون، كانت تتطلب أن تقارب وتتناول من زاوية 'وظائفها الاجتماعية'. إن دراسة النظام المدرسي، التي تمت ضد تجريد 'المنظر' الذي يرتب 'الآليات' و'العقائد'، وفي نفس الوقت ضد تناقض حياد المناضل السياسي، يعطي إذا توضيحا لممارسة البحث في نفس الوقت مستقلا ذاتيا وقادرة على بناء والمساعدة، في ظروف مواتية في عمل إصلاح.

التعريف الجديد للمثقف

لن يكون صعبا توسيع التحليل وإبراز من خلال الأبحاث التالية، كم يتحدث العلم عن السياسة، ولكن بتعيين كبرنامج، إعادة النظر بشكل محسوس في التعريفات السائدة للسياسة، وفهم في ماذا توجد سياسة في الأشكال حيث لا يتعرف عليها فيها. بحث بورديو للإفلات من بديل العلم المحايد والعقيدة السياسية باقتراح سبيل أصيل يتخذ من العالم الاجتماعي موضع تحليل متحرر من كابحات وجهات النظر السياسية المكونة.

هذا السبيل كان يبدو كالمخرج الوحيد المعقول من المأزق المصادف،إذا لم يكن محفزا بتدخل العملي والنظري للمثقفين على الساحة السياسة. بعد عقود موسومة بتصورات عن الالتزام، بدا صعبا بشكل متزايد تحمل عبء المناول الفكرية التي أصبحت قليلة الإقناع لعدة أسباب، وخصوصا حول مسألة العلاقات بين المواقف الفكرية والمواقف السياسية. يكفي التفكير في الحالة النموذجية لسارتر كتجسيد لصورة المفكر الكامل: كان للفيلسوف طموح في أن يكون حاضرا على كل الجبهات، ولكنه لم يكن يمتلك إلا أسلحة تأمل فلسفي، فسلك

---

[1] يمكن أن نتعرف عن انشغال من هذا النوع عند بعض الكتاب مثل أدموند جوبلو وموريس هالبواش. ولكن منهجهم زيادة على أنه ليس دائما منتظما لم يتحرر كلية من بعض التقوقع الأجناسي 'العلمي' والثقافي.

مسلك التنظير، والجمع بلا حذر والتدخل في حقول تخرج عن مهارته واختصاصه، وإنجاز نوع من الانتداب الضمني إلى من يبدو أنهم يمتلكون سلطة خاصة، مع خطر الاعتماد بفعل خطأ تحديد فلسفي على منظرين إنشائيين ومناضلين و وصحافيين...ومن هذا بالضبط، فإن الفارق بين المثقف الكبير وحالة البحث في التخصصات الإيجابية لا يمكن إلا أن يتسع وأن يصبح منتشرا. فكان يتوجب إذا ابتكار خلال الستينات والسبعينات منوالا آخر أطلق عليه ميشال فوكو مصطلح المثقف النوعي. مثل ذلك المثقف يتحمل بطريقته إرث المثقف المستقل القادر على انتهاك الرقابة التي تفرضها السلطات من كل نوع ولكن لا يقوم بذلك بسبب متطلبات وهواجس وعيه كرجل حر. يتدخل ليقول علانية ما يسمح له علمه بزعمه وعلى علم بالأسباب ومتحملا نتائج تقسيم العمل الفكري، ويتوقف بقدر الممكن في حدود مجالات محدودة. التشتت الذي لا مفر منه للمهارات الفعلية يجعل المثقف لا يمكن إلا يكون كشخص أخلاقي، مثقف جماعي، الذي يلزم بترك صور الشجاعة و/ أو النرجسية لصالح ربح سمعة وفعالية. يتعلق الأمر هنا بمعنى ما بفكرة منظمة تسمح بتعبئة مستقلة وعقلانية[1].

غير أن هذه التعبئة تصطدم في الحقيقة مع حواجز عدة: رقابة ذاتية المفكرين المترددين في مواجهة حلبة خارجية، والتي عملها يتجاوزهم في جزء كبير؛ اختلافات في إدراك الاستعجال، في تعريف الرهانات؛ أنانية وحساسيات متنوعة؛ غموض حول المرميات الداخلية، المتولدة عن اغتصاب لافتة المثقف، أساسا في الصحافة.... وخارج كتاباته، عمل بورديو، بقدر مستطاعه، بغية تشجيع عمل جماعي للمثقف حول عدد قليل من الأهداف المشتركة. يمكن أن نذكر مجلة Liber التي تحولت بعد حوادث إلى ملحق لمجلته في علم الاجتماع، والتي كانت تجدّ ليس لجمع أسماء معروفة -وهو ما لم تكن تتمنع عنه- ولكن

---

(1) عد إلى

Gérard Mauger, "L'engagement sociologique", *Critique*, n° 579-580, 1995, 674-676; L. Pinto, "Une sociologie militante: l'engagement politique de Pierre Bourdieu", *Regards sociologiques*, 2001/22, 67-79.

مراكمة التجربة والمهارات الفكرية الفرنسية والأجنبية لتقديم جواب واضح ومتناسق على الرقابة الفكرية الخفية أحيانا والمفروضة على الإنتاج الثقافي بواسطة السوق والصحافة والنشر. ولكن خارج هذه الأمثلة، من المؤكد إن المجهود لتحويل تصور الدور العمومي للمثقف يفترض عملا طويل النفس. وسائل الإعلام تعشق الأسماء الكبرى، تبحث عنها وإن انتقدت لا حقا ظهورها... الإعلامي. وهكذا تمكن بورديو من الرجوع إلى منوال المثقف الجماعي وأن لا يتردد في بعض الحالات (دسمبر 1995) في تبوأ موقع ناطق باسم، موقع أصبح حقا الوحيد القادر على تحمله عبئه.

وإذا كانت السياسة دائما حاضرة في الطريقة التي فهم بها بورديو العمل العلمي (أعطيت بعض المعالم وسأعود إلى مضمونها بالتفصيل) ما تغير في ثلاثة عقود هو كيفية التدخل في المجال العام وهو ما لا يمكننا فصله عن الظروف العملية. لتوضيح هذه التحولات يجب من جهة القيام بدراسة، يعطينا بورديو وسائلها، تحولات موقع بورديو في الحقل الفكري، تحولات نفسها معتبرة في علاقاتها مع الحقل الثقافي وتغيراته. ما هو موضع التساؤل ليس فردا، هو العلاقة بين أنظمة العلاقات والتي هي نفسها خاضعة لمنطق وزمنية خاصان مع من جهة الفرص الموجودة في فضاء الممكن الفكري ومن جهة ثانية الأوراق الرابحة التي يملكها العاملون المتفردون. يتعلق الأمر إذا خلافا لبعض معارضي بورديو، بتفادي استعمال منهج نفسي. وذلك ما هو بدائي بمكان. الانبهار الذي تكشفه ضراوة الشجب يصاغ مفارقة عند "علماء اجتماع" في نفسانية مريبة ومقترة ونتائجها حددت سلفا (حب السلطة والمجد ووسائل الإعلام...). وهنا مادة لعدة دراسات قادمة، ولذلك نكتفي هنا ببعض الاقتراحات.

بين فترتي مسيرة بورديو، فرق ثلاثين سنة (بلا دخول في تفصيل المراحل بدقة)، ما تغير هو حالة الحقل الذي يتحكم في طبيعة وهرمية المشاكل المطلوب معالجتها والمواقع المحجوزة في الهرميات الثقافية، وفي نفس الوقت الممكنات والقدرة على التأثير فيها. وهكذا

ففي أواخر الستينات لم تكن التوقعات الثقافية مواتية كثيرا لمنهج علمي يجمع مساوئ واقعية موضوعية بسيطة مع مساوئ انعكاسية فكرية، مولدة لخيبة الأمل. في تلك الفترة؛ كان بورديو يبدو مشغولا ليس بالنظرية ولكن بالمواضيع التجريبية البحتة: المدرسة، الثقافة، الكتاب. الدراسة الاجتماعية لعمل المدرسة وورثتها أدت إلى تشييئ إذا لم يكن تجاوز المناول السائدة للتفوق الثقافي. وأظهرت الأبحاث الأولى في الحقل الثقافي أن هذا الحقل يجب أن يخمن في كنف ما قد كان يسمى "حقل السلطة"، وأنه يتوجب تمييز أشكال الرفض ضد المهيمنين حسب ما إذا كانت متأتية من خارج حقل السلطة أو من داخله، كانت أفعالا سياسيا لتغيير الواقع، نابعة من المهيمن عليهم، أو بالعكس من العمليات الرمزية لإنكار الواقع، نابعة من شرائح مسيطر عليها في كنف المهيمنين. علم الاجتماع الحقل الفكري كان، بعد كل شيء، طريقة تشكيل كقضية وموضوع "الجذرية" التي ينتحلها الكتاب، عموما بموارد تقريبا محصورة في رأسمالهم الفلسفي. لمثل تخصص مهيمن عليه كعلم الاجتماع، - ولكن مع ذلك ذي طموحات كبيرة لهذا التخصص- الملح لم يكن تقديم مساهمة نضالية في الصراعات التقدمية ضد الرأسمالية والإمبريالية، المتيقنة من مساعدة قوى أخرى، كان الملح هو ضمان وتقوية السمعة العلمية لمشروعه. والانتخاب في الكوليج دو فرانس (1981) كانت مرحلة من هذه المسيرة.

وتدريجا، توسعت شهرة بورديو إلى ما أبعد من حلقة المتخصصين والباحثين. ولكن خلال ذلك الوقت، لم يعد المجال سواء الثقافي الفكري أو السياسي على حاله. فقد شهد المجال خلال التسعينات كل أنواع التغيرات بداية من تغيرات فضاء التمثيلات السياسية، تغييرات ساهمت في تغيير بشكل ملموس طريقة تصور الملحات، وطرح القضايا، وتصور خط فكري: توجب إعادة تحديد كل العلاقة مع المجال العام. يمكن أن نحاول بعجالة ذكر هذه الظرفية الجديدة. خلافا للمراحل السابقة ضعفت مواقع المثقفين المستقلين المناضلين ضد السلطات (موت فوكو 1984) أو هجرها المرشحون المحتملون. وذلك فعلا، بديل لهذا

التقليد القديم، تم بتأثير مزدوج لفعل الأزمة الجامعة والهيمنة المتزايدة لوسائل الإعلام. تدني النظام الجامعي خلط المعالم وشجع الشذوذ الفكري، وكان له أثر تشجيع تطلعات عديد من المرشحين الثقافيين المخيمين على عتبات الحقل والذين امتدح الصحافيون إنتاجهم وهو ذوو مسيرات شبيه في الغالب. يجمعون كره فكرويا مضادا للعلم (الكلياني، والكلي، الحتمي) ونشوة تجسيد منوال جديد محرر من الرقابة والتصنيفات التي تجعلهم يولولون حين نذكرهم بالرقابة[1]. مثقفون على الطريقة الجديدة، تحالف صحافي وخبير وفيلسوف، وبينهم قدماء يساريين تائبين، يرفضون علانية منوال المثقف النقدي، معتبرين أنه قد مضى زمنه وأنه مع "نهاية التاريخ" الذي يرمز له سقوط خط برلين ولم يعد له حسبهم علة وجود. عوض اقتراح اعتباطيا طوباويات (تنتهي إلى الكليانية والسجون الجماعية). من يفترض بأنهم مثقفون هم من الآن فصاعدا مدعوون لفهم والعمل على غرس حب صيرورة الأشياء التي من أعمدتها السوق والديمقراطية، اللتان يتوجب حسب البعض إتمامها بالانضباط الذاتي للأخلاقيات المدنية. ويجتهدون لزيادة أبعاد ثقافية واجتماعية إلى الليبرالية التي أصبحت هكذا ليبرالية فعالة وخفية، تعطى بلا مخدر. هؤلاء المفكرون يتحملون ما كان لحد الآن يبدو غير متصور وغير مقبول للكثيرين: التعاون العضوي مع السلطات من كل نوع، السياسية والاقتصادية والإعلامية التي يمدونها بنصائح (تقارير حكماء)، وعطاء نظري حول التحديات والتحولات، تماما دعاية سياسية. في نفس الوقت، أحزاب اليسار التي تعرضت مبادئها لزعزعة بسلسة محن مثل رئاسة ميتران، التحول إلى الواقعية الاقتصادية، تدنت قدرتها على ملأ وظيفتها التقليدية في المقاومة العقائدية. خاضعة للتأثير المتزايد للثقافة الاقتصادية والسياسية للخبرة، والمنظرين والناطقين بلسان الحال أدت بهم إلى إنكار، وأحيانا بتكالب، المناول الفكرية التي تعيق عملهم الإصلاحي.

---

(1) حول هذه القضايا عد إلى بنتو، الفضاء العام كبناء صحافي كتاب الزوايا في الصحافة المكتوبة،
"L'espace public comme construction journalistique. Les auteurs de "tribune" dans la presse écrite", *Agone*, 2002/26-27.

ونرى لماذا يصبح التزام بورديو أكثر فأكثر محتملا. اختيار الحقول وطريقة التدخل هي معبرة، وكذلك الصمت المتعمد حول مواضيع تشغل كثيرا من الناس. لأنه إذا كان قد عرض نفسه للانتقاد فقد كان دائما محترسا من التزام يختلف مع اختياراته الفكرية الأساسية.

في الحالة الجديدة للحقل، ليس للمثقف حقا الاختيار بين الصراعات الداخلية التي يتطلبها الدفاع عن قيم الاستقلالية الذاتية والصراعات الخارجية في الحقل المسمى سياسي، طالما أنها تتبادل بينها. تدخله في الفضاء العام لا يمكن إلا أن يكون في نفس الوقت فئويا وكونيا لأنه يتعلق الأمر بالمحافظة على رأسمال فكري لا نقاش فيه لإسماع علانية، ودون كثرة تشويش، أفكارا اجتماعيا مهمة وفكريا ذات أساس. بيار بورديو لم يكن بالطبع المفكر الوحيد صاحب كلمة في الموضوع موجهة إلى ما نسميه الرأي العام. ولكن لا محيد بأنه في منطق تعبئة، أن يعين في وضع الناطق بلسان الحال الشخص الذي في المجموعة يمكن أن يبدو كأبرزها[1]. في ظرفية تخوف وصراعا كما في ديسمبر 1995، قليلا بعد صدور كتاب بؤس العالم، هل يتخيل بعد كل هذه التحليلات للعذابات الاجتماعية والأمراض الخاصة (السياسية، والثقافية والصحافية) أن يرفض دورا كل يدعوه لتحمله؟ يمكن أن نبرهن أن ما قال لم يكن يختلف عن تصوراته الخاصة المتعلقة بالعمل العلمي ووظائفه الاجتماعية والسياسية، وظيفة المفكر الأصيل. مثل تلك التصورات يمكن أن تنتقد ولكن شرط معرفتها وعدم الاكتفاء بتلميحات المجلات الإخبارية.

في ديسمبر 1995 بيار بورديو اتخذ موقفا علنيا لصالح حركة اجتماعية، مضربو القطاع العام، لدرجة أصبح فيها قبالة خطة الوزير الأول جيبي (إصلاح التأمين الاجتماعي) الشخصية الفكرية المهمة في خط المقاومة. الوزير الأول كان يمكنه من جهته، الاعتماد على دعم الخبراء والصحافيين ومنظري المجلات وبل وعلى الفلاسفة البحث ....قليلا فيما بعد، في 1996، ينشر بورديو كتابا حول التلفزة، أول كتاب من سلسلة "دواعي التحرك"، سلسلة

(1) الاعتراف بهذا هذا لا يعني الالتزام بطرح نظريات لهذا المفكر (ليس أكثر مما كان سابقا في حالة سارتر أو فوكو).

تصورها وسيرها بنفسه ولها خصوصية العمل خارج شبكات النشر الموجـودة: الكتـب الـتي تهدف لقرن العلم بالنضال، قصيرة، دقيقة، وتباع بثمن بخس، شرط التوزيع الواسـع. إلا أن نجاح السلسلة، المشهود خلال سـنة 1998، كـان كـبيرا، رغـم غيـاب الدعامـة الـصحافية، لدرجة أنها فاجأت وأزعجت مهنيي وسائل الإعلام والنشر.

هذه أمثلة للتدخلات الحديثة لبورديو خارج الحقل العلمي. أقل ما يمكـن أن نقولـه أن هذه خلقت ردود فعل حادة، وبل بصراحة مدوية، ودون مقارنة مع ردود الفعل الـسابقة على كتبه وكذا على مواقف علنية. في فرصة الدخول المدرسي خريف 1998، وضعت حملة صحافية بورديو تحت أضواء الحدث[1]. وإذا صدقنا أغلب كتـاب المقـالات، والمـدعوون إلى النقاشات في الإذاعة والتلفزة، هذا الأستاذ في الكوليج دو فرانس اندفع في الحقـل الـسياسي لإشباع أهواء شخصية أو مهنية. مـستغلا شـهرته (الإعلاميـة يقـول الـبعض) ولا يـتردد في استعمال الطرق الإرهابية، مدعوما بشبكة واسعة، ولم يفعل شيئا رغـم إدعائـه إلا التـصرف كرجل حزبي أو طائفة. إلا أنه ليس فحسب العمل العلني قد يكون موضع جدل لكونه يديم تقليدا أصبح متقادما وطوباوي في عالم يواجه تحديات وتحولات لا سابق لهـا ولكـن يـضيف البعض الأكثر جرأة يدفع للتساؤل حول متانة العطـاء العلمـي للأبحـاث. انقـلاب عكـسي: المفكر الذي سار بعيدا في التكفير حول انعكاسية الحقل، وربما الأكثر حذرا في الاستعمالات وحدود المعرفة قدم كسلطوي ومتقوقع على العلمية ...

هذا هو نقاش 'بورديو والسياسة' وقد اختزل إلى حججه الأساسية. وقد نتعـرف فيـه على هذه الترسانة القديمة نسبيا من إقصاء المفكر، التي بالضبط استعملت لما في أواخر التاسع عشر بدأت تتشكل صورة اجتماعية جديدة. فهـم ليـسوا بورجـوازيين عمومـا وإنمـا أفـراد،

---

[1] دراسة الصحافة قد تحدد في جهة في هذه الحالة كانت 'السلطة الرابعة'، وإلى أي حد 'المفكر الأكثر سلطة في فرنسا' (حسب مجلة) نجح في خنق كل الانتقادات ضده أو ربما -من يدري؟ فجرها ليسمع الناس به.

قريبين منهم في حضن العالم الثقافي (قصاصون محمليون وأكاديميون...)، الذين يستنكرون من بدؤوا يسمونهم بعداء "مفكرون": حملة التعريف البرجوازي للتفوق الفكري، هؤلاء المنتجون الصغار الأحرار أحسوا أنهم في خطر بتقدم تقسيم العمل والذي كان علم الاجتماع الجامعي أحد ظواهره. فليس غريبا إذا أن نتعرف في الهجوم ضد عالم اجتماع الذي ينتمي إلى عائلة المفكرين، على بعض الثوابت. في عمل سابق، كنت قد أظهرت مثلا بأن إقصاء المفكر كان له وجهين. وجه فكري: المفكر لا فكر له آخر إلا فكرا مجردا الذي يكن به إلى العلم، والمدرسة وبالتعارض مع الفنان الملهم ذي الإحساس ومعنى التفرد والتوضيح. جانب سياسي: المفكر يتدخل فيما لا يعنيه؛ مهووس بحب السلطة، ويحلم برؤية العلماء يحكمون ويسودون. الكونية التي يدعيها ليست إلا اغتصابا مزدوجا تخفي ادعاءات كبيرة.

لا يتعلق الأمر هنا بإعطاء مساهمة من أي نوع ولا أجوبة على الهجوم ولا تحليلا اجتماعيا علما أنه ضروري للشقوق العقائدية والسياسية والثقافية المضمنة. موضوع حديثنا هو بالأحرى توضيح الحيثيات الفكرية لمواقف بورديو محاولين تدقيق تصوره للعلاقات بين العلم والسياسة. ولهذا يجب النجاح في حل عدة أسئلة: هل يسمح تحليل علمي على العالم الاجتماعي باقتراح تصور للسياسة لا يكتفي بأخذ بعين الاعتبار الفئات الأهلية النابعة من الحقل السياسي؟ هل يترك مكانا لعمل التحول؟ هل يوحي بطريقة أخرى للعمل السياسي؟ وإلى أي حد يمكن أن يخرج عن اعتباطية المواقف الذاتية أو المتحيزة الفئوية ؟ هل يجب اعتبار العلم كمحايد اجتماعيا عديم الفرضيات المعيارية؟ وبأي صفة يمكن لعالم اجتماع اليوم الادعاء بانتمائه لتقليد، تقليد مثله سارتر وآخرون؟ هذا التقليد هل هو تاريخيا متقادم مرتبط بخصوصية فرنسية؟

عقل وتاريخ

انطلاقا من كل ما قيل في الفصل السابق حول طبيعة النظرية الاجتماعية، يمكننا بسهولة فهم أن نظرة العلمية إلى العالم الاجتماعي التي يقترحها علم الاجتماع يمكن أن تخيب آمال الخلاص الاجتماعي التي عادة ما تولي اهتمامها للدين أو السياسة. وفعلا عالم الاجتماع ليس له،على طريقة نبي، رسالة شاملة يقترحها لتأويل معنى الوجود وهذا العالم. فهو يمنع عن نفسه السهولة التي تتمثل في وضع في المقدمة قانونا متلازما ينقل إلى حيز الواقع تبعا لضرورة الأشياء، حدوث حقيقة ما فوق طبيعية أو وعود نزول المسيح. بل وليس عليه اقتراح صيغة لتعيين بملخص جوهر مرحلة (حسب المنوال الثقيل "مرحلة كذا" و"زمن كذا" و"مجتمع ...").

النظرة العلمية التي يمكن أن تبدو باردة شيئا ما لمن يبحث في كل مكان وعاجلا عن حرارة ضمائر محاورة، لا تهدف إلى إسعاد ولا تقويم. وهل يمكن تكون شيئا آخر؟ يحاول بورديو الجواب مسايرا منهجه الاجتماعي المبني على أسلوب انعكاسي ونقد للأوهام المنهجية والتنبؤية. يمكننا العمل منهجيا على أنظمة مواقع نعرف خصوصيتها الأساسية لأنه يمكننا من خلالها مقاربة الجوانب الأكثر حسما وكذا استعدادات من هم مدعوون لأخذ هذه المواقع أو شروط إعادة الإنتاج هذه الأنظمة. ولكن لا يمكننا إلا الامتناع عن استعمال القوى الخفية التي تعمل عن بعد منشطة بحركة وحيدة المجتمع ومرحلة ... وكذا ذلك الشكل الآخر من الاستقالة الفكرية الذي يتمثل في طرح أن العالم الاجتماعي لا يمكنه أن يتحرر من هيمنة الطبيعة والحتمية للدخول في زمن الخلاص والحرية، عالم الاجتماع يصبح مرشد ودليل إرادة جماعية وواضحة للتغيير. أمام انحرافات التعاطف والعاطفة الاجتماعية هذه، يجب التذكير بقاعدة دوركهايم المتعلقة بأسبقية التحليلية للبنيات على التمثيلات، على العواطف وعلى القيم وموضحة بمبادئ من قبيل "العائلة تفسر المشاعر العائلية وليس العكس" (يمكننا بالتأكيد تعقيد الصيغة ولكن ليس إبطالها تماما). لا يتعلق الأمر بالقول بأن البنيات

تعيد إنتاج نفسها عشوائيا ولا بأن العاملين لا يفعلون إلا خدمة الوظائف الاجتماعية لإعادة الإنتاج، ولكن التأكيد على أن عمل حقل، نقطة الانطلاق لتحليل، يرتكز على تصنيف وهرميات تشجع بلا انفصام قيم وفضائل والعاملين الأكثر ملاءمة مع هذه القيم وأصحاب هذه الفضائل. الحقول والتي في كنفها يمكن وصف أغلب الممارسات، تتسم بخصائص عامة التي تتعلق بأفضية متميزة مثل حقل الصحافة: لها تشكيل نابع عن درجة استقلاليتها النسبية وتميزها، عن عدد المواقع وعن طبيعة العلاقات بين هذه المواقع، وهي متأثرة بآثار عضوية (نمو، تراجع، توزيع العناصر و دورة الحياة في الحقل، وازدحام...)، وهي محل الصراعات الدائرة من أجل تملك فضاء الرأسمال، لتحديد الخصائص والتحكم في العناصر. الصراعات الماضية توضح بالتوجهات المتدرجة في لحظة معينة في عمل الحقل ولكن لا شيء يسمح بطرح على الطريقة الهيجيلية قانون كوني لتقدم الحرية ولا رجعية التقدم. حسب الحالات، حالة الحقل يمكن أن تكون مواتية إما للاحتفاظ بنظام مفيد لعدد قليل من المواقع يهدف حصرا ديمومتها وإما على العكس إلى تشكيك في الهرميات التي كانت لحد ذلك لا تجادل، ولتقدم في الانعكاسية الجماعية في المعرفة.....

في ملاحظة عرضية خلال جواب على سؤال حول العلاقات بين الحقول والطبقات، كان بورديو مدفوعا لتوضيح ما تشبه له الصورة العامة التي يمكن أن تقترح عن العالم الاجتماعي: "وأكثر فأكثر (...) أرى العالم الاجتماعي كمتحرك/ متحول كالدير حيث يوجد نوع من العوالم الصغيرة تتحرك الواحدة نسبة للأخرى في فضاء ذي عدة أبعاد"[1]. لوحات المتحرك/المتحول مرتبطة بينها بمحور وبتشعب وفروع أو ببساطة بخيط رخو، وإذا تحركت جميعا في نفس الوقت بعد تغير توازن حاصل في نقطة واحدة، هذه الحركة لها على كل منها تأثيرات مختلفة ناتجة عن موقعها وشكلها وثقلها .... لنسجل بأنه ليقابل أحسن

(1) "Questions à Pierre Bourdieu", in G. Mauger, L. Pinto, *Lire les sciences sociales*, 1980-1992, vol. 1, Paris, Belin, p. 323

المنوال الاجتماعي، يجب أن يتضمن المتحرك إمكانيات أخرى عملية: تغير حجم وكثافة لوحة محدد بتفككه إلى عديد من اللوحات[1]، تغير عدد اللوحات... ودون تناسي السياق الشفوي للتواصل يمكننا الاحتفاظ من المقولة بعدة اقتراحات. المتحرك ليس منظما بوحدة مقصدية أو معنى: التجميع الوحيد الممكن هو المعرفة العلمية لمجموع النقط وليس الوعي الذي يكشف أهداف نهائية. ولا يمكننا اختزال عالم صغير إلى عالم آخر. كل منها ولو كان صغيرا جدا يفرض لعبته ورهاناته وعقائده وكل يعمل حسب منطق داخلي ليس في خدمة أي مشروع. وثانيا العلاقات بين هذه العوالم قابليتها للوصف في فضاء ذي عدة أبعاد، هي تلقائية (أفعال، تفاعلات...) أو بنيوية (نظام، موقع، تناظر...): ولن ننتظر من علم الاجتماع فلسفة للتاريخ[2]. وتتمثل الواقعية في أخذ العلم بالحركات (تغير و/ أو احتفاظ بالوقائع النسبية، حالات حرجة لفقدان التوازن) التي تؤثر في هذا المتحرك/ المتحول العملاق. العالم الاجتماعي، الذي يقترحه كالدير بعيد أميالا عن التصور الهيجيلي للحوار بين الفلسفة وروح العالم، ويمكن أن يرى كتشكيل متحرك/ متحول ومضبوط من عديد من المشاهد حيث تحصل الأفعال، والاستراتيجيات أو الصراعات، والتي تفكيكها لا يسمح بطرح وجهة نظر المجمعة الموحّدة لكل وجهات النظر الجزئية. يجب إذا دراسة كل لوحة في حد ذاتها محاولين تحديد كيف أن التقسيمات الداخلية بين المواقع، خصوصا بين تلك التي هي للمهيمنين المجلوبين على التقليد ومواقع المتنافسين المبتدعين، تساهم في إعادة إنتاج الوحة أو في تحويلها المنظم. ولكن يجب أيضا القبول بأنه بين هذه الفضاءات يمكن أن توجد إمكانيات تنقل وعبور وتحول درجات يمكن علاوة أن تحدد. وفعلا، لإطالة أو تحسين

---

(1) لينير كان يدعو إلى رؤية في كل قطرة ماء بركة.

(2) بعض التعليقات يمكن أن تأخذ علما بهذا المقصد النظري مع التشكيك بكون العلم الاجتماعي قد وصل إلى التحرر من كل منظور من نوع فلسفة تاريخ؛ عن تحليل من هذا النوع عد لكاترين كوليو تيلين، Catherine Colliot-Thélène, "La sociologie réflexive, l'anthropologie, l'histoire", *Critique*, n° 579-580, august-sept, 1995, p. 631-645.

موقعهم النسبي، يمكن للعاملين أو المجموعات تنويع الفضاءات الحاضرين فيها، مضيفين مثلا حقلا مدرسيا إلى الحقل الاقتصادي لما يبحثون عن الحصول على الشواهد المدرسية زيادة على الأملاك العقارية والنقدية. إستراتيجيتهم في إعادة الإنتاج التي تحرك الفضاءات المعنية والعلاقات بين هذه الفضاءات هي توسط أساسي لفهم التغيرات في البنية العامة لهذا المتحرك/ المتحول الذي هو الفضاء الاجتماعي. إلا أن ضرورة الإمساك بشكل الكل ليست بتاتا متناقضة مع الانحياز للأخذ في الاعتبار الحركات انطلاقا من وجهات النظر الجزئية للعاملين: لأنه إذا كانت الفردية والجماعية لها أثر ينتشر إلى مجموع النظام، ففي أية حال لا يمكن القول بأن هذه الآثار هي مختزلة إلى مشروع قصدي.

هل يجب استنتاج أن العلاقات الموضحة بين العاملين، والمجموعات والحقول هي الأفق الأقصى لكل تحليل؟ وأنه بالتالي فإن النظرة الاجتماعية غير منفصلة عن تصور نسبي يتمثل في أخذ العلم بتعدد وجهات النظر دون مواجهتها مع معيار خارجي؟ في هذه النقطة، كان بورديو ملزما برفض البديل الضمني: إما العقل أو التاريخ، أو ضرورة المعيار أو التلازم الفعلي. الكوني والكونية يجب أن تعتبرا كنتاج متلازم ومشروط للتاريخ، لتاريخ تجريبي ممكن، وليس كقيم متعالية تنزل من السماء بفعل خلاص غريب. (أجوبة: 162؛ تأملات: 111). يجب القول في نفس الوقت بأن كل الحقل، كمحل للمنافسة على الرهانات الخاصة، تمتلك عددا ثوابت مشهودة وأن إمكانيات الخروج من منطق المنافسة البحتة موجود تحت بعض الشروط. الدرجة التي يخدم بها العاملون المصالح التي لا تستنتج فقط من موقعهم تتغير. لما تكون الرهانات هي كما في حالة الحقل العلمي لا يمكننا المساهمة في اللعبة إلا باستعمال موارد محددة التي تفرض استعمال تحكم جماعي على شكل مراقبة عمومية، ونقد معلل، وذاكرة مبنية ومنتقدة، العاملون بقدر ما هم مهيئون كونيا أكثر بأخلاقياتهم الخاصة منه بآليات غير شخصية لعمل الحقل. وبالصراع من أجل الحصول على اعتراف بموقع في الحقل فالعاملون هم أسرى وهم الحقل وبكل ما يفرضه كجدولية وبرامج عمل خاصة

ونقاشات... واعتقادهم وهو جانب أساسي في مهارتهم الخاصة وبواسطته يمكن أن يكون الانتماء لحقل ممكنا ويتجلى. حيلة عقل: حماس البرهنة والإقناع والرفض والانتصار، بتلخيص حماس مسايرة الحق تملك الحق هو ما بإمكان العقل أن يتقدم به بفضل مسار متلازم للتنافس الذي لا علاقة له بعناية إلهية هيجيلية. وهكذا ففي الاستعداد للكوني ليس متناقضا مع الإستراتيجيات التي تفترض كل الحقل: إذا كان الاستعداد في بعض هذه العوالم يبدو قليل الاحتمال، لأن البحث المتعمد والمنظم عن المصالح هو جزء من اللعبة، ففي عوالم أخرى على العكس هو في نفس الوقت مفترض وأثر. الاستعداد للكوني هو متغير يسمح بتحديد مكان في حقل الواحد نسبة للآخرين، وفي كنف الحقل المعين، المواقع والعاملين الذي يتبوءونها الواحد نسبة للآخرين (تأملات: 130؛ علم العلم: 141).

نتاج تاريخي، العقل هو رهان يرتبط في جزء كبير منه بفعل القوى الاجتماعية. وكما يفعل غالبا مع البدائل المفهومية، يبرز بورديو أن الاختيار بين مختلف أنواع المصالح، مصالح دنيوية ومصالح روحية، ليس بديلا نظريا يتوجب على عالم الاجتماع حسمه ليكون متوافقا إما مع الكونيين وإما مع المتكالبين: هو توتر داخل الحقيقة ذاتها. وهكذا أحد الدروس الأساسية للتحليلات حول الكونيين التي جاءت في الإنسان الأكاديمي كانت استحالة عرض كل المجموعة على معايير شكلانية متشابهة (سمعة، سلطة مؤسساتية، ومهارة علمية...). فكل معيار يحوي تمثيلا لا يمكن أن يحدد مكانه في منطقة معينة من الفضاء المعتبر. وبتجاهله نخاطر بضم جز من ساكنة المجموعة إلى الهرميات التي تفرضها أجزاء أخرى، وفي هذا الحالة نخاطر بفرض على حساب الآخر هرمية مبنية على السلطة الفكرية خاصة أو هرمية مبنية على سلطة المؤسسة وإذا أن نخطئ في فهم ملائم - اختزل- للفوارق العميقة بين الإستراتيجيات الموجهة نحو البحث، نحو تراكم المعرفة والإستراتيجيات الموجهة نحو اعتراف المؤسسة، نحو الشواهد، نحو المسارات المهنية بالمعنى النبيل للكلمة. الحقول نفسها كانت مقسمة بمعارضات معرضة إلى الخطر حدودها وتعريفاتها، ويترتب عن ذاك أن الجزء الكوني

الذي تحوي أو تنتج مرتبط بتاريخ، هو تاريخي. لا حتمية الأسوأ ولا غائية الأحسن. الحقل العلمي يمكن يعرف تراجعات: مثلا في فرنسا مكاسب دوركهايم غذت روتينية ثم نسيت أو أنكرت لما فرضت نفسها بعد الحرب رؤية ضد التنظير تعطي قيمة للعمل الميداني دون تجهيز فكري ثقيل[1]؛ في ألمانيا في نفس الفترة التجريبية من استيراد أمريكي عوضت تقليدا اجتماعيا هو تقليد ماكس فيبير وسومبار Sombartوترولتش Troeltsch وإلياس Eliasالذي يتصف بأخذه في الاختبار منظورا تاريخيا. الحقل الصحافي بالعكس ليس محكوما عليه بحتمية وقدرية بحث عن ربح، عن الإثارة وإثارة الجدل: يمكن أن توجد بعض المواقف المواتية للتقصي والوصف الصحافي وعمل مهني قد يجسده عليه كثير من علماء الاجتماع. (يميل استعمال كلمة "صحافي" و"وسائل إعلام" في نسق منطق جدلي إن يغدو وصمة عار. ودون إنكار أن بورديو أحيانا ككل الناس قد استعمل هذه المصطلحات وكذا أخريات بهذه الطريقة (مثقف وفيلسوف...) تستعمل في منطق نموذج مثالي وتستعمل لإظهار من خلال أطراف القوى الميول المتلازمة لحقل ينغلق حول رهاناته ذاتها ومعتقداته).

إذا كانت اللعبة نسبيا مفتوحة (في حدود القيود البنيوية المذكورة)، من الممكن وبلا شك من الضروري رؤية في بعض العوالم، كالحقل الفكري والعلمي سياسة عقلانية للعقل. ما يقترحه بورديو تحت مصطلح الواقعية السياسية للعقل Realpolitik الغريب نوعا ما (ربما يستحسن لو اختار مصطلحا قانونيا أجمل كانطيا) هو ليس شعار متكالب. هو نتيجة عملية مباشرة لتصور يضع في المقدمة التاريخية الجذرية للعقل. هذه السياسة التي غايتها الاحتفاظ بمتطلبات الاستقلالية الفكرية، واقعية دون أن تكون لا أخلاقية لأنها تجتهد لأخذ بعين الاعتبار فضاء الممكن وبالتالي إدخال اعتبارات الفرص والطوارئ في عوالم كانت العادات المدارسية ميالة لتصورها من زاوية الهيمنة المجانية والترفيه وحرية التوسط. طبعا

---

(1) هيلبرون "Les métamorphoses du durkheimisme, 1920-1940", *Revue française de sociologie*, vol. XXVI, n°2 avril-juin, 1985. "

بورديو يعتمد على المكتسبات الفلسفية والعلمية بداية من أخلاقيات الانعكاسية التي تريد أن يراها نهائية، ولكنها لكونها معرضة لقوى متناقضة هي دوما تتطلب إعادة تعريفها بالملموس في ظرفية معينة.

نظام العالم

النظرة الاجتماعية لا تطرح قانون نخبة لا يرحم "لإعادة الإنتاج". هذه الكلمة غالبا ما يستعملها بورديو بما في ذلك في عنوان كتاب، تخيف لأنها توقظ مجازات وكنايات أحيائية أو ميكانيكية: نفكر في شيء كمقطع لا يتوقف تكراره في حين أن استعمال الكلمة أكثر مرونة وموسع ولا يهدف إلا إلى تشجيع التعرف على الثوابت على شكل خصائص أو علاقات متواترة. مثلا بين طبقات وتصنيفات، بين تصنيفات (اجتماعية ومدرسية، مدرسية و"علمية"، اجتماعية و"علمية"....)، من الممكن تحديد هوية التعرف كما يفعل الأجناسيون ميدانيا على تناظر بنيوي وافتراض أن هذا يمتلك وجوده في حد ذاته من شكل فعالية خاصة غير السببية. لما تكون بنية مثل التعارض ذكر / أنثى موجودة في نفس الوقت جسديا وعقليا في اللغة وفي القانون كيف لا يمكن قبول أن أية لحظة معزولة بالتحليل تساهم في إعطائها كل قواها الاجتماعية؟ تواتر ثابت يقبل كحالة خاصة ودون اختزاله إلى بعد زمني: ما نسميه إعادة الإنتاج لمجموعة أو مؤسسة بطريقة اختزال كتابي مع خطر وهم جوهري، يعين قبل كل شيء إعادة إنتاج الشروط الاجتماعية للممكن المندرج والمسجل في الحاضر. بواقع فقط كونه ما هي عليه ويمتلك استعدادات ليكون ما هي عليه، فإن عضو مجموعة أو مؤسسة يميل إلى إقصاء كمستحيل وكغير معقول الممكن الآخر غير الذي اعتبره ممكنا، ممكنا كما هو. العمل المنهجي أو الخفي للإدماج العائلي أو الديني أو المهني، ينتج أفرادا يرون أنفسهم مالكين لخصوصيات موضوعية وذاتية هم الأكثر استعدادا لنشرها وإدامتها دون ضرورة استهداف هذا التمديد. إعادة الإنتاج تفترض دوران وتلاؤم الشروط الموضوعية والاستعدادات

الذاتية. (قد تتغير المصطلحات: بورديو يتحدث غالبا عن ضبط وجدلية الآمال الذاتية واحتمالات الموضوعية؛ هذه العلاقة هي أحيانا متصورة كإعادة إنتاج لما تكون شروط إعادة إنتاج الإنعواد وشروط عمله متشابهة (مستقبل الطبقة: 5؛ وأجوبة: 106؛ وفي مكان أخر ذكرت التشابه والتلاؤم أو التواطؤ،نبلاء الدولة: 12).

ومع خطر الظهور بمظهر مشجع المفارقات يمكننا القول بأن مفهوم إعادة الإنتاج الذي نختزله عادة فقط إلى إعادة إنتاج البنية الموضوعية (علاقات بين المجموعات الاجتماعية وتوزيع نوع من الرأسمال...)، له فضيلة صبغ وضوح أقصى على ممارسات العاملين وكذا على العلاقة التي يربطونها مع ممارساتهم. وفعلا لدراسة إعادة إنتاج موقع نحن مدفوعون لتجاوز التقسيم الذي ينتجه فصل مجالات الحياة الاجتماعية (علم وتمدرس وترفيه وعائلة...) وبحث عن المنطق الموحد لمختلف الممارسات. إعادة الإنتاج تتطلب أن يفكر فيها في نفس الوقت بعبارات ظاهراتية وبعبارات فيزيائية: في حالة نعتبر بالأحرى المستقبل متصورا ومنظورا والغايات التي تقابله دون أن تكون مطروحة بصراحة، وفي الحالة الأخرى نعتبر بالأحرى الرأسمال والعوامل التي يحوي. حجم وتكوين الرأسمال الممتلك يحدد فضاء ممكن، ومستقبلا محتمل نسبة له على العاملين التفاهم والالتزام: شكل المسار، المتصاعد أو المتنازل، يؤثر بتوسط التجربة الزمنية في مجموع الإستراتيجيات المدرسية والزواج والثقافية ....وهكذا فالخصوصية الظاهراتية للتجربة التي يعايشها العاملون تتضح وتبرز ليس فحسب رغم المعرفة الآليات البنيوية لإعادة الإنتاج ولكن بفضل هذه المعرفة وعكسيا فهذه الآليات لا يمكن أن تفصل عن المعنى الأولي الذي يشكله بالنسبة للعاملين مصيرهم الاجتماعي ذاته.

وبعد إقصاء سوء الفهم حول كلمة ذات صدى "بنيوية وظيفية" و"ماركسية" أو عِلْماوية غامضة، يمكن القول بأن علم الاجتماع في جزء كبير منه هو دراسة إعادة الإنتاج

الاجتماعي. دون تجاهل التغيير، ولكن مع اتخاذه كمبدأ قابل للفهم[1] وقابل للتحديد يقترح تحليلا عقلانيا. معرفة حالة نظام مواقع هو الشرط المسبق لفهم فيما إذا كان هذا النظام معرضا لتحولات وفي ماذا هذه تمت بكيفيات محددة. وفعلا، اللهم إذا خضعنا لـلا عقلانية، يجب الاعتراف بأن مبدأ العقل يؤدي إلى افتراض خصوصية نظامية للتحولات (وهذه تتمثل في مجموعة مضبوطة من العمليات). إعادة إنتاج موقع متفرد يخضع بطريق وصوله إلى نظام وسائل تملك مختلف أنواع الرأسمال، التي هي أيضا وسائل إعادة إنتاج: ولعامل، فإن حظوظ التولد اجتماعيا في حالة جديدة للفضاء الاجتماعي (أو فضاء جزئي) ترتبط بشيئين، الرأسمال الممتلك والقيمة التفاضلية، احتمالا متذبذبة، التي يحصل عليها هذا في فضاء الرساميل. مثلا اللاتينية التي ظلت لمدة طويلة لغة 'العلم' في فضاء مختزل ضمانة ديمومتها، انحصرت في عالم مدرسي فقط مع تطور اللغات الوطنية الحديثة وهو ما كان من أثره تهديد الأثمان في عدة أسواق علمية ومخملية وبل حتى في السوق المدرسية على المدى. امتلاك رأسمال لا يعطي آنيا ومباشرة وسيلة إعادة إنتاج لأنه يجب الاعتماد على ما يفلت من سيطرته في جزء كبير منه، حالة نظام وسائل إعادة الإنتاج.

الجانب الأول لاستراتيجيات إعادة الإنتاج هو درجة تشييء الرأسمال (تطبيق عملي: 209). الرأسمال مرتبط بكيفيتين مختلفتين لإعادة الإنتاج حسب ما إذا كان بالأحرى مرتبطا بأشخاص مدمجا على شكل خصائص وفضائل خبرة وسمعة أو بالأحرى مندرجا في آليات تملك وخبرة تخضع لمنطق مستقل لحقل (بيروقراطية، مدرسية، اقتصادية...). (طبعا توجد درجات بين القطبين المتعارضان). بالنسبة لقطب يدين الفرد موقعه إلى المجموعة الأهلية التي ينبع منها شرط أن يبرهن على أنه أهل لها فعلا وقولا، وينتظر أن يعترف به كوريث معترف به ووريث شرعي يمكنه المطالبة، وهو لا ينفصل عن هذا، بحقه في تملك الاسم

---

[1] دوركهايم كان ينتقد الذين يرون أن المصير ليس في متناول الفكر العلمي يعني الفكر المميز، *Textes*, t.1, Paris, Minuit, 1975: 66-67.

والسمعة؛ أولوية العائلة وعموما الشبكة العائلية والحلفاء هو متواز مع القيمة الممنوحة للتفوق الشخصي، لأن المولد الطيب هو شرط ضروري وإن لم يكن كافيا لنقل الخصال المتفردة غير القابلة للتصرف فيها والتي لا يمكن أن نمتلكها بتاتا إلا بشكل شامل. الأساس النهائي لكل ملك مادي أو روحي هو الشرف، شيء ملك جماعي غلا يتجزأ. إلا أن ما يقوي الهيمنة الشخصية وفي نفس الوقت مكمن ضعفها هو: أنها إذا كانت تستمد شرعيتها من الصفة التي قد تبدو أقل عرضة للاعتباطية، جاذبية يبدو أن الأفراد لا يدينون بها إلا إلى أنفسهم وإلى الطبيعة وما يبدو مكتسبا غير قابل للتراجع عليه، وهو مع ذلك ضروري لهم، لتغذية الاعتقاد، وإعطاء دوما براهين على علوهم وكبرهم وتميزهم ونبلهم والحفاظ على مكانتهم بجزيل العطاء والكرم وتجاوز التحديات وتفادي الوقوع في وضع مشين محط بزواج غير ملائم... وفي القطب الآخر بالعكس، الفرد يدين بموقعه إلى أشكال خاصة من المهارات تسمح له بالبرهنة على قيمته بتحديد خاص في حقول مميزة ولها معايير تقييم وانتقاء خاصة بها: الرأسمال موجود في حالة مشيأة باستقلالية عن الأشخاص لا يمكن أن يستملك إلا حسب مساطر مجهولة (على الأقل رسميا)، نسبيا مصورنة رسمية. إعادة إنتاج المواقع التي تخرج مبدئيا عن قبضة المجموعات العائلية والقرابة وهي إذا في هذه الحالة موسطة ومعلن عنها ببنيات أو بالضبط بنظام العلاقات بين البنيات: بنية توزيع أشكال الرأسمال تشير إلى حظوظ التملك والتحكم التي لا توجد بتاتا إلا في عين منظومة وسائل إعادة الإنتاج. عندما تكون الهيمنة بنيوية تميل القيمة إلى الانفصال عن الشخص: ولا شيء يضمن لمجموعة الورثة المحتملين، للأفراد النابعين من المجموعات العائلية المنتمية إلى المجموعات المهيمنة إعادة إنتاج شامل وعام. المنطق لا يمكن أن يكون إلا إحصائيا لأن الأفراد يجب أن يتقدموا واحدا بعد واحد في فضاءات منفصلة وغير متجانسة. (نبلاء الدولة: 396؛ 406).

وإذا كان كل حقل يحدد من واقع استقلاليته كيفيات إعادة إنتاجه، يمكننا افتراض أن إستراتيجيات إعادة الإنتاج يجب أن تعتبر منطقان مهمان بينهما تربط مختلف علاقات

توتر وتفاهم... في حين أن المنطق العائلي يميل إلى تشجيع اندماج وتميز المجموعة بتشجيع علاقات القرابة الأكثر مواتاة لتطبيع العلاقات بين عناصرها وبجعلها ممكنا التنسيق تقريبا المنتظم لمختلف الإستراتيجيات (رمزية وتزاوج واقتصادية...)، نمو وتميز الدولة المركزية كان لهما أثر في إقصاء من هذا المنطق مجموعة ممارسات وفرض الاعتراف بشكل شرعية مبنية على مبادئ كونية ومجردة: هذا المنطق هو منطق تركز الرأسمال الرمزي الشكل النهائي الأعلى للرأسمال، وإثبات صحة كل أشكال الرأسمال.(هذان المنطقان اللذان يقابلان نماذج مثالية يقترنان في الحقيقة: المجموعات المهيمنة يمكن مثلا أن تصل إلى إطالة منطق العائلة في عوالم مبدئيا تتحكم فيها آليات غير شخصية. والمدرسة هي بالخصوص عرضة لهذا النوع من التوتر).

جانب آخر يجب اعتباره هو درجة الضبط والملاءمة بين العوالم المستقلة نسبيا، الفضاء الاجتماعي كفضاء مواقع، ونظام وسائل إعادة الإنتاج. المجموعات الاجتماعية هي مالكة لبعض أنواع الرأسمال اسمح لها بالوصول إلى الحقوق المحددة (اقتصادية وفكرية ودينية...) وإلى مواقع في هذه الحقول، وإعادة إنتاجها يأخذ أشكالا مختلفة حسب ما إذا سمحت الظرفية أو منعت استعمال نفس الموارد كما في الماضي. إعادة إنتاج مشابهة ممكنة عندما لا تتغير ظروف وشروط الوصول إلى مواقع ثابتة: في الحالة السابقة للنظام الجامعي الذي لم ينقرض كلية وفي بعض المهن الحرة أو المستقلة حدود عدد المرشحين وخاصة تحدد عددهم ذاتيا بالخضوع الإرادي لقواعد رسمية أو شبه رسمية للتوريث تميل لضمان توافق المرشحين مع القيم الجماعية الضرورية لاستمرارية النظام الموضوعي والذاتي. الورثة الذين هم تقريبا غير مميزين عن السابقين، يتميزون عنهم خاصة بالفارق الزمني. شكل من ديمومة يبدو أنها حالة مثل تلك تحويها لا تتولد عن السير الطبيعي للأشياء ولكن عن ضمانة ديمومة التي تمنحها فقط المؤسسات (المدرسة والدولة والكنيسة...). فعالية إستراتيجيات إعادة الإنتاج تفترض أن الوسائل الموجودة هي مضبوطة على مقاس فضاء الممكن. يمكننا تماما

تخيل تنازع واختلاف ناتج عن انهيار ثمن الرساميل الممتلكة: مثلا في حالة ثورية وأزمة، في حالة ثورة مضادة من تصفية وقمع، الرأسمال السياسي المجمع على شكل وفاء للقضية وللحزب يميل للعلو على باقي أنواع الرساميل خصوصا الفكري والاقتصادي وبل وحتى النضالي (قدماء المناضلين وقد أقصوا لصالح أطر جديدة أكثر انضباطا). عندما تمتلك المجموعات رساميل مهددة بالتخفيض أو الانقضاء ولكنها مع ذلك تنجح في تبديلها مقابل أشكال جديدة مقبولة في الحالة الجديدة لأنظمة وسائل إعادة الإنتاج، فإن استمرارية مواقعها النسبية ليس مستحيلا ولكن يفترض تحولا: وهو الحالة عندما تكون هذه الشرائح من البرجوازية تقتني أشياء نبيلة أو شرفا بيروقراطيا، وعندما تقتني مجموعات وخاصة الغنية بالرأسمال الاقتصادي رأسمالا مدرسيا، عندما تقتني شرائح مالكة لرساميل (اقتصادية أو فطرية) ذات قيمة وطنية شواهد ذات قيمة دولية .... التحول يترتب عنه توازيا ثابتا موقعيا وتحولا في المحتوى الجوهري للممتلكات. طبعا المجموعات الاجتماعية هي متفاوتة التموقع في هذا السباق والذي من رهاناته الاحتفاظ بالفوارق، المحافظة على البنية العامة للمواقع.

إلا أن أي آلية مخفية للتنظيم الذاتي لا تضمن العمل المتناغم لإستراتيجيات إعادة الإنتاج. في حين أنه دون أن تكون كلية مقصية ومعزولة عن عوامل الأزمة، يحوي منطق العائلي للدار والشجرة ضمانات متلازمة، ضمانة استقرار عدد المرشحين إلى المواقع المهيمنة وتجانسها وبالطبع نتيجتها تطور الحقول المستقلة المالكة لمتطلباتها الخاصة لا يسمح بالتحكم بنفس درجة التقابل بين الاستعدادات والمواقع، بين التطلعات الذاتية والمحتمل الموضوعي، بين الترقبات المتولدة عن حالة سابقة لوسائل إعادة الإنتاج والممكن المعروض في الحالة الراهنة لهذا النظام. ولذلك توجد مناطق غموض وتوتر في الفضاء الاجتماعي الذي هو محل ظواهر عدة من إعادة ترتيب أكانت ترقية أم سقوطا (التميز: 145): التي تتمثل أساسا في مواجهة نظام بنيوي مع اختلافاته الشكلية التي ليست تماما متوافقة فيما بينها والتي تناقضه أو تزعجه. ما العمل مثلا لما نكون لملأ منصب أستاذ أدب التعليم العالي قد أنهينا كل خزان

خريجي مدارس الأساتذة، شرط مضمن للأرثوذوكسية التعليمية السابقة؟ (إنسان أكاديمي: 169). وإذا حصلت توافق واتفاقات لا محيد عنها بسبب الضغط الخارجي الناتج عن سيل جمهور جديد من الطلاب، فأين يجب حصر الحدود؟ لحظة أنى تتطور شروط انتقاء العاملين مواتية لابتكار مواقع جديدة حاملة لتعريفات جديدة للعبة والرهانات.

علم السلطة، سلطة العلم

هذا، وهو لا يتعلق بتاتا بالاحتماء بوجهة نظر عليا لسيروس، حكيم يرى الأمور عن بعد، فوق الخير والشر. الموضوعية ليس الحياد أو الحيادية. وقد برهنا عاليه أن عالِم الاجتماع ينتمي إلى العالم الذي يجد لمعرفته وأنه عليه أن يتخذ هذا الانتماء كموضوع أبعد من تجاهله بمكرمة أو غصب مكانته "كعالم". يمتلك بالاشتراك مع معاصرين آخرين مجموعة قبل انعكاسية من مبادئ رؤية وتقسيم العالم الاجتماعي التي تحدد فضاء المعقول إلا أنه بالضبط لماذا يجب عليه تصور التشييئ الاجتماعي أيضا كتشييئ بحد ذاته، وربما بلا حد. رجل معرفة يتعامل مع حقول تخترقها أنواع مختلفة من التمثيلات العادية و"العلمية"، يجب عليه اخذ بعين النظر حجم الواجبات وكذا الرقابة التي تشير بها مكانته ورفض الدخول بلا أخذ مسافة وبلا اتخاذ موقف في حقول يفرضها الطلب السياسي، ووسائل الإعلام. التواضع هو ربما أولى الفضائل الفكرية، وله زيادة وظيفة موضوعيا سياسية، ألا وهي التساؤل حول التوزيع الاجتماعي للمهارات والمعارف: الذي يتعرضون للعنف الرمزي هم جردوا من الرأسمال الفكري الذي يسمح لهم بالصمود، يمكنهم على الأقل معرفة أن الاختلافات التي يوحى بها لهم تقترح عليهم في طريقة امتلاك واستعمال الثقافة "العلمية" تمنح لهم ضمانة أن يحكم عليهم فقط غرورا واعتدادا بالنفس لمن يدعي معرفة كل شيء. لفرض هذه فهؤلاء هم بحاجة إلى مهابة وأبهة، أمام كل هذا المظاهر ينزعج بورديو (وفي هذا فهو باسكالي جدا) لأن كل بغيته التي يحملها محمل جد هو الإفلات بالفكر من كل هيبة الاعتقاد والاحترام.

وتصرفه الذي له شيء ما من المعرفة السعيدة هو محرر. كيف يمكن لعلم الاجتماع أن يدين لصنم؟ ولكن إذا كان كذلك فهو أولا فيما يتعلق بالتمرين نفسه للعمل الفكري، لأنه إذا اكتفى بإزالة الغموض المتعدد من على المواضيع البعيدة، فإن عالم الاجتماع قد يعفي نفسه من كل اختبار وانجاز وبالتالي أن لا ينجز سوى أذكى اغتصاب.

وهكذا فليس غريبا أن يكون الدرس الافتتاحي لبورديو في الكوليج دو فرانس منصبا على مراسيم هذا الدرس نفسه الذي يجمع كل مفارقات التشريف العمومي لعلم العالِم الاجتماعي: بهذه المراسيم، تعترف المؤسسة لفرد يتخذ كموضوع الاعتقاد الاجتماعي سلطة التعبير بسلطة حول الاعتقاد. ولا أحد غيره يمكنه في ذلك الظرف الاستثنائي أن يقدر غرابة الاعتراف العلني والعمومي الممنوح لكلمة مبنية مؤسسة على قول بالاعتباطية العليا للأسس. هل عليه الرضوح لدوخة نسبوية جذرية تجعل من علم المعتقدات شكلا أعلى للاعتقاد، أو عوض ذلك القبول بتواضع بالاحتفاء والتشريف المستحق من زملائه؟ جواب بورديو يترتب عن تصوره للوضع الاستثنائي لعلم الاجتماع: المؤسسات تعطي ضمانات ضرورية لنشاط غير محتمل اجتماعيا كهذا العلم الذي كونه الوحيد الذي يكشف الحتميات والارتباطات ويحوي أمكانية تحرر حقيقية. ولكن لا يمكنه استغلال سلطته إلا شرط أن يكون دائما محترسا على حذر من الاستعمالات والاستعمالات الخاطئة، بتنظيره لنظرية السلطة، ونظريته ذاتها. في كل السلطات يمكن الشعور بجزء الاعتباطية التي تحويها، نظرا لشكل السلطة التي تحوي. علم الاجتماع الذي يخمن في هذا الاعتباط نظرا للسلطة التي يمتلكها، يغامر بها في هذه التجربة الخطيرة، ولكن سلطته الخاصة لا يمكن أن ترفض إلا بأسلحة والتي في النهاية يفترضها ويكرسها.

يمكننا انتقاد بورديو في منحه أفضلية كبيرة لعلم الاجتماع، أفضلية الحصول على شروط حرية فكرية. هل حقا علينا بالتعجب أم التخوف من ذلك؟ العلم يلاحظ أن العاملين هم ميالون للحفاظ على معتقدات لا سبب في التشكيك فيها بشكل عفوي

ومتعمد. هل سيفعلون ذلك ومقاصدهم لا يمكنها وحدها أن تقوم بذلك دون المرور عبر منعرج منهج يشبه كثيرا علم اجتماع. ليس استغلالا للسلطة إلا إذا كان الاجتماعي عالم الاجتماع يرغب في تعويض اعتباطيا وسائله بغيرها، بتجاهل التساؤل حول ما يفعله. ولكن ما هو بناء موضوع إذا لم يكن إمكانية فتح فضاء ملاحظة وتساؤل حسب وجهة نظر. اقتراح بأنه توجد أشياء ليست من طبيعة اجتماعية، هو قول بمسلمة واضحة لا تصيب علم الاجتماع، الذي له كل طموح استكشاف عقلانيا، ولو على حقول قليلة التعود عليها أو غريبة الموارد التي هي له.

كيف الشك في إرادة مخفية للسيطرة في وضعية فكرية جد متفردة والتي بانعكاساتها لا تتوقف عن مساءلة فرضيات الفعل المعرفة والنقط العمياء للملاحظة؟

علم الاجتماع ككيفية رؤية سياسية

السؤال المطروح على عالم الاجتماع كمفكر خاص لا يعود على البديل العام جدا بين الالتزام والمقاطعة، ولكن على السلطة الخاصة التي يمكنه بمشروعية ادعاءها والمطالبة بها. علم الاجتماع يمكن أن يساهم بطرق مختلفة في عمل تحرري. من واقع كونه يتخذ كموضوع عمل تمثيلات العالم الاجتماعي، والوسائل التي يستعملها هذا العمل فهو تميل إلى زحزحة ما نجحت مختلف الحقول بمنطق عملها في فرضه كمسلم به. وللوصول إلى التخمين بطريقة مغايرة وفي شيء آخر مما يدفع حقل للتفكير فيه، هذه المجموعة الأكيدة من المشاكل، والمفاهيم والمسلمات الحاضرة على شكل رؤية مذهبية، يجب محاولة توضيح الفرضيات المخفية في المواقع وبذكاء توضيح ذلك الإجماع في الاختلاف، الاتفاق العميق في التنافس أو الصراع بين المواقع. وهكذا الأمر في حالة الحقل السياسي. يجب التحرر من السياسة للتفكير في السياسة وما لا معقول السياسية. المعرفة العلمية يجب في نفس الوقت أن تدرس المساهمة في هذا الفضاء والمحافظة (أم التغيير) على النظام الاجتماعي وفهم تأثيرات الاعوجاج الذي

تخلقه التمثيلات الرسمية للسياسة. ككل موضوع اجتماعيا وفكريا مسبق البناء، السياسة تستدعي تفكيكا علميا ينصب على وسائلها ومشاكلها وتصنيفاتها الفكرية التي غالبا ما هي نفس تلك التي تستعملها العلوم السياسية. هذا العلم وكموضوعه هما نتاج حركة تاريخية، الاستقلالية التدريجية خلال القرن التاسع عشر لنشاط سياسي بمؤسساته وأنظمته وأحزابه وتنافسه الانتخابي وبل (منذ مدة يسيرة) فلسفته.... وقد شبهت السياسة بفضاء التنافس بين المهنيين المتصارعين في نفس الوقت للفوز بمواقع (انتخابية، إدارية ...) ولتحديد الرهانات الشرعية للتنافس ولتعريف العالم الاجتماعي، الخطابات التي قد لا تكون منتجة حسب هذه الفئات لها كلها حظوظ أن تقصى أو ترى كغير سياسية خاصة ولا معنى لها ولا تستحق اعتبارا. العقائدية الديمقراطية مقرونة بالفرضيات المدارسية التي تترصد بكل منظر، وحتى في السياسة، تميل إلى خلق، وتعليل والحفاظ على خيال الاعتقاد المتركز جيدا في التصويت العام، على فرد معين لاختيار والعمل حسب الأفكار التي يقترحها الناطقون بلسان الحال الأكثر تقدما في الوعي. إلا أن هؤلاء أبعد من أن يكونوا وسطاء شفافين في خدمة القضية المعلنة، لهم مصالح خاصة مترتبة عن انتمائهم لحقل التنافس، يتجابهون بنية الفوز في التنافس الذي في حالات قصوى يبدو قد أصبح المحرك الوحيد للنشاط السياسي. ولكن فحتى في هذه الحالات، هذه المصالح يمكن أن تظل مخفية لأن الدعوة المكررة للصناديق، زيادة على التصويت لأحزاب هو شكل من التصويت والقبول بفضاء المشاكل والأجوبة السياسية (المرونة، التكيف ونهاية الامتيازات والفئوية أمام تحديات التنافس العالمي، والأمن والمشاكل الهجرة...) تفكيك هذا الفضاء ليس خضوعا لنوع من شعبوية الديمقراطية المباشرة، كما يعتقد أو يتظاهر بذلك من ينزعجون من التساؤلات غير المقبولة لعلم اجتماع تائه في تلك الأرضي، هو استخلاص النتائج من هذه الفوارق بين تجربة العاملين وأصناف التصور والتقييم التي يمنحها الفضاء السياسي.

تعريف السياسة والقضايا السياسية هو بالتأكيد رهان، وعالم الاجتماع لا يمكنه أن يفرض تعريفا مبنيا على معايير موضوعية ودقيقة. ولكنه يمكنه ملاحظة بأن هذه التعريفات الرسمية، وبل رسميا معارضة، لا توضح بكل مجموع أنشطة وتطلعات ومعتقدات تحوي سياسة غير مخمنة في حد ذاتها، على حالة ممارسة، مضمنة جد مختلفة عن التي يعالجها المتخصصون السياسة. يمكن أن تكون مخفية غير مرئية لا يفطن لها من واقع أن علاقات القوى شيئا ما اللا مسيسة تأخذ شكلا غير معروف لعلاقات المعنى، لدرجة يبدو أنها تندثر وتتلاشى كما هي. وإلى جانب العنف الرمزي الذي هو سحر هذا الغياب: يقترح علم الاجتماع معارضته بعنف مضاد حاضر فقط في فعل المعرفة: يقترح كيفية رؤية سياسية تتمثل في رؤية العالم الاجتماعي (والحقل السياسي نفسه) من زاوية هي زاوية إعادة إنتاج النظام للمواقع أو إعادة إنتاج للاختلافات بين المواقع السائدة المهيمنة والمواقع الخاضعة. النظام الاجتماعي ليس نتاج لا جهاز تدخل علوي ولا جهاز مجهول وجماعي للتقويم ولا تعاون مجموعة من أنظمة جزئية. هو بالأحرى نتيجة مجموعة آليات في نفس الوقت مستقلة ومتلاقية وبفضلها تميل المعارضات الأساسية للعالم الاجتماعي إلى التدرج في محلات الأكثر اختلافا.

الجسد يمنح أحد هذه المحلات المفضلة لإعادة الإنتاج النظام. علما بأن تعلما له حظوظ نجاح بمقدار أنه مبكر، وأن المخططات التي يشكلها لها حظوظ أقل أن يشكك فيها أو تخضع لاختبار بمقدار كونها مستبطنة علاوة على ذلك، الجسد يبدو كناقل جيد للتعلم وخصوصا التعليم الأول. وكونه دعامة تميز وتعارض (عالي/ أسفل، أمام/ خلف...) فهو بالخصوص موات للتعبير وترميز المعارضات وفروق الاعتباط الثقافي. (إعادة الإنتاج: 20-23) التي هي في أساس الفكر الأسطوري: الجسد يصلح لتحويل تناظري للمخططات، بفضله يصبح أسطوريا مهيكلا، وبالتالي العلاقة بالجسد هو معلن عنه بالأسطورة. وهكذا خصوصا الدلالة الأسطورية والثقافية المحددة للمعارضة بين المذكر والمؤنث تتجسد في مظهر

سلوكي مستبطن جسديا: في المجتمعات القبائلية مثلا الرجل يقف منتصبا ويمشي بخطى ثقيلا وواثقا، في حين أن المرأة تقف محدودبة وتمشي متسرعة غير واثقة....؛ وكذلك المعارضة بين مناطق الجسد المحايدة ومناطق الجسد المحرمة تحيل إلى المعارضة بين العلني الظاهر والمكتوم المخفي المخجل (الجنسي).

إدماج البنيات، يعني البنيات التي هي جسد، حركات ووقفة تمثل شكلا مفضلا من الاستبطان للبنيات: إذا كان الجسد يتعلم كثيرا ويتذكر جيدا، فلأنه ليس عليه التفكير ولكن فحسب تعلم الآليات، لا يمتلك أبدا إنعواده إلا بحالة الممارسة. مدمجة الدلالات الثقافية التي تفترضها الأسطورة هي أقل عرضة للرفض أو المراجعة منه بالحركات التي تولد هو واثق وطبيعي، وأثرها سيكون أكبر بمقدار أن هذه الحركة ستكون حركة صغيرة وبلا قيمة نقوم بها دون تفكير. وبتسجيل النظام في الجسد على شكل وتيرة تشمل التخلي مؤقتا عن الرضا، والآجال والزمن لكل شيء، التعليم الأول يجعل من الجسد المدجن وسيلة للانضباط الذاتي ولشرطة أو إذا ابتغينا لسياسة[1]. إلا أنه بطريقة عامة هو مجموعة النصائح والمبادئ المتعلقة بقواعد الوقفة والكلام مع الآخر والتحية .... بتلخيص كل الأدب والاحترام الذي يعادل علامة واسمة وتأشيرا رمزيا (معارضة مذكر/ مؤنث، عالي/ أسفل...) ةفي نفس الوقت مجاني ولا يبتغي نفعا وضروري، لسياسة ولكن لسياسة في حالة ممارسة لا تضمن أحسن إعادة إنتاج النظام الاجتماعي إلا باستبطانه على شكل حركات احترام وتقدير وكياسة، تمنع أية عملية من اتخاذها موضوعا أو أي توضيح لهذا النظام الذي يؤسسها ويطيلها وينشرها: "كل الحيلة العقل التربوية تكمن بالضبط في واقع اغتصاب الأساسي بعلة طلب القليل". (مخططات: 197).

---

(1) عد إلى الهيمنة الذكرية. ومجموعة أبحاث يمكن أن تذكر دعما لهذه الفرضيات: لوك بولطانسكي: التربية الأولى وأخلاقيات الطبقة، لاهاي موتون، 1969؛ فرتسين ميل ددريفيس، فيشي والنسائية الأبدية / مساهمة في علم اجتماع نظام الأجساد، باريس لوسوي: 1996.

هذه التحليلات تؤدي إلى ما يمكن أن نسميه "تسييسا معمما". لأنه بعد أن يكتشف في الجسد، يمكن أن نحاول العثور عليه في الطرف الأخر العقل. وأحذ الأمثلة الأكثر إيحاء تتبع ربما من مجالات كالفلسفة حيث بالذات نحن أقل تعودا على اكتشاف خطاب حول العالم الاجتماعي، المنهج الاجتماعي يمكن أن يبدو أكثر خطرا وفي نفس الوقت أكثر تنويرا. هذا المنهج لا يهدف إلى اختزال إلى إستراتيجيات كل المفاهيم الخالصة وكل المواقف الفلسفية بواسطة شكل من معجم ترجمة اجتماعية ولكن بتوضيح الفرضيات الاجتماعية والثقافية بإبراز بأية طريقة أن العالم الاجتماعي حاضر فيها وما هي أفق هذا العالم الذي هو منفتح وفي نفس الوقت مخفي بعمل فلسفي بحت. وفعلا ففيلسوف يقترح فلسفة سلبية يمكن أن يضمن على الأقل فيما لا يمكنه تجاوز اقتراحه، تمثيلا لممارسته ذاتها وللنشاط الفكري عموما: كانط ونعرف ذلك، كان يستنكر النبرة الأرستقراطية، الأناقة في الفلسفة، وكان يدعو إلى فلسفة شاقة على طريقة أرسطو؛ العمق الذي يخافه البعض كان يسعد آخرين.... ويمكننا البرهنة على أن التصنيفات النظرية التي تظهر على صورة مجردة تغطي غالبا تصنيفات اجتماعية: مثلا الوضعية تدل بلا جدل في فلسفة القارة الأوروبية اليوم على كيفية تفكير سطحية ومبتذلة، سهلة الإقصاء. وحتى المواضيع الخالصة أو المتعالية للكتاب المثاليين حيث لا يمكننا إلا التعرف وعلى الأقل على شكل آثار لحضور صورة تاريخية محددة في كنف نظام المعارضات. وهو ما أبرزه بورديو بخصوص موضوع الجماليات الكانطية: هذا الفاعل الذي فقط بذوقه يعرف كيف يتذوق الجميل بطريقة حرة وغير مبالية والذي يصل دون المرور بالمفهوم إلى كونية حكم يفترض أنه صحيح للكل، يعطي شكل الكونية والضرورة الفلسفية لتجارب اجتماعيا مشروطة، تجربة الفن لأنه يتحدد بإقصاء التجارب التي لا تستحق ولا تعقل الخاصة بالذوق الهمجي للذين لا يصلون للكونية.

وفي هذا المنطق يمكننا أيضا فهم التحليل الذي يقترحه بورديو لفاعل مجهول عند هايدجير، هذا الكائن الغير الأصيل الذي يتنازل عن وجوده للموت في سرية وجهالة

الدردشة. الفاعل المجهول قرين الغوغاء الغالية عند المفكرين المحافظين، والذي يمتلك كل خصائصها، العبثية والجبن يشكل زوجا مع هذا الصنو المفهومي للمكفر الذي هو كائن هنا، راعي الوجود يضطلع بالقرار، والغائية، الموت. الفلسفة الهايدجيرية للكائن التي تحمل لهذه الدرجة أثار آرستقراطية الأستاذية، هي حسب بورديو فلسفة وجود سياسية تستدعي قراءة سياسية للفلسفة -وليس قراءة للفلسفة، كما نفعل أحيانا، على ضوء الأفكار السياسية (والأفكار التي تكونها الفلسفة حول السياسة). بهذه الوسائل الخاصة، التي تمتلك في عين الزملاء بعلامات الشرعية الفلسفية، المفكر ينجز في التفكير ما يمكن لرجل من عناية إلهية وأن يحققه في مجال مهدد بالانحطاط والتسطح. متفاديا إلصاق الأصناف الفلسفية بأصناف سياسية، يمكننا فهم كيف أن تناظرها يضم متقابلات واختلافات في التشابه محتفظة بالفارق بينها الضروري للمعتقد الفلسفي. مقصد بورديو ليس وصم بعار سياسي فردا: كل منهجه يتعارض مع هذا المنطق، باحثا بالأحرى عن المصالح الفكرية والسياسية التي يمكن استخراجها من توضيح الأصناف والإشكاليات الفلسفية، واستخلاص أيضا لحد ما، من الاستعمال المتحكم فيه لتلك الموارد التي هي مشوشة وملتبسة بقدر ما يمكنه. منطق التحليل الاجتماعي ليس هو منطق التصنيفات حسب المعايير السياسة المقبولة بطريقة لا تنتقد: هو معايير نقد اجتماعي لحكم فلسفي يسمح بفهم إلى ما يؤدي خطاب ضمنيا الذي مع ذلك يبدو أنه يتناول أشياء أخرى غير السياسة. وحالة معبرة مثل حالة هايدجير تدعونا لتطبيق الرؤية الاجتماعية على وسائل الفكر 'العلمي' بغية اختبار استقلاليتها قياسا ومعارضاتها مع العالم الاجتماعي، العالي والأسفل، النبيل والحقير... ألا توجد فلسفة وجود نائمة أقل أو أكثر عند عدد كبير من المثقفين، خصوصا بين الأساتذة كما تظهره علاوة على ذلك الحالة المثالية للهايدجيرين وماركسيين أو من اليسار؟ يمكننا التعرف على فلسفة الوجود هذه في مختلف تنوعاتها الفلسفية الأدبية، الفلسفة الاجتماعية.... أن تكون مثقفا أليس بالنسبة للذين لا وسيلة أخرى لهم للتواجد واستعراض اختلافهم بواسطتها يعلنون عن فكر متفرد، آخر

غير مشترك؟ حسب حجم وتشكل الرأسمال الفكري الممتلك، يميل بعض الكتاب نحو التعبير عن أرستقراطيتهم إما في فلسفة تدعى ما بعد حداثية لنهاية الكونية لكل مطلق وإما في ـ تأويل فلسفي اجتماعي للحياة اليومية مظهرين غرق الفرد في الاستهلاك وعروض الحفلات والوسائط المتعددة.

الجسد من جانب والفلسفة من جانب آخر: هل الفرق كبير؟ طرح مثل هذا السؤال هو التساؤل ببساطة عما هو الدور الذي تلعبه الآليات التلقائية في الأنشطة المسماة عالية. مفكر يفكر بواسطة مخططات جزئيا غير شخصية يدين بها إلى النظام المدرسي وإلى تاريخ الحقل النظري الذي هو وليد له. ولكن زيادة عن المواقف الأكثر تجريدا يمكن أن تكون معلنة بواسطة وقفات جسدية تحوي على كيفية سابقة للكلام، مجموعة أذواق وتقزز، نوع من الوقفة وأخذ البعد والتعريف بالنفس في فضاء عام، والاستماع للآخرين. هذا الترابط بين الجسد والعقل يمكن أن يصدم من يغدون رؤى أحلام ذهنية خالصة، ولكنه ما يأخذ في الاعتبار بطريقة منتظمة بعض المؤسسات وليس فقط المؤسسات الكليانية. (دور التعريف بالذات في فضاء عام (لنخمن في حالات التعليم واختبارات شفوية) تعتمد على ما تمنح للآخرين من وسائل لاستباق مجموعة محتملة من المواقف التي تبدو بعيدة عن المسائل التي تأخذ مظهرا جسديا).

العلم متخذا كموضوع الهيمنة يترتب عنه إيقاف آثار الهيمنة على معرفة الموضوع. إلا أن فعل المعرفة هذا الذي يساهم في كشف توزيع أنواع الرساميل والتصنيفات الاجتماعية التي تتعرف عليها وتتجاهلها، لا يمكن أن تعدم تشبهها بفعل اجتماعي للمخالفة وخرق النظام الرمزي، فعل يفترض وجهة نظر جزئية أو محايدة. ومن حينه يمكن أن نقدر أنه ليس لنا سبب لقبول مراقبة على فعل المعرفة نفسه، ولا يبقى إلا ضمان نتائج تبعات خصوصية مخالفة وضرورية للمعرفة. وهو ما يتطلب تغيير ليس برنامج المعرفة، بل بالأحرى تصورا للموضوعية مبنيا على حلم وهمي للخروج تماما من الصراع المعياري لوجهات

النظر حول العالم الاجتماعي. تبقى على أية حال زيادة على ذلك مسألة المعرفة وخاصة إذا كان ذلك محبذا.

نمط سيطرة جديد

يمكننا أن نغرى بوضع بديل بين المعرفة الاجتماعية للتوجهات الخاصة بالمجتمعات المتطورة، كمجتمعنا اليوم ودراسة المجال السياسي. كل حجج بورديو تهدف إلى رفض مبدأ هذا البديل النابع من تقسيمات المهارات الأكاديمية. ولكن هل هو كذلك بالنسبة للمبادئ العامة وفي حقيقة الأبحاث؟ علم الاجتماع بيار بورديو هل هو ملائم لتحليل وقائع تنتمي لعالم السياسة؟ ما هي المفاتيح التي يعطينا لفهم ظرفية سياسية أو بالضبط لترينا ما هو سياسي في تلك الظرفية؟

الإنجاز الأساسي لبورديو هو اقتراح مساءلة العالَم الاجتماعي في العموم والحقل السياسي بالخصوص على ضوء هذه الوسيلة المفهومية التي هي عالم الهيمنة، مفهومة كشيء يسمح لنظام اجتماعي بإعادة الإنتاج في المعرفة وتجاهل الاعتباطية التي تبنيه. يتعلق الأمر بفهم ليس فحسب عمل آلية معقدة مع حقولها ورساميلها وإستراتيجياتها بل وأيضا ظروف إمكانية خضوع الخاضعين لنظام اجتماعي يرى بطريقة قبل انعكاسية كنظام عادي للأشياء. سؤال يبدو ظاهرا بسيطا طرحه مرارا بورديو، في منظور أفق جديد بوسائل أعيد صياغتها. ثلاث مجموعات أبحاث يمكن أن تميز/ ولكن أحيانا مع تداخلات: الأبحاث التي تنصب على النظام المدرسي؛ والتي تنصب على الفضاء الاجتماعي وعلى حقل السلطة؛ والأبحاث التي تنصب على البناء الاجتماعي للحقيقة.

وضد تجريد علم السياسة، ضحية التمييز الرسمي بين ما هو سياسي وما هو غير ذلك، فإن مساهمة النظام المدرسي في إعادة إنتاج الفوارق الاجتماعية برهن عليه من خلال عدة دراسات ميدانية (جامعات ومدارس عليا). وأحد الدروس المهمة المستخلصة هو أن

فعالية الخاصة للتصنيفات المدرسية تعتمد على كونها تكرس التصنيفات الاجتماعية مع كل مظاهر الحياد والعدل تاركة الانطباع بأنها تكتفي بتسجيل الاختلافات الحقيقية بين القدرات الطبيعية: تقييمات مبنية على الطبيعة ويؤكدها الأستاذ القادر والمحايد وتبدو أنها لا تخضع إلا لقانون مؤسسة مستقلة. المدرسة تفترض مسبقا ضمنيا ما لا يمكنها فرضه علانية دون إنكار والتنكر لوظائفها المعلنة: علاقة مطورة مع الثقافة التي هي في أساس العلاقة بين قيم المجموعة المفضلة المميزة والقيم المستقلة للمؤسسة. إعادة الإنتاج المدرسي للاختلافات الاجتماعية يميل إلى زيادة أثر خاص للشرعية لأن الأفراد الذين لهم أكثر الحظوظ لتعترف بهم المؤسسة هم الذين أنفسهم الممسكون من عائلتهم بالطرق المربية والمثقفة والمخلقة التي تشجع وتكرس المؤسسة. هؤلاء الأفراد هم الذين ميزوا مرتين وشرعنوا مرتين، بالعائلة وبالمدرسة، بالموهبة وبالجهد، بالطبيعة وبالفن. علما بأن عدد المتمدرسين زاد نسبيا منذ الستينات تحت ضغط عدة مجموعات اجتماعية خصوصا المجموعات الماسكة بالرأسمال الاقتصادي في طريق التحول، يمكننا التكهن بتأثيرات مثل تلك التطورات على الأشكال الجديدة للسلطة وعلى أنماط شرعية النظام المدرسي. مهيمنون ولكي يكونوا ممتلكين لشواهد مدرسية عليهم بالخضوع لمنطق آخر غير منطق التوريث العائلي للممتلكات والفضائل هم ميالون للمحافظة على استعدادات وتغذية استعدادات تحوي كل نظرة التفوق الإنساني وبل فلسفة تاريخ. وخلافا لمن يدينون لما هم عليه إلى الدم والميلاد يعني أخيرا إلى التقدير والاعتبار الناتج عن المميزين مباشرة المهتمون بإعادة إنتاج مزاياهم يمكنهم تقديم طريقة للتميز جديدة تقرن المهارة الموضوعية المشيأة في شواهد المؤسسة مع مزايا الشخص. الوصول إلى المواقع العليا خصوصا في حقل المقاولات أصبح مشكلنا ومرسما ومرتبطا بتملك الشواهد المدرسية. وهكذا أصبح مغيرا لشروط الهيمنة. ومن حينه تميل الهيمنة إلى أن يكون لها صبغة بنيوية، النظام المدرسي مدعو إلى لعب وظيفة أساسية: يوزع شواهد ذات قيمة في كل الحقول. ولذلك يمكننا القول بأن نمط إعادة الإنتاج الذي يميل لاستباق كل الأنماط الأخرى وهو إذا

لم يكن مدرسيا فعلى الأقل ذي مكون مدرسي. نبلاء الدولة الذين يصلون شرعيا (بشواهدهم) إلى أوضاع مهيمنة يمكن أن يتخلون عن العلامات الظاهرة للسلطة والمظاهر والزخرف الذي أصبح متقادما لحساب السلطة الأكثر استبطانا التي يمنحها الذكاء فضيلةً تشهد بالاستحقاق وكفاءة الرؤية لما ابعد وزيادة. الشرعية المدرسية للاختلافات الاجتماعية هي ناجحة بمقدار أن القرابة الأبرز بين الثقافة المدرسية والثقافة المخملية للمهيمنين أصباها اختلاط، فليس عجيبا أن يكون الشكل العلمي للشرعية الذي يفضل الصرامة والموضوعية (العلم) يميل تدريجيا إلى تجاوز الشكل الإنساني التقليدي، الذي يشك في تفضيله عادات المجموعات المميزة. الطرق اللطيفة لتطبيق السلطة المعروفة من أسلوبها المستريح المتفتح، المبتعد والمترفع والبسيط، هو جزء من أسلوب حياة البورجوازية المتعلمة. (التميز: 358).

ارتفاع نسبة المتمدرسين، قضية وسبب وأثر التنافس بين المجموعات الاجتماعية على تملك الرأسمال والأرباح المدرسية، كان له أثر تغيير إستراتيجيات إعادة الإنتاج بما في ذلك وسط المجموعات التي كانت لحد الآن مالكة للرأسمال الاقتصادي خاصة. مختلف شرائح الطبقات العليا يبدو أن لها مسالك مضبوطة على مقاس تطلعاتها واستعمالاتها الخاصة للنظام المدرسي. ولذلك يمكننا استخلاص تشابهات بين الفضاء الاجتماعي والفضاء المدرسي. علما أن بنية حقل السلطة محددة بالتعارض بين القطبين، قطب الرأسمال الثقافي وقطب الرأسمال الاقتصادي، مثل ذلك التعارض يمكن يرى في المناطق الأعلى من النظام المدرسي، تلك التي تقابل حقل المدارس العليا: هذه المدارس المرموقة التي تشترك في تحددها بالتعارض مع الجامعة المخصصة لتكوين الجمهور الواسع، متميزة في نفس الوقت بغاياتها المعلنة (البحث وتعليم أدب وعلوم خالصة مقابل معرفة عملية وتعلم في وضع الحالة في التدبير والتسيير)، بالمحتويات (معارف مقابل تقنيات) وكيفيات الانتقاء. في حين أن المدارس الأغنى بالرأسمال الثقافي (المدرسة العليا للأساتذة والبوليتكنيك) هي تلك التي هي أكثر استقلالية وتستعمل ترتيبات فكرية ومدرسية (لأن طلابها هم الذين حصلوا على أحسن

دراسة حسب المعايير الداخلية للنظام المدرسي)، والمدارس التي في القطب الآخر (المدرسة الإدارية ومدرسة التجارة)، نسبيا الأغنى من حيث الرساميل الأخرى، كما يظهره ارتفاع تمثيلية الطلاب القادمين من الشرائح المهيمنة في الطبقات العليا، هي التي نشاهد فيها اندثار القطيعة بين التعلم المدرسي والمعارف الموروثةبالانتماء إلى المجموعات المميزة. هذه المؤسسات الأخيرة تجسد تناقض النظام المدرسي في نمط إعادة إنتاج ذي مكون مدرسي: يجب عليها في نفس الوقت الخضوع إلى منطق مستقل لضمان تأثير الشهادة وربط شكل مدرسي مكرّس مع مزايا اجتماعية محصلة خارج المدرسة في كنف المجموعات الاجتماعية المهيمنة (نبلاء الدولة: 163؛305).

الرأسمال المدرسي، مبدأ ترتيب هرمي سائد، هو أيضا موضع صراع بين المجموعات. الذين يدينون بموقعهم إلى المدرسة لهم تعريف للتفوق المدرسي ضرورة مختلف عن تعريف المجموعات التي تعتمد أقل على المدرسة للحصول على موقعها وترغب في منح مكانة كبيرة للخبرة وللميزات الإنسانية الأعم (طاقة، حركية، فكر تحليلي...)، وهكذا فالصراعات العرقية السياسية السابقة بين المثقفين والبورجوازيين، إذ لم تندثر في حد ذاتها فهي تترجم في كنف عالم حيث تفرض رسميا القيم المدرسية ولغة العلم. وطريقة جديدة للحكم على الأشياء والعقول ملائمة مع مبادئ الشرعية المدرسية تفرض نفسها، ومن جهة، من خلال أصناف التفكير التي تميل إلى تشجيعها، ومن جهة ثانية من خلال الإجراءات الجديدة لإنجاز النظرة الأرثوذكسية للعالَم الاجتماعي. مالكو السلطة يتنازلون عن الطرق الأبوية الصريحة والأخلاقية ويدعون للانضباط والانضباط الذاتي للمهيمن عليهم، متخذين من شخص الرئيس نموذجا الكمال ويمتدحون موارد الذكاء والعلم. ومن حينه فإن مسألة طبيعة وعمل الإيديولوجية السائدة تطرح بطريقة جديدة. المعرفة الاقتصادية السياسية التي تعطى خصوصا في مدارس السلطة ترغب في تجاوز متعارضات المعايير التي تعتبر إيديولوجية لصالح نظرة تحييد ومحايدة يفترض أنها تقول فقط حقيقة الحالة. الخطاب الجديد للسلطة

الموضوع تحت شعار رعاية الكفاءة يستمد خصائصه من ظروف إنتاجه. وهو فعلا خطاب مجهول، مذهب بلا كاتب ولا مفكر، ينتج بالأحرى عن تنقل في شبكات تلك الأماكن المحايدة (لجان المخطط، لجان الحكماء، مؤسسات الفكر والمشورة...) حيث يتلاقى، لتخفيف اختلافهم وتنسيق نظراتهم، أفراد يحتلون مواقع متنوعة في حقل السلطة، موظفون سامون، خبراء وجامعيون وقضاة وأرباب أعمال.... وانطلاقا من معجم الأفكار الجهزة يمكن إنجاز متن كتب وخطابات رسمية، تسمح بسهولة من استخلاص خطط الفكر العاملة في بلاغة سياسية التي تنكر أنها كذلك. اختراع طريق وسط بين الأضداد السابقة والمتجاوزة هو وسيلة مفهومية مركزية. فالمعارضة العقيمة يجب أن يعوضها التوافق والصلح الذكي التي يكشفه العلم وينصح به. تمنح وسائل تجاوز الشقوق الطائفية لصراع الطبقات وحماس المشاريع، ورميها في سلة القدم، ورؤية التحديات الجديدة: خلف غموض المصالح الفئوية تنكشف القيود العميقة التي يلزمنا الاقتصاد (بالمعنى المزدوج) ويأمر علينا بفهمها، واحترامها وبل الرغبة في (التغيير، التكييف). معيارية ولكن دون الحاجة لقولها، فهو يعلمنا رؤية الضروري كمرغوب فيه، والرغبة في المساهمة في جعل محتمل أقر بأية حال أنه لا مفر منه. (إنتاج الإيديولوجية السائدة، مجلة بورديو: 1967/ 2-3).

إيديولوجية الكفاءة والخبرة تقبل صيغا مختلفة حسب الظروف، وحسب الخصائص (خصوصا السياسية) للعاملين. وقد قيل الكثير هنا لنعطي للقارئ كيفية استعمال يمكنه بنفسه أن يطبقها على عائلة كاملة من الحالات. وكل شيء يسير من الآن فصاعدا وكأن العالم الاجتماعي خاضع لتقسيم أساسي بين الأفراد الأذكياء والكفء وواضحي الذهن المدعوين للصبر أمام المقاومة وبقايا الفلول، والأفراد ضيقي الأفق الجهلة المطلوب تنويرهم. الأولون يركبون عربة التاريخ في حين أن الآخرين يقاومون حركة التاريخ بسبب قلة فهمهم وجهلهم. في هرمية البشر والعقول هذه أقصيت منها بالطبع الطبقات لأنه مبدئيا يوجد

محافظون وتقدميون تقريبا في كل مكان. ولكن في الواقع الضحايا الأولون للعمى، سلب ملكية رمزي الذي يضاعف سلبا ماديا، هم أعضاء الطبقات الشعبية الذي تنكر هويتهم.

الصراع السياسي لتحديد العالم الاجتماعي هو بالطبع أحد الجوانب الحاسمة للهيمنة الرمزية. فجنب المهمنين على الحقل السياسي الهادفين إلى الدفع لتبني الرؤية الأكثر مسايرة مع مصالحهم، يجب تضمين شلة مجموعات لها مصالح خاصة، مثل الصحافيين والمتخصصين في الرأي العام في معاهد استطلاع الرأي و"العلماء" من كل نوع، علماء سياسة وكتبة يدعون أن تعليقاتهم تحوي بعد نظر وعلو تفكير . وضد التصور الساذج الميكيافيلي لمؤامرة تجمع هؤلاء العاملين، يجب كسر حلقة المعتقدات بإظهار كيف أنه بمنطق عمله، الحقل السياسي يخلق فضاء إشكاليات بأسئلته وبأجوبته وحدود ما هو مرخص التفكير فيه. الأسئلة التي يطرحها السياسيون والتي هي ببساطة الأسئلة التي يطرحها الصحافيون على السياسيين باسم وذريعة الرأي وهي أيضا غالبا تلك التي تطرحها مؤسسات سبر الرأي العام على الجمهور بطلب من زبنائها والأحزاب السياسية، المهتمة بقياسات الرأي وبل وزيادة مهتمة بتقديم ومدح أمام الجمهور العام لقياسات الرأي هذه وهي وسيلة للفوز في الصراع ضد المنافسين (الفرنسيون هم متفقون مع...) (والجمهور يريد...) (والشعب يحلم ب...). وكلمات وعبارات (كانعدام الأمن....) تساهم في إطفاء شرعية على كيفية السؤال وقراءة الشفرة اللتان تصبحان أشياء عادية تفرض على الجميع دون أن يشكك أحد في مصدرهما ووظيفتهما. العمل السياسي الذي ليس حكرا على السياسيين يخضع لمنطق مصادقة أقل أو أكثر توسيطا وعلانية للاختيارات المقترحة في الحقل السياسي. ولتفكيك مجموعة الأفكار هذه من الضروري دراسة ليس فحسب شبكة تنقل الأملاك السياسية ولكن أيضا تقانات التشكيل والتمثيل للحقيقة الخاصة بمختلف أصناف العاملين. هذه التقانات هي جوهرية اتكالية وخانعة لأن غايتها هي التصديق على تحديد للحقيقة أنتج في الحقل السياسي. وهكذ فاستطلاعات الرأي تتضمن فرض إشكالية، من خلال اختيار الكلمات ومن خلال فقد

فعل طرح على أحد ما أسئلة فقط يطرحها المتخصصون؛ النقاش المتلفز يصبح سوى تأكيد لحالة العلاقات القوى الرمزية، موضحا مرة أخرى الشق الفارق بين الأفراد، النقابي الفئوي والخبير الذي له نظرة شاملة للأشياء.

خط سياسي: الواقعية الطوباوية

يعطينا بورديو إذا عددا كبيرا من الوسائل تسمح بالتفكير في السياسة[1] والرؤية في ظرفية. يشجعنا على تغذية سلوك نحو تمثيلات المهيمنين على الأخبار واتخاذ معايير تقييم في مواجهة حالة: أبعد مما قاله وكرره الصحافيون والخبراء والمحررون والسياسيون، يتعلق الأمر بابتكار أسئلة جيدة، ليس فحسب التي تستمد حقيقتها فقط من مصالح مادية ورمزية للعاملين القائمين على التعريف العمومي للأحداث، ولكن تلك التي تحوي القضايا الحقيقية - تطور الفوارق، تحول بنية العلاقات بين المجموعات، تقوية أو إضعاف استقلالية حقول الإنتاج الثقافي والفكري التي يقيد إمكانية تعبير حر ومنتقد، والحفاظ على النظام أو التخريب الرمزي الذي يهم ويخص المهيمن عليهم في مختلف العوالم .... وفي الطريق نلتقي لا محالة أشخاصا ليسوا مهيئين ليكونوا موظفي الكوني: خبراء الذين بشجاعتهم السياسية وتقززهم من كل ما هو شعبوي يدعون إلى الامتناع والتقشف، المرونة وعبادة العلم، فلاسفة وغيرهم من مثقفي الفرجة المستعدين لتقديم أفكار ظرفية كمساهمة مهمة في الثقافة، ومحررو افتتاحيات صحف كبرى الذي يغرسون عبرتهم من القصة تحت غطاء التعليق على الأخبار والذين يحددون الأخبار حسب ما يزيد في مبيعات جرائدهم وما يزعج أقل.

---

(1) مواقف التسعينات لم تكن وليدة طوعية مسلحة بنية حسنة. بورديو نشر عدة نصوص مخصصة لمواضيع السياسة: حول عمل الحقل السياسي "تمثيل السياسة عناصر نظرية الحقل السياسي" مجلته، 1981/ 36-37: 3-24؛ "التوكيل" أشياء قيلت: 185. حول استطلاعات الرأي"لا يوجد راي عام" قضايا اجتماعية:؛ "استطلاع الرأي علم بلا علماء" أشياء؛ والثقافة السياسية فصل الثقافة والسياسة، التميز: 463؛ الصحافة "هيمنة الصحافة" مجلته، 1994/ 101-102 و"حول التلفزة" باريس 1996 وغيرها عديد سواء بقلمه أو بقلم اجتماعيين مقربين من نظرته.

الاهتمام بالعمل الصحافي خصوصا عمل مقدمي برامج التلفزة باقتراح فرضيات وسبل لا عجب فيها عندما نخصص مثل تلك الطاقة لتحليل مختلف أشكال البناء الاجتماعي للحقيقة، التفاعلات في المشهد العمومي، ومناطق توتر الحقول. لماذا على بورديو الامتناع من استعمال علمه للتفكير في عالم مركزي بهذا القدر، وإن كان تافها جدا في إنتاج الرؤى حول العالم الاجتماعي؟ ولكن الامتناع عن تصرف علمي الذي في نفس الوقت يتدخل في فضاء عام، تدخل ذي هدف كوني يتعلق بالمواطنين وبالطبع المثقفين؟ يمكن أن ننتظر لما يشكك عالم اجتماع بطريقة معللة (وليس فقط أخلاقيا) في علاقات خضوع وارتباط الحقل الثقافي لحو الحقل الصحافي، أن يفوز بدعم حار من كل المثقفين، علاوة أنهم أحرار في تقديم مساهماتهم الخاصة لزيادة المعارف والعتاد حول الموضوع وسلطة التعبئة حول القيم التي ليست ضيقة فئوية.

الحرية الفكر ليست في المكافحة الضارية ضد طواحين هواء للمثقفين، هذه المعارك هي دون خطر ودون عدو (بالنسبة للعلمانية، الجمهورية الديمقراطية وضد التشدد الديني والستالينية....)[1]، التي هي علاوة على ذلك آلات حرب ضد الهرطقة[2]. تتمثل في التشكيك في المسلمات التي يتفق الجميع تقريبا عليها ا والتي تكون النظام الرمزي. لا حرية ثقافية دون خرق لحدود المعقول مع غير المعقول الذي يظهر اعتباطية الاتفاق واللياقة.

---

(1) إذا كان ماركس في نقطة لم يفقد حداثته فهي بالتأكيد انتقاده الحي جدا لعمليات الفكرية التافهة التي يتعاطى لها بعض الفلاسفة المعاصرون الذين يخلطون تجاوزهم لهيجيل مع حدث تاريخي أساسي . برهان على أن الإبداعية النظرية يمكن أن يشجعها تحكم جيد في الحقل.

(2) أرثوذكسية وهرطقة يبدو أنها اليوم أصبحت تعلن اعتباطيا حسب وجهة نظر الملاحظ: يكفي كما يبدو للتخلص من منافس بإلصاق لافتة الملتزم بالتقليد أو المحافظة ورميه في جانب التفكير الجاهز والمعروف سلفا ....علم الاجتماع يمكن أن يسمح لنا السير بعيدا من هذه المناظرات الخطابية السهلة التي يفوز فيها آخر من تكلم: بوضع بوسائلها الخاصة فضاء اتخاذ مواقف، تسمح بإعادة بناء الشبكات حيث تتولد وتنتقل الأفكار المذهبية، وإظهار الروابط بين المواقف المهيمنة زمنيا في عدة حقول (صحافة نشر ولإنتاج ثقافي...) وهي نفسها قابلة للتشييع وسلسلة مواقف تتخذ غالبا بكيفية المسلمات والمعقولية، بالكاد مستورة ببعض المفاهيم النبيلة ومن الأفضل فلسفية، ويقترح علم الاجتماع فكرا دقيقا وخارج التقليعات.

خطاب عالم الاجتماع يمكن أن يأخذ مظهرا تحرر فوضوي بقدر ما أنه يرفض مقارنة الهيمنة بلعبة مجردة وبعيدة لبنيات موضوعية: وهنا والآن على هذه الخشبة كما قد يقول جوفمان، في حركات وفي عبارات وفي طرق الكلام وفي صمت وتذوق وتقزز يظهر الانتماء العميق إلى ناظم الأشياء. واقع الهيمنة يمكن أن يتجلى بفضل تحول النظرة إلى الأشياء العادية في حين أن الرسائل السياسية ولو المنتقدة تعتمد على مراقبة مسبقة تطرد خارج المجال الرسمي مجموعة أشياء تعتبر غير ذات قيمة، وخاصة وشخصية. وفي هذا المنطق يمكننا فهم دعم مشروع ترشح كوليش[1] في عام 1981 لرئاسة الجمهورية. فأبعد من تكتيك سياسي (ولماذا؟) كان الأمر يتعلق بالقطيعة مع الوهم الجماعي المغذى جماعيا بأن لعبة المؤسسات تصلح للتعبير عن اختيار أصيل، الطريق التقدمي كان بالطبع التصويت لصالح المرشح الاشتراكي (ونتذكر اليوم أنه كان فرانسو ميتيران). ترشيح رجل مسرح هزلي مهني له خصائص إزالة وتقويض غموض مسرحي يشجع على التساؤل حول المراسم الانتخابية وحول المرشحين[2]. لا واقعية المثقفين يسكنها خوف وحذر مبالغ نحو السياسيين؟ الوضوح لا يتمثل ضرورة في التنازل تحت علة طارئ للبدائل المهنية السياسة، والانتقال بالعتاد والسلاح إلى حقل الفوز بحق بناء تصوريا ("مرحلتنا" و"تحدياتنا" و"التغير"...) ما طوره آخرون وما قرروا، ولكن الاجتهاد لكي لا يتوقف التلاعب بالكلمات، ورباطة الجأش أمام أشياء هي ما هي عليه. هذه الواقعية العلمية المسلحة تساوي الواقعية المحمودة في السياسة.

---

(1) ترشح كوليش وهو كوميدي فرنسي ساخر لرئاسة الجمهورية كان له وقع كبير وهز أعمدة الجمهورية وساءل ضمائر وعقول الكثيرين.

(2) لا أقول أن بورديو على صواب في هذه الحالة أو العكس (أقصد هنا الإشارة إلى كيفيات بعض مواقفه التي تبدو لي أنها تخلق تساؤلات مهمة)؛ وأقل من ذلك القول بأن المبادئ المؤسسة لها أي علل ذلك أنها متينة ومثلا قد يكون شرعيا الاعتراض عليه بأنه يميل للمبالغة ليس في البعد الرمزي المهم في تصوره لعلم الاجتماع، بل في الإمكانيات التحررية المضمنة في صراع حول هذا المستوى. سيكون ذلك نقاشا ممكنا وعلى أية حال أهم من الاعتراضات المغلوطة التي تعتبر غالبا كمناقشة.

تتمثل في رؤية ما يمكننا فعله لتشجيع في كل عالم خاص وفي كل لوحة من متحرك كالدير الذي يشكل العالم الاجتماعي، التقدم والكونية. الائتمان الاجتماعي والحق في العمل والحق في التعليم والمعلومة... هي في نظامها الخص مكتسبات كالعلم أو الفن في نظامها. هي مكتسبات تخرج من سيطرة قوى خارجية وخصوصا المهيمنين مجموعة أشياء وفرص. ضمان استقلالية هذه العوالم هو ضمان أن الاعتراف الاجتماعي يمكن أن يتحصل حسب كيفيات مضبوطة منظمة بطريقة أخرى غير الغنى والإرث الثقافي والعلاقات. وإذا فهو مساهمة في إيجاد في كل هذه العوالم مجموعة قيم تضامن وتبادلية لا تجعل من الآخر فقط وسيلة لتحقيق الغايات الخاصة. وفقط فإن الخط السياسي المقبول هو العمل على تحديد هوية وبالملموس ودون شعبوية هذه القضايا الحاسمة في فرص محددة، إضرابات وتحرك اجتماعي ومشاريع إصلاح حكومية وإستراتيجيات عولمة الشركات متعددة الجنسيات. ولذلك لا يمكننا إلا مساندة في مبادئها الكبرى الحركة الاجتماعية لصالح المصالح والخدمات العمومية؛ ومعارضة إضعاف الدولة الاجتماعية والتي نقصها سيولد يأسا مواتيا لأقصى اليمين المتطرف، دولة اجتماعية تنبأ بمجيء دولة قانون أحسن تسليحا في محاربة المشاكل الاجتماعية للفقر (مجلته: 1998/ 124)؛ إلا أننا نتخوف من هجرة جماعية لصالح رؤساء أبناك مركزية يمتلكون فقط تفكيرا ماليا ونقديا أرثوذكسيا كزاد ذهني: إلا شجب تقوية نظام ثنائي في التعليم العالي (باب واسع/ باب ضيق) من خلال إطلاق حرية العمل في هذه الحلقات الضعيفة؛ إلا مقاومة تفكيك الحماية التي يتمتع بها المبدعون غير الخاضعين للصناعة الثقافية الكبرى؛ إلا السعادة بتقدم أشكال التعبئة العالمية النقابية والثقافية...

وأيضا لهذا، خجلا من تكبر الزملاء الخبراء المستعدون دوما للإشارة على للشعب بما كان عليه أن يفكر للتكيف بذكاء مع حركة التاريخ كما يرونها هم، يجب القبول بالاستماع إلى ما يقوله الناس (وهو دور الاجتماعيين) خاصة وحتى ولو أن كلامهم، الغامض والمتخبط يخرج عن تصنيفات إدراك متخصصين الرأي العام والسياسيين. وهو

أضعف الإيمان: لا يمكننا تخصيص العلم بوظيفة اجتماعية تحليلية من جهة دون التعبير من جانب آخر على أن العمل العمومي في خدمة الجميع يترتب عنه أشكال عمل وتعبير في قطيعة مع مزاولة العنف الرمزي. طريق صعب يناقض التعريفات المهيمنة للمشاكل السياسية ويقصى لذلك على اعتبار سهولته لأنه لا يلعب لعبة التبادل اللازمة بين المنتجين الشرعيين للخطابات العامة. فكرة أنه الطريقة الوحيدة لإيصال الفكرة إلى الشعب هو ممارسة الديماغوجية الشعبوية تكشف خصوصا تحقير هذا الشعب. تدخلات بيار بورديو في الفضاء العام نجحت كما يشهد بذلك خوف بعض المنافسين، في البرهنة بأنه لم يكن يوجد ما يعلل الخنوع للبديل التعيس لواقعية خبراء وأنبياء مسرح مثقفي الإعلام الذين يتفقون على الأقل في تفسير كل معارضة لسير الأحداث ببقايا فلول، بمرض شيخوخة اجتماعية وعقائدية. هذه التدخلات كان لها أثر ترسيم: أحيانا وبعبارات شاملة (على طوباوية الليبرالية الجديدة)، وأحيانا بطريقة خاصة مواضيع عادية (التلفزة، حكومة اليسار...)، وسمحت بإعطاء تعبير متناسق ومتفتح عن الاستياء الكامن والمنتشر والمتولد عن الظرفية الاقتصادية بقدر ما أنه ناتج عدم ملاءمة.وسائل التعبير عن الاستياء. المثقف الاجتماعي لا يلتزم خارج دائرة مهاراته، يتحمل شكلا من خدمة عمومية للمعرفة الكونية في خدمة أشكال أخرى من الكونية. تواطؤ الكونيات الذي يتطلب كيفيات أخرى من التواصل الأصيل الديمقراطي: "أعتقد بأن الجميع سيربح كثيرا في توسع انتشار منطق الحياة الفكرية، منطق الحجج والدحض في الحياة العامة. اليوم هو منطق الشجب والنميمة والقذف والشعارات وتزوير الفكر المنافس هو الذي يتوسع غالبا في الحياة الثقافية. وقد يكون أحسن أن يؤدي المبتكرون وظيفتهم كخدمة عامة وأحيانا كخلاص عام" (حوار مع لومند، 14 يناير 1992).

مثل هذا الخط السياسي لا يغذي بالذات الجذرية ولو أنه يحترس من خلط الانتماء إلى اليسار مع ترك مصيره إلى الحملة الرسميين لشعار اليسار. أنفسهم الذي ينكرون على المفكر النقدي البحث لأخذ مكان السياسيين سيسخرون من لا واقعية خطاب يعدم

مقترحات ملموسة. أليس هنا سوء نية إذ أنـه حكـم يعتمـد في جـزء منـه علـى الخلـط بـين الوظائف المختلفة للمثقف؟ وبلا جدل المساهمات الأولى في النقاش في الفضاء العام هي من مستوى انتقادي: عالم الاجتماع يساعد في توضيح الرؤية في مجالات غالبـا مـا هـي مـسكونة بأساطير، في فصل المسائل الخيالية الـتي تنـاقش بـضجيج عـن المـسائل الحقيقـة المتجاهلـة أو المقصية. وبخصوص هذه الأخيرة التي حاول بجهد توضيحها، فليس له دوما أجوبـة يقترحهـا على شكل مشاريع قانون. وهذا لا يمنعه أيـضا في الحالـة العكـسية العمـل للحـصول علـى أجوبة مع البقاء وفيا ما أمكن للمتطلبات الفكرية التي التزم بها. وفي حالتين على الأقل بعـد عمل جماعي، خلال تقرير، لأساتذة الكوليج دو فرانس، حول التعليم وخـلال كتابـة بعـض التشخيصات والعلاجات لجامعة في خطر، اشترك بيار بورديو في إنجاز اقتراحات إصـلاح في مجال خاص الذي خصص له عديدا من الأبحاث. القارئ يمكنـه ملاحظـة كـم تختلـف هـذه النصوص عن خطابات مفكر كتبت ببساطة للترفيه، صور نظرية كـبرى، بيانـات ثوريـة بـلا نتائج. لحظة سماع مثل الكلام هي مناسبة حين تتحول اليـسارية الفكريـة إلى تفـرد مـا بعـد حداثي تاركة الطريق مفتوحا لمفكري "الإصلاح" والعودة إلى الماضي والـذين حكمـتهم تمـدح سير الأشياء واضعة حدا لاستنتاجات طوباويـة. تـلاق علـم الاجتمـاع والطوباويـة أصـبح متصورا وضروريا:"مثل تلك الطوباويـة الاجتماعيـة، يعـني الواقعيـة، قليلـة الاحتمـال عنـد المفكرين. وبلا شك لأن لها مسحة بورجوازية صغيرة وتبدو غير جذرية بكفاية. التطرف هو دائما راقي وجذاب، والبعد الجمالي للتدبير السياسي يعني الكثير للمثقفين" (أجوبـة: 169-170). من الممكن تجاوز بديل الخبرة التكنوقراطية ولا مسؤولية الروح الجذرية الجميلـة مـن حينها ننجح في الحفاظ على خط فكري عن علم دون براعة حيل ولا تكالب. الإشارة إلى ما هو في ظرفية معينة سيكون فورا قابلا للتحقيق هو في حد ذاته نصر متواضع ولكنه غير تافه، يحرزه الفكر الطوباوي على حساب نظام الأشياء.

الخاتمة

ثورة رمزية، في الموسيقى والرسم والأب والفلسفة والفيزياء وفي علم الاجتماع....، على صورة قطيعة مع حالة أنظمة التصنيف: طريقة جديدة لرؤية الأشياء وبالأحرى لابتكار وسائل جديدة بفضلها تتفتح آفاق غير معروفة. ذلك أن مثل تلك الأحداث ليست عادية.

وتشكل علم للعالَم الاجتماعي هو مثل على ذلك، وكذلك بعض الأعمال المهمة في هذا المجال. ولقياس مدى وقع ابتكار من هذا النوع يتوجب القدرة على تقييم الفرق بين فضاء الممكن الذي لاقاه العامل (أو العاملون) في ثورة رمزية والانقلابات في هذا الفضاء المترتبة عن عمله. وهو ما يفترض الإفلات من الكيفيتين الأساسيتين للعمى الفكري: الأكاديمية الذي ترفع كفضيلة مهنية الشك وعدم الإحساس بمبدأ الثورة نفسه، والعبث النظري المشغول بتحركات مرحلية مؤقتة ودورية للفكر ذات عمر متوسط من ثلاث إلى عشر سنوات.

ابتغيت أن أبرهن على أن نظرة العالم الاجتماعي التي يقترحها بورديو هي جزء من نظام الثورات الرمزية هذا. ولا محيد منه فمثل تلك الثورات تلهى بهجمات مؤخرة جيش ومن أهدافها محاربة الثورات والانتقاص من مداها. وهكذا نرى سذجا حقا أو متساذجين يبحثون ويستوردون من ترسانة وصمات عار نظرية لتحديد موقع، في الجانب الخاطئ (حتمية واختزالية...)، كاتبا كل عمله يعتمد بالذات على نية تصور برنامج نظري يفلت من أضداد يعتبرها كل تقليد فكري كغير متجاوزة. الشكل البدائي للتطفل الفكري، هذه الفضيلة الناذرة حسب فوكو يتجلى على الأقل في تتبع هذه النية وفهم الأرباح التي تلمح لها (يمكننا بعدها محاولة رؤية كيف أن الوقفة النظرية وجهت العمليات الملموسة للعمل الميداني وبعد العلم سنعتبر أنفسنا حسب الحالات أكثر أو اقل اقتناعا).

الثورة الرمزية التي قام بها بورديو هي هذه الطريقة الجديدة في رؤية العالم الاجتماعي التي تعطي وظيفة أساسية للبنيات الرمزية. ومن الآن فصاعدا لا يمكننا الحديث عن هذه حسب المتعارضات اقتصاد / ثقافة. وما أبعد أن يكون الرمزي من بقايا تستعصي على تحليل موضوعي لا يعرف ماذا يفعل بها، إنه في قلب التصورات والممارسات، هو مكون لوجهة نظر العامل. ويترتب من ذلك أن الحدود تعتبر من زوايا اقتصادية وسياسية. هذا بلا شك ما فهم مستعملو أفكار تصورية التي أصبحت بتزايد مألوفة لهذا الاقتصاد السياسي الموسع (رأسمال ثقافي، رأسمال رمزي، تميز وإستراتيجية...).

ودون العودة إلى هذه النقط المذكورة في الكتاب أود التذكير بتلخيص ببعض الجديد الأكثر دلالة من علم اجتماع بورديو. في البداية منح مساهمات حاسمة في معرفة العالم الاجتماعي. وأشكال جديدة من الفوارق استكشفت وحصلت على وضع مفهومي بفضل أفكار مثل الرأسمال الثقافي. هذه الفكرة التي تسمح بتوضيح الروابط بين النجاح المدرسي والمصدر الاجتماعي تؤدي إلى توسيع النظرة التي يمكن أن تكون لنا على إعادة إنتاج للنظام الاجتماعي بكشفها دور الثقافة وكيفيات التفكير والتصنيفات وبل والجسد يعني بإظهار الجزء الذي يعود لاستبطان البنيات الموضوعية والتواطؤ اللا واعي وغير المتعمد للعاملين. ولا يغدو الرأسمال الاقتصادي بنية تحتية ومكمِّلة بأشكال أخرى من الرساميل. في نفس الوقت فإن فكرة الهيمنة هي التي تتطلب أن توسع؛ فإزاء الفكرة ذات البعد الأحادي يجب تعويضها بفضاء مميز مهيكل بفضاءات أساسية للرأسمال: حقل السلطة الذي يستحسن أيضا تحديد موقع المجموعات المالكة للشرعية الثقافية فيه. وأخيرا أصبح ممكنا اتخاذ كموضوع العلاقات بين الشواهد المدرسية والظروف الجديدة للهيمنة الرمزية التي تجعل من نبلاء الدولة نموذجا أعلى للكمال البشري مع صفاته التي هي الكفاءة والحركية والديموقراطية. وفيما يخص فكرة الحقل فهي تشجع على توضيح سلسلة ثوابت. مثلا نلاحظ أن الأقطاب التي يتعرف عليها في حقل الطبقات المهيمنة تربط علاقة تناظر مع الأقطاب والتي حسبها

ينتظم حقل المؤسسات الأكثر شهرة في التعليم العالي؛ أو أيضا نوع المواقف خصوصا التي هي مرتبطة بالكونية والكوني، هي مكتسبات تاريخ، مثل الدولة، نتيجة مسار معقد من الاستقلالية الذاتية تسمح بجعل مقبولا نظام أشياء عمومية ومشتركة تخرج عن سيطرة القوى الخارجية. وبفضل الانعكاسية فإن هذه المساهمات في معرفة العالم الاجتماعي كانت مقرونة بتفكيك متلازم اجتماعي وفكري لوسائل معرفة وتمثيل العالم الاجتماعي: وهكذا الأمر في حالات استطلاع الرأي، أحد أقوى الوسائل للديماغوجية العقلانية في النمط الجديد للهيمنة، وفي حالة العمل الصحافي.

وثانيا علم اجتماع بورديو ساهم في تغيير بطرق مختلفة التصنيفات الثقافية البحتة، وهو ما ليس بمسلم به علما بالقوة الاجتماعية للمصالح، والاستعدادات والمقاومات. هذه النقطة وقد شكلت بمعنى ما المادة الجوهرية لهذا الكتاب، أكتفي بذكرها بشكل مختصر. درس مهم اقترح علينا هو أنه توجد طريقة للتنظير لا يمكن أن تترك ثابتة الحدود بين العلم والفلسفة. ومن حين يطرح علم الاجتماع ضرورة العمل الميداني، فإن أسئلة مثل التي حول الشروط الاجتماعية لإمكانية مفهوم خالص أو أيضا أنها تنصح بتجاوز البدائل المفهومية (قضية/ سبب، اتجاه/ قوة، انتماء/ خضوع...)، تجعل، بحكم هذا الواقع، صعبا الإمساك بقطيعة تشجع رفض نظرية البعض واحتكار الأسئلة النهائية الذي يطالب به آخرون. وليس هنا بعض من ثأر عالِم الاجتماع: فبمنط سليم جدلي يمكننا التفكير بأن الحوار وبالطبع المرغوب فيه يمكن أن يكون كأثر تغيير التمثيل الذي يشكله من ذاته كل تخصص لنفسه ولشريكه. وإذا أردنا توسيع التفكير حول هذا الحوار وشروطه وحدوده يجب أيضا، ولأن التفكير له شروط تاريخية للممكن، تناول المسائل التجريبية التافهة ظاهرا مثل مسألة المعايير الداخلية للتقييم والتصنيف التي تعكس في برامجها المدرسية، اختبارات ومباراة ومساطر توظيف...وعن هذا كان دوركهايم قد تحدث قبل قرن.

وأبعد من المجالات الميدانية حيث تولدت واختبرت هذه الأفكار مثل فكرة الإنعـواد والحقل التي لها نتائج حول طريقة التنظير. أولا لأنها تشهد بأننا نعنـى المشكلة الـتي ذكرهـا باشلار على سبيل مثال استعداد نظري أساسي هو مترتب عن معرفة العـالم الاجتمـاعي بمـا فيها في جوانبها المتواضعة أو الروتينية. ثم لأنها بتجاوزها إطار التحليل الجوهر الغـالي عنـد الفلاسفة تظهر ما نربحه بتفعيل واستعمال منطـق علائقـي: مـسلمة اللغـة القـصدية (وعـي، معنى، معتقد...) والبين ذاتية (الآخر، الفرد، الجموعة الفهـم...) تـترك مكانـا لكيفيـة رؤيـة تساهم في تغيير بشكل محسوس تعريفاتنا وفرضياتنا.

وثالثا وأخيرا علم اجتمـاع بورديـو يمنحنـا بفـضل وسـائل المعرفـة الإيجابيـة أناسـة متناسقة يتوجب إمكان تحديد موقعها في فضاء الأناسيات الفلسفية والعلميـة لتقـيم بطريقـة دقيقة وذات صلة ولكن بتاتا دون نسيان كل ما تدين به لعمل البحث وإلى الأسئلة التجريبية للميدان (بروليتاريا دونية، أساتذة جامعة...). إن ربط العلاقة بين الإنعواد والحقل يظهر لنـا كائنا اجتماعيا ومشتركا في مجتمع معني بالعالم علـة نمـط قبـل انعكاسـي، مـن خـلال أنظمـة التصنيف (دوركهـايم) والـتي ضـبطها مـع البنيـات الموضـوعية يـشجع المعتقـد الـضروري للمشاركة على الأقل في بعض لعب العالم الاجتماعي (باسكال). وبعـضهم يميـل نحـو المـال وآخرون نحو السلطة وأيضا آخرون نحو ما هو إنكار لهما أي الفـن والثقافـة... ولكـن علـى الأقل كلهم مشتركون في البحث للحصول على شكل من اعـتراف، هـذا التكـريم الرمـزي الذي اكتشفه هيجيل، صحيح في شكله البدائي لعلاقة بين ضمائر. الرأسمال الرمزي شـرط وصيغة الاعتراف يتنقل في حقـل وبـل وإنـه مـوزع بتفـاوت وقيمتـه ليـست جـوهرا بأقـل اجتماعية وجماعية. يوجد إذا عدة طرق تاريخية لتحديد التفوق الإنـساني ولهـذا فـإن النظـرة الليبرالية الجديدة لفرد عقلاني وحساباته باختزالها كل تعدد إلى حـوافز نفعيـة الـتي يمكـن أن تصبغ سوى على إنسان آلي نظري تبدو أنها تشكل تشويها وشكلا وهم مدارسـي فكريـا لا يهضم وسياسيا رهيبة.

قبل الافتراق مع القارئ يبدو لي من الحذر الدفاع عن نقائص هـذا الكتـاب. عـدة نقط تركت جانبا ولم يتم تناولها إلا عـابرا. وكـان يتوجـب غالبـا الـدخول في تفاصـيل بنـاء الموضوع الذي أنجزه بورديو لإبراز كل تلك التصرفات العلمية الحاسمة التي تحـصل خاصـة في حالة العمل. ومع ذلك ما قلته حول الموضوع بدا لي تقريبا شافيا ليس في حد ذاته ولكـن مقارنة مع هدفي الأولي التي كـان اقـتراح علـى القـارئ طريقـة اسـتعمال تـسمح لـه بفهـم الاستعمالات السابقة للنظرية والإمكانيات التي تحويها. إلا أنه لهذا توجب الدعوة للتشكيك في التمثيل المقترح عادة لاستعمالات النظريات: توجب إبراز ما هية نظريـة كنظريـة بورديـو وما هي التي ليست كذلك مع خطر تخييب آمال الذين ينتظرون شيئا آخر والذين ربمـا كـانوا يـأملون مواجهـات مـع بعـض المعـالم الـضرورية للحداثـة الفكريـة (علـى شـكل "بورديـو وآخرون").

ناقلا خارج الإطار الفلسفي الأصلي تعاليم فلاسـفة مثـل فيتجينـشتاين فـإن عمـل بورديـو يمكـن أن يـشجعنا علـى تمـارين حميـة فكريـة. وهـذا يبـدأ بكلمـات لا يـتحكم في استعمالات بعضها وليست مضبوطة وتولد عديدا مـن الأسـاطير. وهـذا قـد يتبـع بأسمـاء أعلام التي يجب أحيانا نسيانها بقدر ما أنها تـشجع دومـا أكثـر أو أقـل إغـراءات النرجـسية والنرجسية المضادة والنقاشات الخاطئة -نظريـة أو سياسـية- الـتي تمنـع مـن الاهتمـام أكثـر بالمشاكل، والمشاكل الحقيقية المهمة. كاتب مهم هو دوما أقل أصالة من حيـث، فيمـا نعتقـد، وأكثر أصالة في مسائل التي تبقى غير مدركة ببساطة لنقص الكلمات لتعريفها وتصنيفها مـن خلال مَعلم عادي. وهو ما نلاحظه عدة مرات في حالة بورديو. هل يقترح نظـرة معمقـة إلى العالم الاجتماعي بما فيه الأشياء المقدسة من فن وفلسفة، وأهدر المثقفـون هنـا فرصـة جيـدة للتغرب والتعلم على الأقل مرة واحدة المخاطرة بقبـول امتحـان فكـر مختلـف وغطـوا كـل نقاش بصياح وتعبئة من أجل الحرية والإبداع. مثل آخر: عندما نتحدث مع آخرين عن "يسار

يسار" تحصيل حاصل سليم يبدو مستغربا في حين يتوجب أن لا يزعج أحدا، وهنا نسمع لحنا معروفا ومترقبا ومستبقا "يسار اليسار" قادرا على خلق حجج وإخراج أسلحة مجربة.

المصير العام لأبحاث صعبة مثل أبحاث بورديو تطرح أسئلة لا يمكن معالجتها إلا في إطار دراسة علمية. ويمكن مع ذلك المخاطرة ببعض الفرضيات والتساؤل إذا كان النجاح التي تحصل عليه بين جمهور واسع لا يتأتى في بعض الجوانب من واقع أبعد من المفاهيم أو المقترحات ولو مشوشة، يتفاوت تقبلها وقبولها وتفهما، يجد القارئ نفسه في حالة مواجهة مع تجربة متفردة: هذه النصوص في علم الاجتماع التي لا تساير الوقفة المدارسية في إنتاج الأشياء تبدو أنها تمنح القارئ توليفا غريبا وناذرا للبعد والقرب والنصوص بتغييرها طريقة رؤيته ونظره إلى نفسه لها تأثيرات على الفكر بقدر ما على العواطف. ما يدرك ويرى في هذه النصوص ليس من مستوى نظري حصرا ويشكك في العلاقة التي لنا مع الثقافة ومع العلم وما يمكن أن ننتظره منهما.

نظرية العالَم الاجتماعي
عند بيار بورديو

Pierre Bourdieu et la théorie du monde social Albin Michel, 1998

يحتل بيار بورديو (١٩٣٠-٢٠٠٢) مكانة خاصة في مدرسة علم الاجتماع الفرنسي، إذ أن أعماله مست أسس ومنطلقات علم الاجتماع نفسه وإن طغى على أبحاثه طابع الميدانية. وقد أثارت كتاباته وتساؤلاته المنهجية والنظرية بل واستفزازاته حسب البعض) كما هائلا من ردود الفعل من مناوئة ومتعرضة ورافضة ومشككة في نوايا الشخص ومتهجمة ومحتقرة. واستحق عن جدارة صفة المفكر المشاكس أو المشاغب الأكاديمي أو المفكر الاستثنائي قد يسأل سائل ما المقصود بالاستثناء أمدح أم ذم!. وهو شغب يستحق تفهما ونظرة عميقة منها تتأسس رؤية واضحة منهجا ونظريا، وتُستمد قواعد عمل ومساءلة تحفز البحث وتغوص في خبايا ومنطلقات المسألة غير مكتفية بقشور التحليلات.

بدأ مساره العلمي دارسا للفلسفة، ثم في إطار خدمته العسكرية/ المدنية، استغل وجوده في الجزائر كأستاذ بها، المستعمرة الفرنسية آنذاك، فوجه جهده لدراسات الأناسة وعلم الاجتماع. وكانت حصيلة تلك التجربة كتاب اجتماعيات الجزائر.

تدرج في سلك التعليم الفرنسي من جامعة السوربون إلى مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية ومعهد علم الاجتماع الأوروبي لينتهي به المطاف في كرسي علم الاجتماع في أعلى المنابر الأكاديمية الفرنسية، الكوليج دو فرانس، معوضا الراحل رايمون آرون(*R. Aron*). وعرفت عنه مواقف سياسة مشهودة. وبرحيله فقدت الجامعة الفرنسية آخر عمالقتها الدوليين.

وسواء تعلق الأمر باقتراحات إبستيمولوجية لممارسات المعرفة أو بعلم اجتماع جديد للممارسات العادية، فإن مواقف بورديو النقدية تعبر عن اختيارات نظرية وأنطولوجية حول ما هو مجتمعي، من المهم وصفها وتسليط الضوء عليها، وإبراز منطلقاتها وعلاقتها مع توجهات في فلسفة اللغة والظاهراتية بغية إلمام حسن ببعض مقترحات بورديو في سياقها ومنبعها النظري.





عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع
الاردن - اربد - شارع الجامعة
www.almalkotob.com

تلفون: ٧٢٧٢٢٧٢ ٢ ٩٦٢+ / فاكس: ٧٢٦٩٩٠٩ ٢ ٩٦٢+
الرمز البريدي: (٢١١١٠) / صندوق البريد: (٣٤٦٩)
almalktob@yahoo.com